

من نقد الاستشراق إلى نقد الاستغراب

المثقفون العرب والغرب

أحمد النتيغ

المركز العربي للدراسات الغربية

الكتاب : المثقفون العرب والغرب

الكاتب : أحمد الشيخ

الطبعة الاولى

سنة النشر : يناير ٢٠٠٠

رقم الإيداع : ٣٧٨٩ / ٢٠٠٠

الترقيم الدولي . I.S.B.N

977-6000-00-2

جميع حقوق الطبع محفوظة

الناشر : المركز العربى للدراسات الغربية

المدير المسئول : صلاح الشيخ - أحمد الشيخ

العنوان : القاهرة - الالف مسكن - ممر ٤ - ١٣٧ ب

تليفون : ٤٩٣٣٤٧٦

المثقفون العرب والغرب



تقديم الكتاب

فى بداية العام الماضى، عندما صدر كتابنا «حوار الاستشراق»، لم أكن أتوقع أن يحظى بمثل هذه الحفاوة التى حظى بها، ولم أكن أتوقع كذلك أن يحظى بقدر كبير من سوء الفهم، كالذى تبدى فى بعض وجهات النظر، التى سادت فى عدد من الندوات والكتابات أثناء مناقشة الكتاب . ومبعث دهشتى هو تلك المفارقة الغريبة، فالكتاب ظهر ومن أهدافه الرئيسية العمل على تبديد سوء الفهم، هنا أو هناك، فإذا به يقع بدوره ضحية، لسوء الفهم الذى قام من أجل محاربته .

وبعد فترة تأمل، من جانبى، توصلت إلى قناعة راسخة، وهى أن الحديث والكتابة فى القضايا المتعلقة بالاستشراق والاستغراب، يتضمن بالضرورة سوء فهم، شاء المرء أو لم يشأ، فهذه القضايا تلقى بظلالها على طريقة التناول والتحليلات والآراء الخاصة بكل مؤلف، كما تلقى بظلالها أيضا على القراء والمستمعين، وقبل أن يبدأ فعل الاستماع أو القراءة ! فالحوار قبل أن يبدأ تجده بالفعل محاصراً بأحكام وصور معدة سلفاً وتجده مسبقاً بقدر كبير من الحماسة . أو الغضب، أو الرغبة المتعجلة لإبداء الراى فى هذه القضايا الشائكة .

وربما يطرح سوء الفهم هذا قضية التفاهم وحدودها بين الثقافات المختلفة . فالنموذج العملى الذى قدمته فى حوارى مع المستشرقين تم النظر إليه فى ندوة باريس على أنه يتضمن هجوماً ونقداً وإحراجاً كبيراً لرموز الاستشراق الفرنسى المعاصر بمختلف أجياله ، بينما تم النظر، فى ندوات القاهرة، إلى الحوار على أنه يتضمن ميلا واضحا تجاه المستشرقين، بل ودفاعا عنهم، ومنحهم مساحة كبيرة من الكلام دون تعقيب أو تفنيد لوجهات نظرهم . بل اعتبر البعض أن الحوار يفرض آراء المستشرقين وأذواقهم على أبناء الثقافة العربية!

هذا الاختلاف فى تقييم حوار الاستشراق يطرح بالفعل ما نسميه دائما بقضية «الحدود بين الثقافات»، والتي لم تعالج بعد فى ثقافتنا بالصورة التى تستحقها، ولم تدرس بعد فى أبعادها المنهجية والمعرفية .

وربما لا تكون الحدود بين الثقافات هى المصدر الوحيد لسوء الفهم الذى نتحدث عنه. قد يرجع ذلك أيضاً إلى استخدامنا مصطلحات قديمة وغير معاصرة، كـ«الاستشراق والاستغراب»، بالإضافة إلى أن الزمن قد شحنها بشحنات أيديولوجية تجعلها موضع اشتباه دائم فى هذه الضفة أو تلك. فالسمة التى يتمتع بها مصطلح «الاستشراق» فى الثقافة العربية والإسلامية غنية عن الوصف أو التعريف. والشئ ذاته ينطبق أيضاً على مصطلح «الاستغراب» الذى يخيف ويزعج بعض الدوائر الغربية. وقد تكون هذه السمة السيئة لمصطلحي الاستشراق والاستغراب، مسؤولة إلى حد بعيد عن تحويل الانظار بعيداً عن القضايا الهامة والمعاصرة التى عولجت أثناء هذا الحوار، والتى تفتح، فى نظرى، آفاقاً جديدة فى النظر والعمل ونحن على أعتاب الألفية الجديدة.

وربما يكون لفن الحوار، أو المحاورة، مسؤولية كبيرة فى هذا الشأن، فالثقافة التى يفتش أبناؤها دائماً عن الإجابات، قبل التساؤلات، وعن الخلاصات والنتائج قد يربكها فن الحوار، لأن النتائج والخلاصات لا تظهر فى نهاية الحوار، فنحن فى ثقافتنا، وحياتنا، قد تعودنا على الاهتمام أكثر بالأجوبة حتى قبل أن نستمتع للسؤال، وقبل أن تتضح لنا معالمه . وننسى أن السؤال قد يكون أكثر أهمية من الإجابات، لأنه يفتح آفاقاً أرحب نحو التفكير . وننسى كذلك أن السؤال قد يفضى إلى توجهات جديدة تحرك المياه الراكدة ، كما أنه فى أحيان كثيرة قد يحمل فى طياته الإجابة التى نفتش عنها دون أن ندري .

ونزعم، بالرغم من ذلك، أن حوار الاستشراق فى الكتاب الأول، وحوار الاستغراب فى هذا الكتاب، والذى تم فى النصف الثانى من عقد الثمانينيات، قد أفضيا

إلى مجموعة من النتائج والقضايا التي أصبحت متشرة على نطاق واسع فيما بعد، وليس أقلها أهمية طرحنا لمسألة الاستغراب على النحو الذى قمنا به. والذى أفضى إلى جذب انتباه عدد من الباحثين، والمؤسسات البحثية، إلى ضرورة تجديد إدراكنا للغرب من خلال تأسيس مراكز بحث علمية تنهض بهذه المهمة من أجل تصحيح الخلل القائم وكان من نتائج طرحنا لمسألة الاستغراب، أن أعيد النظر فى الكثير من القضايا، ومن أهمها ضرورة إدراك جديد لطبيعة البعثات العلمية فى العواصم الغربية وضرورة أن ندرس المحيط الغربى فى المجالات التى يكون من شأنها تصحيح التفاوت بيننا وبينه، لا أن ندرس موضوعات عربية فى عواصم غربية، كما يفعل أغلب باحثينا فى مجالات العلوم الإنسانية والاجتماعية .

كما أننا لم نذهب، فى هذا الحوار، مذهب الذين يعملون على إخفاء الصراعات والتوترات القائمة بالفعل، وكتبنا فى أكثر من مكان، أن التوتر الراهن الذى تشهده العلاقة بين الشرق والغرب، أو بين الشمال والجنوب، أو بين «العالم الحر» و«العالم غير الحر» يدعونا إلى التساؤل عما إذا كان هناك وعى جديد فى العالم العربى بدأ يتبلور فى السنوات الأخيرة إزاء الغرب؟ وأين يتشتر أكثر داخل المجتمع العربى؟ وما هى تلك الشرائح الاجتماعية المؤهلة أكثر من غيرها لدعم هذه الرؤية الجديدة إزاء الغرب بكل ما يمثلها علميا وسياسيا وثقافيا وحضاريا؟ ثم لماذا يزرغ هذا الوعى الجديد فى الشرق العربى والإسلامى. فى هذه الفترة بالذات، وليس قبلها أو بعدها، وعلى أية أقباض يتقدم هذا الوعى الجديد بالغرب؟ وبالتالي ما هى النتائج - الإيجابية والسلبية - المرافقة لانتشاره فى الاملد القريب والبعيد على حد سواء؟

لا نزعـم أننا طرحنا - ونطرح - هذه التساؤلات فى سياق محايد، لأننا لا نعتقد بوجود هذا «الحياد العلمى» فى قضايا تنتمى إلى مجال الصراعات التى تتطلب بالضرورة تحديد مواقع المتحاورين أو المتصارعين، كما أننا لا نزعـم، أننا نملك إجابات كاملة

وقاطعة عن هذه التساؤلات، وإنما نحاول أن نتلمس إجابات لها، وأن نشجع ونعرض الآخرين على ذلك، من أجل إضاءة العديد من الجوانب المرتبطة بمثل هذه التساؤلات والتي نعتقد بأهميتها في الوقت الراهن.

من المؤكد، بالنسبة لنا، أن هناك ما يسرر الحديث عن ظهور وعى جديد في الشرق العربي والإسلامي، مخالف للصورة التقليدية التي نمتلكها عن الغرب منذ قرنين على وجه التحديد. ومؤشرات هذا الوعي الجديد تكمن أولاً في حدوث ما يشبه الانقلاب في صورة الغرب بصفة عامة داخل المجتمعات العربية والإسلامية، وذلك لدى قطاعات لا يمكن الاستهانة بها أو التقليل من شأنها. إذ لم تعد صورة الغرب اليوم لدى هذه الفئات هي الصورة ذاتها التي بدأت مع عصر النهضة العربية وفتح القنوات بهدف التفاعل والاختذ عن هذا الغرب المتقدم.

الآن، نجد الأمر على درجة كبيرة من الاختلاف. فصورة الغرب في مجتمعاتنا كُفّت عن سحرها القديم. لم يعد الغرب في الوعي الصريح أو الضمني للعديد من شرائح ومثقفى هذه المجتمعات هو غرب العلم والحضارة والقيم والآداب الإنسانية الرفيعة، إنما هو ذلك «الغرب السياسي» في المقام الأول.

كما أن ما يسرر لنا الحديث عن هذا الوعي الجديد أننا لا نراه مقتصرًا فقط على الحركات الدينية المتشددة، والتي تحمل مواقفًا مناهضة للغرب بالنظرة! وإنما هناك أيضًا حدوث تحول جذري لدى بعض المثقفين العرب، الذين كانوا يتمتعون في السابق إلى التيار العلماني، بينما هم الآن يركزون أكثر فأكثر على نقد التبعية الثقافية للغرب، وأنه لا ينبغي الاقتصاد فقط على نقد التبعية السياسية والاقتصادية والإعلامية.

وهؤلاء المثقفون العرب الذين يقولون بنقد التبعية الثقافية للغرب ليسوا من القلة، وأطروحاتهم تجد من يتبناها ويدافع عنها باستمرار. على أن أهم ملامح ظهور وعى جديد لإزاء الغرب يتمثل في انحسار ظاهرة التغريب، وانحسار دور المثقفين العرب الذين

كانوا ينشرون صوراً جذابة وبراقة عن حضارة الغرب وثقافته وقيمه ومناهجه في النظر والتحليل . ومع انحسار دور هؤلاء «المستشرقين العرب» وسقوط الاقنعة الايديولوجية والشعارات السخالية من محتواها الوطني والقومي عن الحداثة والتواصل مع الثقافات الاخرى، أصبح الطريق ممهداً لبروز مثل هذا الوعي الجديد، فانحسار «الاستشراق العربي» هو في حد ذاته دليل ساطع على تبلور بديل آخر ورؤية أخرى للغرب .

وليس من قبيل المصادفة، أن تطرح هذه المرحلة الجديدة - من الوعي بطبيعة العلاقة مع الغرب - الكثير من الشكوك حول تكوين ومسار الوعي العربي والإسلامي منذ بداية فترة النهضة العربية الحديثة وحتى الآن، وحول الدور الذي ينهض به بعض المثقفين العرب في تكوين هذا الوعي بالغرب . كما أنه ليس من قبيل المصادفة أيضاً أن تثار الشكوك اليوم حول الدور الذي ينهض به بعض المثقفين العرب باتجاه ترميم صورة الغرب بطرق مختلفة داخل مجتمعات الشرق العربي، وللإبقاء على هذا الوعي القديم وتلك الصورة الجذابة عن الغرب في بلادنا .

وهذا الفريق، في اعتقادنا، لا يقتصر على بعض المثقفين العرب في المهجر، الذين يعملون في مراكز أبحاث أو جامعات أو دور نشر وصحف غربية، بل هناك من لا يزال يدعم ويؤيد هذا الفريق وأطروحاته داخل مجتمعاتنا، بحيث يدفعهم سوء الأوضاع السائدة إلى إدراك خاطئ للغرب وإسقاط «وعي رائف» على حضارته وإنجازاته وقدراته التي تمتلك العلم والمعرفة والفكر وربما كل شيء !! . هذا الفريق من المثقفين العرب، سواء من هاجر منه أو من يزال يفكر في الهجرة، يعيش في الواقع مأزقاً حقيقياً، ومن دون أن يسمى إلى الخروج منه بصورة مشرفة، ولقد سبق لنا أن ساهمنا في الحديث عن هؤلاء المستشرقين العرب، وفي تحليل آليات عمل هذا الاستشراق العربي . ولقد ركز هذا التحليل أساساً حول المناهج المستخدمة وحول الموقف من الغرب اليوم ، من خلال مطالبنا الملحة بضرورة مراجعة قنوات اتصالنا به من بعثات تعليمية، إلى مراكز ترجمة وإعلام، وصولاً إلى المؤسسات الدبلوماسية .. حيث كان هدفنا، ولا يزال، هو

تنشيط وتجديد فهمنا للغرب والمطالبة بتحديد أكثر وضوحاً لحدود التعايش، والتمايز بين الثقافة العربية والثقافة الغربية. ولم ننتقل أبداً من موقف عدائى بالقطرة لكل ما هو غريب، بل كانت حملتنا أساساً موجهة ضد هؤلاء المستشرقين العرب، وضد الدور الذى ينهضون به فى نطاق هذه المعادلة الصعبة بيننا وبين الغرب .

كان هذا الفريق المتغرب من المثقفين العرب يندب حاله قائلاً : لماذا العودة من جديد إلى الحديث عن الشرق فى مواجهة الغرب؟ ألم تتجاوز بعد مرحلة اصطناع كيانات وهمية لا وجود لها فى الواقع؟ أليس هذا الحديث استعادة لصياغة قديمة عن شرق روحانى فى مواجهة غرب مادى؟ ولماذا لا تقولون عالماً متقدماً فى مواجهة عالم متخلف؟ أو شمال فى مواجهة جنوب؟

فى الحقيقة لم يكن هذا الفريق المتغرب من المثقفين العرب يريد رواج هذه المعادلة من جديد، مع أنهم يعلمون جيداً أن مصطلح الغرب دائم الحضور فى الغرب ذاته، ويعلمون جيداً أن من يتابع إنتاج المثقفين فى هذه البلدان الأوروبية والأمريكية يجد أن غالبية الإنتاجات الثقافية دائماً ما يتم الإشارة إليها بالارتباط مع صفة الغربى. فيقال الشعر الغربى، الرسم الغربى، الموسيقى الغربية ... بينما لا يريد هذا النفر المتغرب من مثقفينا أن نشير إلى أصولنا وملامحنا وهويتنا الثقافية والروحية.

فنحن هنا مع هذا النفر المتغرب، نعيش مفارقة لا نعرف كيف نفسرها : بين غرب يعى ذاته جيداً، ولا ينسى الإشارة دائماً إلى أصوله وذاته، بينما الوجه الآخر للعملة - أى الشرق - يريدون له أن تغيب ملامحه وهويته الذاتية ، وأن يتحدث أبتأوه عن الثقافة العالمية، وعن ضرورة الأخذ والعطاء من الثقافات الأخرى، من دون تحديد مواقع التبادل والتفاعل، لذلك كان استياؤهم واضحاً من رواج صياغة شرق فى مواجهة غرب، لأنها صياغة تبرز البعد الثقافى والحضارى وتبرز أهمية الثقافة الذاتية للشعوب فى الصراع الراهن.

وقد ساهم حوار الاستشراق والاستغراب، فى طرح مسألة تمثيل الثقافة العربية فى الحوار المقترح مع الثقافة الغربية. والتساؤل حول الكيفية التى يمكن بها تمثيل الثقافة العربية فى مثل هذا الحوار الذى نعتقد بأهميته للجانبين. ومن البديهي، بالنسبة لنا، التأكيد على أن بعض المثقفين العرب فى المهجر لا يمكن لهم أن يقوموا بهذا الدور الذى يمثل حقيقة وجود الثقافة العربية، لأنهم يعيشون وضعاً حرجياً بين ثقافتين ولغتين وواقعين، وبالتالي يمنعهم هذا الوضع الحرج من تمثيل الثقافة العربية بصورة أصيلة. كما أن بعضهم، خاصة الذين أمضوا أكثر من ثلاثين أو أربعين عاماً خارج أوطانهم، قد وصلوا إلى مرحلة من «العالمية»! أنتسهم لغات وأفكار وعادات ومناهج النظرة المحلية لأوطانهم الأصلية، بل لا يخلج هذا البعض من رفض البديهيات التى لا يختلف بشأنها أحد حول واقع وجود نظرة وروية وطنية وقومية من جهة، وروية أو نظرة خارجية إلى مجتمعاتنا من جهة أخرى.

وفى هذا النطاق ينشط هؤلاء المثقفون العرب المتغربون فى نقد كل المقومات الأساسية والثابتة، التى تشكل هوية هذه الأمة وملامح نظرتها الوطنية والقومية، ويشيرون الشكوك حول الجذور الحضارية العربية التى تشكل أرضاً خصبة لمقاومة السلطات الاستبدادية القائمة، وفى الوقت نفسه مقاومة هذا الغرب السياسى، ليس فقط على الصعيد العسكرى والاقتصادى والسياسى، بل أيضاً على الصعيد الثقافى والحضارى.

فكيف يمثل الثقافة العربية من يقوم بنقد مقوماتها الأساسية؟ وماذا يتبقى له بعد إقصاء هذه المقومات كى يتحاور، من خلاله، مع الثقافة الغربية؟ بالطبع ليس هناك من يرفض نقد الأوضاع الثقافية السائدة، أو غيرها، لكن عندما يكون النقد موجهاً إلى تفكيك البنيات الأساسية لهذه الثقافة، فإن الأمر يدعو إلى التساؤل عن موقع هذا النقد ومشروعيته فى هذا الوقت. إذ لا يعرف المرء حقاً كيف يفسر موقف بعض المثقفين العرب فى المهجر، خاصة عندما يستمع لأحدهم، فى إحدى الندوات فى باريس، يتحدث عن اللغة

العربية بوصفها لغة ميتة، في الوقت الذي يكتب فيه باللغة الفرنسية. كما لا يعرف العرب كيف يفسر هجوم البعض الآخر منهم على الدين، كدين في حد ذاته، وليس كحركات دينية متطرفة، وذلك باسم الدعوة إلى معركة إستراتيجية . فهل هذا الفريق المتطرف من المثقفين العرب يمكن أن يمثل الثقافة العربية بمجملها، أم يمثل ما هو هامشي فيها؟

الشئ المؤكد بالنسبة لنا، أن لهؤلاء المثقفين العرب في المهجر دوراً لا يستطيع أحد أن ينكره عليهم، لكنه في كل الأحوال لا يمكن أن يكون دور تمثيل الثقافة العربية في حوارها مع الثقافة الغربية اليوم. وبالتالي على الأجهزة الثقافية الغربية المهتمة بمثل هذا الحوار، إذا كان اهتمامها صادقا، أن تكف عن الحوار مع من يشابهونها، عليها أن تبحث عما هو مختلف عنها، وإلا فلماذا الحوار إذا؟ من الأجدى، في هذه الحالة، أن يسمى المؤنولوج أو الحوار مع الذات.. إذ كيف يطلبون من هؤلاء المستشرقين العرب أن يمثلوا ثقافة شعوبهم الأصلية وهم على مسافة بعيدة عنها، وكيف يمكن لهم أن يقدموا صورا عن واقعهم وهم غرباء عنه؟! منطق الحوار يفترض الحوار مع الآخر، وليس مع اشياء الأنا . بالطبع نحن مع الحوار لكن نريد هذا الحوار حواراً مباشراً، مع رموز ومقومات الثقافة العربية . أما فيما يتعلق بالحوار في ثقافتنا العربية والإسلامية، فالأمر يحتاج منا إلى جرأة وشجاعة أكثر للاعتراف أولاً بأن ممارساتنا، على أصعدة كثيرة، لا تعطى لمبدأ الحوار الداخلي الأهمية التي يستحقها . فما بالنا بالحوار مع الآخر وما يفترضه من شروط كثيرة لم تتحقق بعد لإنضاج مثل هذا الحوار، ناهيك عن عوامل ومبررات الصراع التي تحول دون بدايات الحوار الحقيقي.

كان من المفترض أن يحمل هذا الكتاب اسم حوار الاستغراب، كما تزداد لكتابتنا

الأول «حوار الاستشراق»، لكن واقع أننا نستخدم مصطلحات تثير القلق والتوتر، فضلاً عن التباسها على كثير من القراء، جعلنا نختار عنواناً مغايراً وهو «المثقفون العرب والغرب»، ورغم شيوعه إلا أنه أكثر انطباقاً على مضمون الكتاب وموقف مشفقيننا من الغرب اليوم .

أحمد الشيخ

القاهرة : ٢٣ شوال ١٤٢٠ هـ

٣٠ يناير ٢٠٠٠ م

تمت أغلب هذه الحوارات، في النصف الثاني من عقد الثمانينيات، ونشرت في مجلة الفرسان، ومجلة الأسبوع العربي. فحواري مع زكي نجيب محمود، فؤاد زكريا، فتحي رضوان، محمد عزيز الحبابي، مصطفى صفوان، أنور عبد الملك، على فهمي خشيم، السيد ياسين، الحبيب الجتحماني، علاء سينا، سميح فرسون، كرم خله، ريتيه حبشي، أمين معلوف، نشرت جميعها في مجلة الفرسان، أما حواراتي مع محمود القبيسي، محسن مهدي، أنور لوقا، عز الدين قلوز، والقسم الأخير من حواراتي مع فؤاد زكريا، فقد نشرت بمجلة الأسبوع العربي، ولم تنشر من قبل حواراتي مع أنطوان المقدسي، ومحمد النيرب وندوة المركز العربي للدراسات الغربية مع حسن حنفي في باريس (١٩٩٠).

زكى نجيب محمود
خلافنا مع الغرب وهم متبادل

الحديث مع ركي نجيب محمود له متعته الخاصة ، فنحن هنا نتحاور مع مفكر يتميز بأسلوب أدبي رفيع عندما يصوغ أفكاره ، بحيث نجد أنفسنا أمام مفكر اتضحَت أفكاره لنفسه ولقرائه ، فهو لا يتحدث إلا عندما يكون القلب الذي يخرج فيه الحديث على قدر من الوضوح لا يحمل أدنى درجات الالتباس ...

والحديث مع ركي نجيب محمود له أهميته الخاصة أيضاً وهي أهمية لا تنبع فقط من كونه أبرز المفكرين العرب حضوراً وإنتاجاً على مدار أكثر من نصف قرن أغنى فيها المكتبة العربية بالعديد من المؤلفات في حقول الأدب والفكر والفن ، بل لأنه كذلك أحد المنارات الهامة التي أدركنا من خلالها الغرب عبر ترجماته ومؤلفاته وما اشتملت عليه من مواقف تعبر عن إدراك معين للغرب ابتداء من كتابه الصغير «الشرق الفتان» وحتى كتبه الأخيرة في تجديد الفكر العربي .

وموقف ركي نجيب محمود من الغرب موقف متميز ومثير للانتباه ويستحق أن يُروى بلغة صاحبه ، إذ بدأ بداية بها ميل شديد نحو الغرب أثناء مرحلة الشباب والدراسة ، وكما يصف في سيرته «قصة عقل» : «كان منطلقى منذ الأربعينيات فصاعداً في وجوب الأخذ عن ثقافة الغرب منطقاً بسيطاً لا تعقيد فيه ولا التواء ، فما دمت قد رأيت فرقا شاسعاً بيننا وبينهم في الحفاظ على حقوق الإنسان وكرامته ، وفي تقدم العلوم والفنون ، وفي درجة الثراء والرخاء ونظافة العيش ، وغزارة الإحساس بالحياة ، فلماذا لا ننقل إلى أرضنا مثل هذه الشجرة الفيئانة المورقة المشمرة ، لعلنا نفى إلى ظلها ونأكل من

ثمارها ... لم تكن تدعوني إلى ثقافة الغرب صبيحة مجنونة مفتونة بظواهر كاذبة ، بل هى دعوة دفعنى إليها ما رأيته من مكانة رفيعة للإنسان ، كل إنسان من حيث هو إنسان وكفى ، فعندئذ قارنت - رغم أنفى - بين ما رأيته هناك وما كنت أعلمه عن قيمة الإنسان فى ثقافتنا . ، وبعد انتهاء دراسته أخذ يدعو إلى اقتفاء أثر الغرب فى جميع النواحي . وكتب كتابه الشهير « شروق من الغرب » داعياً للانفتاح على حضارة الغرب كمصدر وحيد للنهضة . ويشير فى « قصة عقل » إلى موقفه فى هذه الفترة : « لم أكن فى تلك الأيام أفرق بين ما يجوز نقله عن الغرب وثقافته وما لا يجوز ، فكل ما عندهم واجب النقل إلينا مادامنا بحاجة إلى نتائجه ... ، هكذا كان رأى عندي حتى لقد بلغت فيه حدوداً من التطرف لم يعرف لنفسه حيلة أو حذراً » . وقد وصل رضى نجيب محمود بالفعل إلى القول بأن الوسيلة الوحيدة التى يتفجع بها من التراث هى « أن يلقي فى النار » ، وأنه « لا أمل فى حياة فكرية معاصرة إلا إذا بترنا التراث بترأ ، وعشنا مع من يعيشون عصرنا علماً وحضارة ووجهة نظر إلى الإنسان والعالم » ، لكن مع مروره من مرحلة الشباب إلى مرحلة النضج والحكمة بدأ يتحول من جليد . وقد عبر عن بداية هذا التحول فى مقدمة كتابه « تجديد الفكر العربى » : « لم تكن قد أتيت لكاتب هذه الصفحات فى معظم أحواله الماضية فرصة طويلة الأمد ، تمكنه من مطالعة صحائف تراثنا العربى على مهل ، فهو واحد من ألوف المثقفين العرب الذين فتحت عيونهم على فكر أوروبى - قديم أو جديد - حتى سبقت إلى خواطرهم ظنون بأن ذلك هو الفكر الإنسانى الذى لا فكر سواه ، لأن عيونهم لم تفتح على غيره لتراه ، ولبثت هذه الحال مع كاتب هذه الصفحات أعواماً بعد أعوام ، الفكر الأوروبى دراسة وهو طالب ، والفكر الأوروبى تدريسه وهو أستاذ ، والفكر الأوروبى مسلاته كلما أراد التسلية فى أوقات الفراغ ، وكانت أسماء الاعلام والمذاهب فى التراث العربى لا تجيه إلا أصداء مفككة متناثرة ، كالأشباح الغامضة يلمحها وهى طافية على أسطر الكاتبين » .

وأصبح تفكير رضى نجيب محمود منذ عام ١٩٧٠ يتمحور حول سؤال طرحه ساعياً

أن يجد له جواباً مقبولاً وهو : كيف نوائم بين ذلك الفكر الوافد الذى بغيره يفلت منا عصرنا أو نفلت منه أو فى صياغه « أخرى له : كيف السبيل إلى ثقافة موحدة ، يعيشها مثقف حتى فى عصرنا . هذا ، بحيث يندمج فيه المنقول والأصيل فى نظرية واحدة ؟ وبين تراثنا الذى بغيره نفلت منا عروبتنا أو نفلت منها؟ وحاول جاهداً اكتشاف هذه الإجابة ، فى كتبه الصادرة بدءاً من هذا التاريخ : تجديد الفكر العربى (١٩٧١) ، المعقول واللامعقول فى تراثنا الفكرى (١٩٧٢) ، ثقافتنا فى مواجهة العصر (١٩٧٦) ، مجتمع جديد أو الكارثة (١٩٧٨) فى حياتنا العقلية (١٩٧٩) م ن زاوية فلسفية (١٩٧٩) هذا العصر وثقافته (١٩٨٠) ، هموم المثقفين (١٩٨١) ، قشور ولباب (١٩٨١) ، قصة عقل (١٩٨٣) ، قيم من التراث (١٩٨٤) ، عربى بين ثقافتين (١٩٩٠) ، حصاد السنين (١٩٩٢) ، وعبر هذه الكتب العديدة وغيرها مما لم نذكره خاصة « الشرق الفنان » ، وجد رضى نجيب محمود الإجابة عن تساؤلاته فى القول بثنائية حضارية أو ثقافية على أن يكون التراث العربى الإسلامى هو الطرف الأول من هذه الثنائية المقترحة ، وثقافة العصر (الغرب) هى الطرف الثانى ، وعبر التوفيق بين هاتين الثقافتين نكون عرباً بتراثنا ومعاصرين بالقضايا والمشكلات التى نعيشها ، وبذلك نستلهم التراث ونحتك بالغرب احتكاكاً يجعلنا نأخذ ما عنده ونعطيه ما عندنا .

ويقدم رضى نجيب محمود فى كتابه " ثقافتنا فى مواجهة العصر " نموذجاً بليغاً لهذه الثنائية الحضارية ولإمكانية التوفيق بين ثقافتين . ويرى أن الموقف الحضارى للأمة العربية اليوم يتركز فى سؤالين ، الأول هو : ماهى أهم العناصر التى نعيشها حين نتحدث عن الشخصية العربية الأصيلة ؟ أما السؤال الثانى فهو : ماهى أهم العناصر التى تتألف منها بنية الثقافة المصرية ؟ ويقدم طائفة من المقومات الأساسية الضاربة بجذورها فى أعماق تراثنا يقابلها موقف مضاد للحضارة التى نعاصرها (الغربية) ، وحاول أن يبين فى كل حالة من الحالات التى ذكرها كيف يمكن أن تحدث المصالحة بين الفئتين فى قضايا تتعلق بالموقف إزاء الله والكون والإنسان وتجاوز الواقع المادى إلى ما وراءه

من غيب ، والتعامل مع الطبيعة المكانية ثم لغتنا التي تحمل ميراثنا في أوعيتها . ومن خلال هذه المقومات أو النماذج قدم زكى نجيب محمود - كما يقول - ما يشبه الخريطة لما يمكن عمله ، توفيقاً بين الأصالة والمعاصرة .

من هذا المنطلق كان الحديث مع زكى نجيب محمود ضرورياً في نطاق الحوار مع مفكرينا العرب عن موقفنا من الغرب اليوم . ورغم متاعبه الصحية فقد استقبلنا زكى نجيب محمود بترحاب كبير ووافق على أن نجرى معه حواراً حول قضايا يعلم مسبقاً أنها لا تفترض حواراً هادئاً ، وحاولنا قدر الإمكان أن لا نرهقه بكثير من الأسئلة حتى لا نقطع عليه أسلوبه الجميل في صياغة أفكاره . ولأنه لم يعد في مرحلة صحية تسمح له بالإصغاء العميق للسؤال التي تفتح مجالاً للخلاف .

◆ قبل أن أبدأ الحديث معه طرحت أمامه التساؤل الذي انتهى إليه بعض أقطاب الاستشراف المعاصر من أنه لا توجد دراسات وروى من الشرق إزاء الغرب توازى ما أعطاه الغرب من أبحاث ودراسات عن الشرق . طرحتنا هذا التساؤل على مفكرنا الكبير وسألناه إن كان يقلل ما طرحه المستشرقون أم يعترض عليه فقال لنا :

● تعميم الادعاء القائل بأننا هنا في الشرق العربى لا ندرس الغرب بمثل ما يدرسنا الغرب ، فيه تجاوز للواقع ، ذلك أننا إذا استعرضنا الفكر العربى منذ أول القرن الماضى - عندما افتتحت أبوابنا على الغرب - لوجدنا أنفسنا طوال هذه المدة ننقل عن الغرب ما استطعنا نقله ولم يكن هذا النقل مجرد ترجمة لما يكتبونه وإنما هو درس لما يكتبونه ، وبالتالي تحويل وتبديل وتفسير وبث لوجهات نظرنا داخل عمليات النقل هذه . بل إننا لو حللنا ما يعرض على طلابنا في المدارس والجامعات لوجدنا أن الكثير جداً من المادة المعروضة هي ذاتها ما يعرض على الطلاب في الجامعات الأوروبية ، فنحن لم نتردد في الأخذ عن الغرب كل ما ينتجونه من علم وصور فنية وأدبية والكثير من النظريات السياسية أو الاقتصادية أو حتى الاجتماعية . كذلك الآداب الغربية كالأدب الفرنسى

والأدب الانكليزى تجد لها فى جامعاتنا أقساماً خاصة فضلاً عن أن أقسام الأدب العربى تدرس لطلابها كل المذاهب النقدية الموجودة فى أوروبا وأمريكا . كل فلسفات الغرب أيضاً بجميع تياراتها تجدها موضوعاً للدراسة عند طلابنا بصورة رسمية على أيدى أساتذة أفاضل يتفرون شيعاً ومذاهب . فهناك من يحتضن الوجودية وهناك من يحتضن الظاهرية (الظواهرية) وهناك من يحتضن البراجماتية ، وهكذا تكون الحصيلة التى يخرج بها طالب الفلسفة هى حصيلة فيها هذه العناصر كلها . فيكون الطالب على دراية بما يقوله الغرب فى هذا الاتجاه أو ذاك . ثم إذا تركنا هذه الشرائع الدراسية الجامعية بمختلف أنواعها وتساءلنا فى نطاق الفكر العام والثقافة العامة . ماذا نكتب نحن فى صحفنا ومجلاتنا ذات المستوى المقبول ؟ إننا نكتب فى الغالب عن أهم ما يقال فى الغرب من مختلف المجالات . فإذا حدث تحول فى الرواية فى اتجاه ما . يكتب عندنا عن مثل هذا التحول الجديد ، وكثيراً جداً ما يصادف هذا التحول هوئى لدى أديب لنا فيحتضن هذا الاتجاه الجديد وينشئ أدبه على هذا الأساس ، فإذا تصادف أن انحراف الفن المسرحى أو فن الشعر انحرافاً حديثاً فى بعض الآداب الأوروبية وجدنا بين أدبائنا من يلتقط هذا الخيط الجديد ويصطنعه لنفسه فى ما يبدع .

نعلم جميعاً أن ما يسمى بالشعر الحديث فى الوطن العربى هو انعكاس لبعض التحولات التى طرأت على الشعر فى الغرب وهذا ينطبق على سائر فروع الأدب ، وهكذا فما من ميدان من ميادين السياسة والاقتصاد والتعليم فى الغرب إلا وله صدها عندنا سواء قبلناه أو عدلناه . وبالتالي لا يمكن أن نقول إننا هنا - فى هذا الفرع أو ذاك من فروع المعرفة - فى واد والغرب فى واد آخر . وليس صحيحاً أن يقال إننا فى هذا الجانب من حياتنا على غير وعى بما ينتجه الغرب أو على غير دراسة نقدية لما ينتجه . . . وربما كان القائلون من أبناء الغرب وعلمائه بأنهم يدرسونا ونحن لا ندرسهم إنما يقصدون هذا الجانب الذى يمس الرؤى الثقافية الخاصة . وهنا نقول : نعم ، قد حدث أن كثيرين من السادة المستشرقين قد تولوا هذا الجانب منا بالدرس أكثر مما توليتاهم

نحن بالدرس فى هذا الجانب من الحياة ، الذى يشمل دنيا القيم التى يبنى على أساسها جانب كبير من نشاطات الحياة اليومية العامة والخاصة .

ففى إطار القيم بما تشمله من عقيدة دينية أحياناً وتقاليدها التاريخية أحياناً أخرى يوجد الاختلاف بيننا وبين الغرب ، وهذا أمر طبيعى ، لأن الغرب نفسه إذا نظرنا إلى شعبه وجدنا بينها زوايا من الاختلاف حادة أحياناً ومنفرجة أحياناً أخرى فليس الإنجليزى فى رؤيته العامة والخاصة كالفرنسى وبالتالى فى مجال القيم حدث ويحدث شئ من سوء التصور المتبادل بيننا وبين الغرب ، فبينما هم يصورون تراثنا لأنفسهم كما يحلو لهم ، نحن أيضاً نتصور عنهم ما نتصور عن طرائفهم فى النظر والحياة .

◆ هل سوء التصور المتبادل الذى أشرت إليه يطرح أمامنا مشكلة حدود التعايش الممكنة والمستحيلة بين العقلية العربية - إذا جاز التعبير - والعقلية الغربية ؟

● الحقيقة التى لا مراء فيها هى أن الذى وسع هذه الفجوة الخلافية بيننا هو ظن ممزوج بكثير من الوهم عندنا وعندهم على حد سواء . وهذا الظن مرجعه وهَم يقول بأن العقلية العربية مختلفة من أساسها عن العقلية الغربية وذلك ما أرفضه رفضاً قاطعاً ، فليست العقلية العربية مغرقة فى الدروشة الصوفية كما قد يتصورون وإنما يتميز العقل العربى بأن جمع بفطرته بين العقل والوجدان بدرجة انعكست فى ثقافته أكثر جداً مما انعكست فى أية ثقافة أخرى ، فإذا جاز لنا أن نقول إن وجهة نظر الغرب إنما هى استمرار للرؤية اليونانية والتى هى رؤية منطقية الاطار ، فيها تحليل وفيها استدلال لنتائج من مقدمات ؛ ثم إذا جاز لنا فى الوقت نفسه أن نقول إن هناك ثقافات قديمة أخرى قامت فى الشرق الأقصى وكان قيامها على أساس الرؤية الحدسية المباشرة التى لا استدلال فيها وإنما خبرة حية مباشرة وإدراك بالبصيرة كما هى الحال فى إدراك الفنان أو المتصوفة ، أقول بعد ذلك أن العقل العربى كما ظهر فى تراثه فقد مارس الرؤيتين معاً

فى حياة واحدة ، وإذا كانت هذه المزاوجة بين عقل ووجدان هى التى مكنت العربى من أن ينقل الفلسفة اليونانية بأسرها من جهة وأن ينقل التصوف الهندى والفارسى من جهة أخرى ، فمعنى ذلك أنه بهذه القدرة ذاتها يستطيع العربى الآن أن يعيش فى الوقت نفسه فنونه وآدابه . هذا هو الأمر الواقع الذى أجد أن كثيرين من مفكرى الغرب وكثيرين من مفكرى العرب لا يرونه على حقيقته ، فبينما يظن المفكر الغربى أننا لا نستطيع بطبيعتنا أن نهضم حضارته وثقافته ، نرى بعض مفكرينا أيضاً يتصورون أن الغربى من جهة أخرى لا يستطيع أن يراىنا على حقيقتنا . ولعل بعض السر فى هذه المغالطة أو الرؤية الخاطئة من الطرفين معاً هو الظن بأن الإسلام شىء مختلف كل الاختلاف عن المسيحية واليهودية مما يجعل الغربى يتصور أننا من الناحية الثقافية على قدر كبير من الاختلاف عنه ، لكن إذا هم أمعنوا النظر فى هذه الديانات الثلاثة ، ورأوا فيها أوجه التكامل بدلاً من أن يبحثوا فيها عن أوجه التباين لرأوا أنها جميعاً كلمة إلهية واحدة جاءت بتعبيرات مختلفة ويكفى أن أبانا جميعاً هو إبراهيم عليه السلام .

◆ فى بداية الحديث عندما طرحت عليك ما يقوله بعض المستشرقين من أننا لا ندرسهم فى الغرب مثلما يدرسوننا فى الشرق . إجابتك هى أن ما ندرسه فى مدارسنا وجامعاتنا هو ذاته ما يدرس فى الغرب وأتانا فى مجلاتنا وأجهزتنا الإعلامية والثقافية نقل للقارئ العربى صوراً عن أهم ما يقال عن الغرب ، حتى أنه إذا حدث تحول هناك فى هذا المجال أو ذاك وجدنا صداه لدى كتابنا ومفكرينا وفنانينا . لكن ألا تعتقد أن فى هذا سوء فهم لأنفسنا باختيارنا أليس فى هذا النقل- الذى طال أمده - نوع من التبعية لثقافة الغرب وسوء فهم له ولنا ؟

● الواقع أن حضارة العصر ، وما يطبعها من وجه ثقافى ، لابد بحكم الضرورة أن تكون ينبوعاً موحداً لكل الشعوب التى تعيش فى هذا العصر وهو ضرب من المحال أن ينطوى شعب من الشعوب على تراثه الحضارى غاضاً بصره عن حضارة العصر لأنه حتى

لو فعل ذلك فسيفاجاً بأسلحة العصر تغزوه فى دقيقة واحدة ، وبالتالى علينا أن نأخذ من هذا الينبوع الحضارى الموحد بقدر طاقتنا على الأخذ ولا أرى عيباً فى ذلك لأن الأمر مطروح امام الجميع ، فالمسألة ليست تبعية وإنما مشاركة حضارية ، وهذه المشاركة لا تمنع شعباً من الشعوب من الاحتفاظ بهويته الشخصية لأن هذه الهوية قوامها فروع أخرى تضاف إلى التيار الحضارى العام ، فالهوية تظهر فى ما نفرد به .

◆ لكن كيف يظهر ما نفرد به وأخطار النقل والأخذ عن الينبوع الحضارى الموحد ما رالت طاغية وتهدد بإغراق كل الخصائص التى تنفرد بها وتشكل هويتنا الوطنية والقومية عبر السنين ؟

● ليس هناك شك . فى أن الينبوع الحضارى الموحد مركزه الغرب اليوم ، لكن قد لا يجرح هويتنا أن تشارك بالأخذ من الينبوع لأن مركزه الغرب . فى اعتقادى أن التبعية ليست فى العلم ولكن فى الثقافة التى تشكل الهوية التى ينبغى أن ينفرد بها كل شعب ... فالعلاقات الأسرية عندنا لها طابع معين . فى إنجلترا لها طابع آخر ، فلو قلدت ما عندهم فى أسرتهى لكانت تبعية عمياء . لكن إذا درست فلسفة العلم عند «راسل» هل نسمى ذلك تبعية ؟! لا أعتقد ذلك لأن فلسفة العلم موضوع مشترك بينى وبينه ، وبالتالى لا أرى أن هناك تبعية بأى معنى من المعانى فى العلوم وإننى أتساءل : هل نستطيع أن نتجج علماً وحدنا ؟!

◆ هذا عن العلوم الطبيعية لكن ماذا نقول فى العلوم الإنسانية التى موضوعها البشر بما تعنيه كلمة البشر من أبعاد متناقضة ومتصارعة ؟

● لا تبعية فى العلوم الإنسانية أيضاً . تنشأ الاختلافات فقط عند التطبيق العملى لهذه العلوم ، فإذا قلنا إن الإنسان متنافس ومتنازع بفطرته مع الآخرين ، فهذا قول ينطبق على الشرقى والغربى معاً ، لكن عندما نتحدث عن صور هذا التنافس والتنازع نجد هناك إمكانية للحديث عن الاختلاف والهوية .

ما الذى يشكل هذه الهوية فى تصورك ؟

فى حياة الإنسان مواقف هامة تقتضى ردود أفعال معينة إزاء الميلاد والزواج والموت ، ومثل علاقة ربة الأسرة بأفرادها ، علاقة الجار بالجار ، وعلاقة كبير السن بصغير السن . . . أمثال هذه المواقف عادة ما يكون لها ردود أفعال تقليدية يتعارف عليها كل شعب على أفراد ، ومن مجموعة ردود الأفعال على هذه المواقف تتكون هوية هذا الشعب ، أضف إلى ذلك علاقة الإنسان بالغيب . وبما يسمى بأولياء الله الصالحين ، أو علاقة الإنسان بماضيه وآثاره التاريخية . . . كل هذه الأشياء وغيرها يمكن جمعها وتحليلها فتجد فيها الميدان الذى منه تنبع الملامح القومية التى تشكل الهوية . . . فإذا كان هناك فرح وماتم فى نفس اليوم وفى نفس المبنى فمن الذى يخلى السبيل أمام الآخر ؟ من البديهي أن يكون رد الفعل عندنا أن أصحاب الفرح يؤجلون احتفالاتهم ويصمتون إكراماً لأهل الماتم وليس العكس ، هذه رؤية ورد فعل وقيمة من القيم ربما قد لا يوافق عليها الإنجليزى مثلاً . . . وهكذا فإن أمثال هذه الأشياء هى التى تحدد الهوية فى القيم وفى السلوك .

◆ ماذا عن دور التراث فى تكوين هذه الهوية ؟

● التراث يعطينا عدة أشياء لا غنى عنها فى تكوين الهوية ، أهمها اللغة وفى تصورى أنه أهم جانب فى هوية الإنسان لأن لغته هى عقله وهى وجدانه ، هى ملتقى الفرعين معاً ، فمن التراث نأخذ اللغة جاهزة ولا نصنعها ، ونأخذ منه كثيراً جداً من قيم الحياة بمعنى ماذا يكون الأفضل ؟ ما الذى يجعل الإنسان بطلاً أو نذلًا ؟ ما الذى يجعل الرجل فاضلاً وما الذى يبعده عن الفضيلة ؟ وهكذا نأخذ من التراث هذا المقياس أى مجموعة القيم المقبول منها والمرفوض أيضاً .

◆ من خلال استقراءك لمجمل الشروط السياسية والثقافية السائدة فى العالم العربى اليوم ، هل تعتقد أن هناك مؤشرات تشير لرؤية جديدة وموقف جديد من الغرب يختلف

عن الموقف الذى اتخذه منذ بداية النهضة العربية والانفتاح على الغرب ١٩

● أفراد الجماعات المتطرفة فى الدين من حيث المظهر الذى يتخذونه والمنحى الفكرى الذى يعادون به الغرب وما إلى ذلك هو فى نظرى تابع أساساً عن قهر حضارى ، يعنى لم نستطع أن نغترب من بحر الحضارة العصرية لتكون مع هذا الغرب تحت سقف واحد فأردنا أن ندافع عن هذا المعجز بأن جعلناه مذهباً واتسجماً ، هذا من جهة ، ومن جهة ثانية فى هذه المرحلة بالذات من حياتنا هناك اضطراب اجتماعى واقتصادى وسياسى نشأ نتيجة ظروف كثيرة من بينها زرع إسرائيل فى هذه المنطقة ، وصعوبة التحول من القديم إلى الجديد بسرعة كافية ، ولكن فوق هذا كله فى عقيدتى إن هذه الجماعات لجأت إلى ما لجأت إليه صديقاً عن جهل لعدم الاطلاع الكافى بالقراءة والسفر ، ولو علموا بما كان ينبغى أن يعلموا به لانتشع الكثير من هذه الأوهام التى يعيشونها .

فتحى رضوان
كراهيتنا للغرب مشروعة

فتحى رضوان من الشخصيات الهامة فى التاريخ السياسى والثقافى لمصر . والدور الرائد الذى نهض به على مدار أكثر من نصف قرن لا يختلف بشأنه الكثيرون سواء قبل ثورة ١٩٥٢ أو بعدها . فعندما تخرج فى الجامعة عام ١٩٣٣ انخرط فى العمل الوطنى ، وقاد مع زميله أحمد حسين تيار " مصر الفتاة " الذى جذب الشباب نحو العمل السياسى والوطنى ... وعندما قامت ثورة ١٩٥٢ كان فتحى رضوان فى السجن فخرج منه إلى الوزارة وعمل وزيراً فى عدة وزارات من أهمها وزارة الثقافة والإرشاد القومى . وأصدرت وزارة الثقافة فى عهد فتحى رضوان مجلة «المجلة» فى يناير ١٩٥٧ ، ومجلة نهضة أفريقيا ، وأنشأ مركز الفنون الشعبية كأول مؤسسة علمية لتسجيل التراث الشعبى بمختلف أنواعه . وفى عهده تم إنشاء «البرنامج الثانى» فى الإذاعة وهو برنامج ثقافى . وتم إنشاء معاهد للباليه والموسيقى والسينما ومسرح للتراث . وذلك فى الفترة من سبتمبر ١٩٥٢ حتى ترك الوزارة فى أكتوبر ١٩٥٨ . ألف فتحى رضوان أكثر من ثلاثين كتاباً فى مجال التراجم والسير ، والدراسات الوطنية والقومية والإسلامية وفى مجال الأدب والفن ، ومن أهمها : غاندى ، محمد الشاذلى الأعظم ، مصطفى كامل ، هذا الشرق العربى ، الإسلام ومشكلات الفكر ، فلسفة التشريع الإسلامى ، عصر ورجال ، مشهورون ومنسيون ، موسمى تؤلف كتاباً ، شافع ونافع ، يوميات محام صغير ، الخليج العاشق . كما كتب فتحى رضوان ، على امتداد نصف قرن ، مئات المقالات الأدبية بعضها صدر فى كتب ، وبعضها الآخر ينتظر من يجمعها ويصدرها فى كتب .

أما موقف فتحى رضوان من الغرب فيمكن رصده من البدايات الأولى لفترة الشباب حين فكر ، بعد تخرجه من الجامعة ، فى عقد مؤتمر للطلبة الشرقيين من طوكيو

حتى الدار البيضاء . ثم بعد ذلك مع تطور وعيه الفكرى والسياسى، حين وصل إلى فهم عميق لمعنى الثقافة القومية، فهو يقول :

... لا أعنى بالثقافة، الجامعات، ولا مدى انتشار العلم بين أفراد الأمة، إنما أعنى الثقافة القومية التى هى خليط من العقيدة والتراث الفكرى الموروث، فهى حينما تكون نابضة حية ويكون الشعب متماسكا قويا، لا تفعل فيه الأحداث ولا تهزه المحن، بل إن هذه الثقافة ذاتها تدفعه إلى العمل والابتكار والتجديد ثم تهيم له فرص الفيض على غيره من الأمم ... وإذا أردنا أن نحى أنفسنا من الاستعمار بأنواعه الثلاثة، السياسى والاقتصادى والعسكرى، وأن نحصنها منه، فلنحم ثقافتنا ولنجعلها أساساً لحياتنا، تنعكس صورها فى أعيادنا، وفى حياتنا اليومية، وفى حياتنا العامة . فالثقافة القومية هى خط الدفاع الأساسى الذى يسبق الخطوط الاقتصادية والعسكرية، بل هو الخط الذى يحمى تلك الخطوط، أو إن أردت الدقة هو الذى يخلقها خلقاً . (الهلال - يناير ١٩٥٦) .

ويحدد فتحى رضوان موقفه من الغرب، فى تاريخ لاحق، بصورة أكثر وضوحاً وحسماً عندما تحدث عن «حرب الحضارات» حيث يرى أن ما يتلهب به قلب الاستعمار الغربى من مطمع هو طمس الحضارة الخاصة ببلادنا التى نشأت على شاطئ النيل ودجلة والفرات، وانتشرت فى الدنيا كأنها فى عصور موغلة فى القدم، وحملت أسماء عديدة فرعونية، يونانية، رومانية، عربية، عثمانية، كما حملت أسماء أخرى : إسلامية، مسيحية، يهودية، انتزاع جذور هذه الحضارة، يؤدى بطبيعة الحال، إلى القضاء على أقوى عناصر المقاومة فى منطقة الشرق العربى، لأن هذه المنطقة بعد إنقطاع صلتها بماضيتها الحضارى، تيسر اندماجها فى الغرب، وذوبانها فى منطق، واصطناع أساليبه ومناهجه، وانعدام الإحساس بالعدوان الحاصل عليها، بإعتبارها امتداداً للغرب .

ويرى فتحى رضوان أنه بالفعل " منذ بدأت عملية تغريب العرب، ونزعهم تدريجياً، وبدأ واستمرار من أصولهم الثقافية، وسماتهم الحضارية .. وإذا اتخذنا مصر، وما تم فيها، نموذجاً لتطبيق قواعد عملية التغريب وفتح أبواب الثقافة الأوربية، لتلتهم كل ماهو عربى وماهو إسلامى وماهو شرقى، وتأكيد ترسيخ كل ماهو أوروبى،

وكل ما هو غريب، وإقامة العقبات والحواجز في وجه إحياء الماضي أو بعثه، فإننا نجد أن الخطوة الأولى في هذه الخطة هي تسريح الجيش وتأليف قوة عسكرية ضعيفة تكاد تكون بلا سلاح، قوامها جنود مرضى وجبهة وفقراء يرأسهم ضباط لا يعرفون من العلم العام إلا قشورة، ومن العلم العسكري إلا السير في السواكب وحمل بنادق فارغة من الذخيرة، وسيوف لامعة لم تستعمل قط ثم فك الأسطول المصري، وبيعه لشركات أجنبية وتحويله إلى شركة ملاحية تجارية .. (الهلال - يونية ١٩٨٣) .

وفتحى رضوان يطلقون عليه، في مصر، لقب « شيخ المناضلين » ويرغم أن اللقب يحمل قدراً من الإثارة لا تتفق مع مابنيه النضال والكفاح إلا أن الذين يعرفون هذا الرجل جيداً، ويعرفون كفاحه المستمر أكثر من نصف قرن، يعرفون أن هذا اللقب استحقه فتحى رضوان عن جدارة، فالرجل طاقة وطنية لم تنضب بتاييدها، ولم يمتد الزهن واليأس إلى خلائها حتى في أحلك اللحظات . وكان ثالث رعماء الحزب الوطنى المصرى الذى أسسه مصطفى كامل في بداية هذا القرن. وشارك في تمكين ثورة يوليو في بداية انطلاقتها، ولا يزال يتحرك في مصر دفاعاً عن حقوق الإنسان في الوطن العربى.

في لقائنا الأول مع فتحى رضوان دار الحديث في مكتبه عن إمكانيات وحدود التغيير السياسى في مصر . وفي اللقاء الثانى كان لنا معه هذا الحوار، في إطار سلسلة الأحاديث حول موقفنا من الغرب اليوم، وكان الحديث مع فتحى رضوان ثرياً ومشعباً وامتد ليشمل قضايا كثيرة بدأنا الحوار بتقديم فكرة موجزة لمحاورة عن الإطار الذى تدور فيه سلسلة الأحاديث الباحثة عن استقراء موقف جديد من الغرب . فتساءل الأستاذ فتحى رضوان :

● من أى زاوية تريد أن نبدأ الحديث ؟ هل نبحث في ترشيدها علاقتنا بالغرب أم نبحث أولاً عن طبيعة هذه العلاقة لكي نعرف عناصرها وكى نحكم في المستقبل على أسس مدروسة .

◆ أفتش أولاً عن ملامح هذا الموقف الجديد في رؤية الغرب والتعامل معه، وكانت نقطة الانطلاق هي «سوء الفهم» المتضمن في رؤية الغربيين لنا ثم رد بعض المستشرقين

بأننا لدينا سوء فهم أيضاً للغرب وأنا لم ندرس الغرب بصورة موازية للدراسة الغرب لمجتمعات الشرق .

● تحدثت معهم عن « سوء فهم »، وفي الواقع فإن المسألة هي « سوء نية » أساساً لأن لديهم القدرة أكثر منا في الدراسة والوصول إلى حقائق الأمور وبلغته أكثر دقة ووضوحاً، فهم لديهم الكوادر ومناهج البحث والتبويب، لكن مشكلتهم أنهم لا يريدون أن يتعرفوا على الحقائق بسبب الصراعات السائدة بيننا وبينهم بدءاً من قضية فلسطين إلى بقية قضايا التحرر ... كل هذه الأمور تجعلهم عاجزين عن أن يصلوا إلى إدراك جيد وحقيقي . فالمسألة ليست سوء فهم بل سوء نية .

◆ لكنهم يقولون إن سوء الفهم موجود لدينا، وأنا لا أعرف حقيقة هذا الغرب معرفة متعمقة، وكل ما نملكه هو أحكام عامة جائرة وأنا لم تصل إلى مرحلة الاهتمام والفضول بمعرفة هذا الغرب معرفة دقيقة، وإن الإبداعات الكبرى في شتى ميادين النشاط الإنساني هي إنجازات غربية، ولا نملك نحن ما نقدمه أو نضيفه إلى حضارة الغرب .. فهل تقبل مثل هذا الطرح ؟

● لا أستطيع أن أقبل مثل هذا الكلام . إنهم في الغرب غير منصفين ومتجنون علينا . إنهم معتدون علينا، ليس فقط على صعيد إصدار الأحكام الجائرة والظالمة بل أيضاً على الصعيد المادى بالغزو والاحتلال ولمدة قرون ... فلا يجوز مطلقاً بعد كل هذا التاريخ الاستعماري أن يقول بعضهم نحن مستجنون عليهم لأننا لم نستعمر بلادهم ولم نقسح ديارهم ولم نؤلف الكتب للطعن في أنبيائهم وقادتهم، كما فعلوا في الكتابة مجلداً وراء مجلد، للطعن في الإسلام وحياتنا بصورة ساخرة، إنهم ظالمون لنا، وإنكارهم أنهم ظالمون لنا فيه تجن أيضاً .

وهل نسوا الجزائر التي ظلت محتلة أكثر من قرن ونصف، ومصر أقل من قرن، وهل نسوا أنهم فرضوا علينا حضارة لأهداف غير حضارية . لو كانوا قد وجدوا أن حضارتنا متخلفة وأرادوا أن يأخذوا بيدنا، لكان منطقهم مقبولاً، فهل جاؤوا ووجدوا شعبونا تاكل اللحم البشري ؟! ولا تؤمن بالعقل الإنساني . لكنهم جاؤوا ووجدونا دعاة سلام ومحبة وإنسانية، وأنا صدرونا إليهم أفضل ما عندنا وهو المسيحية، فالمسيحية

إنتاجنا، والمسيح هو ابن الشرق العربي، نشأ هنا وتربى هنا، وتعلم هنا، والذين ذهبوا إلى أوروبا وغزوا أفضل أنواع الغزو وأشرفها هم بطرس الرسول والقديس مرقس .. وغيرهم، هم أيضاً أبناء هذا الشرق العربي .

نحن أهدينا إليهم شيئاً يتعلقون به ويتمسكون به ثم يقتلوننا بعد ذلك من أجله، والتاريخ يشهد على ما أقول . ألم يأت الصليبيون ثلاثة قرون ليحتلوا أرضنا باسم الصليب الذى أرسلناه إليهم، فهل هناك تجن العن من هذا وأسوأ من هذا . هل أرسلوا لنا شيئاً يساوى المسيحية، أو يساوى اليهودية، أو يساوى الإسلام . كل هذه الرسائل صدرت من أرضنا نحن، ومن إنتاجنا نحن . فكان يجب على هؤلاء، لو كانوا منصفين، أن يقولوا : أيها الشرق العربي نحن مدينون لك بأجمل ما لدينا .. ومن ثم، نحن لا نستطيع أن نتهم أبداً بالتجنى أو التشويه .

الحقيقة أن اختلاط السياسة بالعلم، يفسد العلم، ويجعل الوصول إلى الحقائق أمراً مستحيلاً، وأنا أريد أن أسأل هؤلاء "العلماء" الغربيين ما الذى جئنا فيه عليهم ؟

نحن لمسننا الغرب لمس اليد ولم نقرأ عنه فى كتب، ولم ندرسه عن طريق الفلسفات - القديمة أو الحديثة - نحن درسنا الغرب من الواقع وعرفنا أساليبه ودوافعه على الطبيعة، عرفنا جيوشه الغازية، ومحاولاته المستمرة فى مسخ عقولنا فى المدارس التى كانوا يقيمونها ويفرضون على أولادنا وبناتنا أن يتعلموا بها ابتزازاً لحاجتنا إلى التعليم، فنحن عندما نرسل أولادنا لمدارس اللبسيه فإنهم يتعلمون قدراً كبيراً من سب وقذف كل ما هو شرقى وعربى ومسلم وذلك فى كتب التاريخ . . . ومع ذلك نرسل لهم أولادنا لأننا نسلم بأن العلم الصحيح عندهم . وهذا يدل على ثلاثة أشياء، أننا أولاً نحب العلم والدليل أننا نرسل أولادنا لهم، وثانياً أننا متسامحون وأنه على الرغم من الطريقة التى تعامل بها عقولنا على أيدي الذين يعلموننا كنا نشيد بهم وبدورهم، ويتحدث أولادنا الذين درسوا فى مدارس اللبسيه والفرير والمدارس الانجليزية والأمريكية، عن النظام والنظافة واحترام المواعيد وحسن العلاقة بين الأستاذ والطالب، فالإشادة بهم تبدو واضحة فى كثير من المواقف، وهى إشادة من القلب مما يدل على أن الشرقى عندما يجد أى مظهر من مظاهر التقدم والإنسانية وحسن المعاملة فإنه يقابله

بأضعاف قيمة هذا الشيء الآتى من الغرب، ثم إننا علمنا أولادنا - بل إن أعظم علمانا أرسلناهم ليتعلموا فى جامعات السوربون وأكسفورد وكمبرج والكوليج دو فرانس . وكلك بقية أبناء الشرق مثل غاندى ونهرو اللذين تعلموا فى جامعات إنجلترا .

نحن أقدم فى الحضارة وأعرق فى العلم، ولأننا موطن الرسالات الدينية الكبرى - اليهودية - المسيحية - الإسلام - فنحن أكثر تسامحاً منهم وأشد انحيازاً للعلم منهم، مع أن الأمية تفتك بنا، ومع أن المرض يقتلنا، ومع هذا نحن حريصون على العلم وتقدير العلماء وإشادتنا بفضل الغرب تفوق كل تصور، مع ذلك نحن نعرف من حضارتهم الشيء الكثير ونحن نعتز بأن لدى الغرب الكثير من الإنجازات من ناحية وطرائق البحث العلمى المنهجى القائم على التجربة والتطبيق والاستقصاء، وفى كل مجالات نشاطنا نتحدث عن شكسبير وديكنز وفكتور هوغو وسارتر وتشيكوف وشوبنهاور وجوته كأنهم مفكرون، فماذا يراد منا أكثر من هذا ؟! وما هى الطريقة - التى يقترحونها لنا ! - لكى نعرف الغرب على صورة حقيقية أكثر من قراءة الآثار التى أصدرها، وجمعها، وترجمتها، والتأثر بها، والتمتع بما تحتويه، ولا أظن أن يطلب من أى جماعة إنسانية كى تعرف جماعة أخرى أكثر مما عملناه نحن . لم نقصر أبداً، بل هم الذين قصروا وجنوا علينا، لأن السبق الحضارى فى القرون الأخيرة أعطاهم فرصة أن يحكمونا وصدروا لنا أسوأ ما عندهم من التعصب الشديد للمذهب حتى ولو كان مذهباً يدعو للتسامح، فحروبهم الدينية كانت كفيلاً بأن تنفر الشرقى المتسامح منهم إلا أنه لا يزال يتحدث عن حضارتهم وعن تقدمهم ...

◆ إذا سمحت لى أريد أن أقول أن موقفنا من الغرب وإدراكنا له يحمل «سوء فهم» أيضاً . وجهة نظرى هذه تختلف جذرياً عن وجهة نظر المستشرق، فانا أرى أننا وصلنا لمرحلة لم نعد نعرف فيها ما يميزنا عن الغير، فبالنسبة لنا إذا كنا قد فتحنا قنوات مع الغرب منذ أكثر من قرنين وكنا نعرف فى البداية ما نريده من الغرب، كنا نعيش فى تخلف ونسعى إلى التقاط ما هو متقدم لدى الغرب، أما اليوم فأعتقد أننا فقدنا تدريجياً الإحساس بهويتنا، وننقل عن الغرب نقلاً لا نعرف منه ماذا نريد، فأصبح لدينا فى واقعنا وفى مختلف المجالات نوع من الغرب المحلى أو الاستشراق العربى، فإذا كان هناك المستشرق الغربى الذى ينظر إلى واقعى وحضارتى وثقافتى من الخارج - من خلال

معاييره فى النظر والرؤية - فهناك أيضاً المستشرق العربى الذى ينظر إلى واقعه من الخارج أيضاً وكأنه ليس ابن هذه الثقافة أو متصلاً لها أو امتداداً لتاريخها، وهنا ما أقصده بسوء فهمنا للغرب من وجهة نظرى أنا وليس من وجهة نظر المستشرق الغربى الذى يسعى بالطبع إلى تعميق ظاهرة الاستشراق المحلى لأنه يؤدى الدور نفسه لصالح الغرب، وبصورة أفضل من المستشرق الغربى ذاته، فهل تعتقد، بهذا المعنى، أن هناك سوء فهم للغرب معتمداً من جانب بعض باحثينا وسوء فهم لنا بالتالى، وبحيث أننا فقدنا ما يميزنا كجماعة إنسانية ؟

● نحن نمر بمحنة صحية، على المستوى الثقافى والحضارى، لأننا عندما بدأنا ندرک حضارة الغرب، وعلمنا أولادنا فى مدارسه فى الداخل والخارج، فى مختلف المجالات، فى فروع العلم الحية والعلوم الإنسانية، وحاولنا أن نقتحم هذه المجالات التى كانت محرمة علينا منذ بدأ الاستعمار الغربى منذ عام ١٨٨٢ إلى ما بعد ١٩٣٦ - فى مصر، وكان هناك أمر صريح من الغرب بتنحيتنا عن مجالات العلم الحقيقية، مع أن مجالات العلم الحقيقية أخذت منا، فنحن الذين علمناهم، وباحثوهم الاوائل - روجر وفرنيسيس بىكون - يعترفون بأنهم نقلوا العلم التجريبي من علماء المسلمين فى الأندلس لتعلم العلم - لما استطاعوا أن يبدأوا حياتهم العلمية الحديثة وأن الثوب الجامعى فى الجماعات الغربية ليس الا العباءة الإسلامية التى كان يرتديها المعلم فى المسجد . ولقد كانت الاكتشافات العلمية فى هذا الوقت وقبله من إنتاج العقل العربى الإسلامى . فنحن أمة علم بالمعنى الحرفى لكلمة علم . نحن الذين أسسنا العلم . ولا توجد أمة صنعت علماً بكامله من الألف إلى الياء مثلما فعلنا نحن فى علم الجبر . هذه أشياء لا يعرفها أولادنا الآن .

◆ إذا كانوا لا يعرفون ذلك فنحن نعيش محنة تراجيدية .

● المشكلة أنه لم تعد هناك مؤسسات ثقافية تصل الناس بجذورهم . أما بالنسبة للأزهر - باختصار - فلا يوجد شئ اسمه كلية طب الأزهر، علوم الأزهر وهندسة الأزهر وزراعة الأزهر، لأنها تحتوى على أضعف الطلاب وأضعف الأساتذة - بالطبع هناك الشهادات فالأستاذ الذى لا يجد له مكاناً وترفضه الكليات الأخرى يذهب إلى كليات الأزهر، والطالب الذى يحصل على أقل الدرجات ولا يجد له مكاناً فى الكليات

يذهب لكلليات الأزهر، وبالتالي تجمع هناك أسوأ الأساتذة، وأسوأ الطلاب، برغم أن الأزهر هو الجامعة الأصلية التي علمت العلوم الحديثة، فلم يكن هناك من قبل شيء اسمه علوم دينية وعلوم مدنية، فكان الأستاذ يدرس الحديث أو الفقه ثم الجبر أو الهندسة أو الجغرافية، وكان رأى أن نجعل ثانوية الأزهر ست أو سبع سنين ونختار الطلبة الأذاذ وليس الذين لا تؤهلهم درجاتهم لأى كلية جامعية، ونصرف عليهم ونجعلهم يدرسون العلم الإسلامى والعلم الحديث معاً . وعندما ينتهى من المرحلة الثانوية ينتقل إلى الجامعة، وبذلك يكون قد ألمّ بالعلوم الدينية والعلوم الحديثة، وتختار كليات الأزهر فى هذه الحالة من الطلاب الأزهرين الذين عاشوا فى ظلال العلوم الدينية ولم ينقطعوا عن علوم العصر، فيصير الطالب عالماً ازهرياً عن حق . ومن هذا الطريق نصل الحاضر بالماضى صلة حقيقية غير مفتعلة . أنا أريد الأزهرى بكل خصائصه وبالعلم الأزهرى كاملاً وبعد ذلك أعطيه العلم الحديث، فتراثنا القديم ملىء بثروات وكنوز هائلة من حيث الفكر والوصول إلى أعماق الحقائق، لكن عليك أن تخوض أهوالاً من أجل إعادة تبويبها ومراجعتها وتنقيحها وإعادة بنائها، واستبعاد ما لا يلزم منها وإحلال ما هو جديد مكانه . . نحن صلتنا بأنفسنا مقطوعة ومن هنا يجب أن نعيد هذه الصلة مع أنفسنا ولإنجاز ذلك لابد أن توجد جامعة، وهى موجودة فعلاً - جامعة الأزهر - وتكون مهمتها اختيار أفاضل الناس من المصريين والعرب الذين يبدو على وجوههم النجابة وعلى أبدانهم الصحة، للنهوض بهذا المشروع .

◆ هل تعتقد أن الاتصال بذاتنا يعتمد فقط على جامعة الأزهر؟

● الأزهر هو المثل الذى يمكن أن يحتذى به بعد ذلك، ولا تنس أن جامعات الغرب الكبرى هى جامعات لاهوت أولاً، السوربون أسسها كاردينال، جامعة هارفارد تحمل اسم قسيس، ترك نصف ثروته لتأسيس كلية تعلم اللاهوت فقط، ومع الوقت أضافوا لها كلية للتربية من أجل إعداد القسس ثم تالتت الكليات بعد ذلك، وعلينا نحن أن نبتدئ باللاهوت (الدين) كى يصل بنا إلى الترجمة والأدب، وعندما تكون السوربون وهارفارد وكمبردج بدأت كليات لاهوت تقليداً للأزهر ومحاكاة له، فلماذا لا نعيد ما بدأنا به، لماذا لا يدرس النشء العلوم التراثية كلها منذ دخوله المدرسة وحتى وصوله على أعتاب المرحلة الجامعية وحتى يتشرب هذه العلوم بطريقة طبيعية وميسرة وليس بصورة منفرة

كما هو شائع الآن .

إذا فلنشيد نحن ببناءنا الخاص بالطرق العلمية الحديثة مع توفير الروح العربية ، وهذا هو المطلوب فى كافة المجالات ، علينا أن نقدم لمواطنينا شيئاً يتعلقون به ، وبدلاً من أن نعظهم عن أهمية العلم القديم وعظمته ، علينا أن نعلمهم هذا العلم أولاً . فالمواطن العربى على استعداد أن ينتمى لذاته مرة أخرى بل هو تواق إلى ذلك لكنه لا يجد سبيلاً لأنه لا يوجد أمامه سوى دعوات ومقالات صغيرة تتحدث عن الانتماء والهوية كمجرد كلمات ثم يجد المواطن نفسه بعد ذلك فى حالة فراغ ، علينا أن نعيد هذا المواطن إلى ماضيه كاملاً ونربطه فى ذات الوقت بما هو حديث ، أى أن يعيش لحظة الانتماء بصورة جيدة ، ولحظة الحاضر بصورة جيدة أيضاً . وللأسف ما هو قائم لا يكشف عن انتماء ولا عن استيعاب لما هو حديث ، تجد الشخص يتحدثك عن كتب من التراث ، من دون أن يقرأ عنها شيئاً ، وكذلك تجد على الجهة الأخرى من يتحدثك فى الثقافة ، عن شوبنهاور هيغل ، سارتر ، برنار شو ، ومن دون أن يقرأ كتاباً واحداً لأى منهم ، أنه يقرأ فقط أسماء ويعتقد أنه يعرفها جيداً " لمجرد أنه حفظ بعض هذه الأسماء وقد تعجب إذ قلت لك إننى قرأت مؤخراً كتاباً عن آل سعود ، فإذا بالمرجم العربى ينقل الأسماء كما هى فى النص الأجنبى دون أن يدقق فى واقع الكلمة العربية فمنطقة الإحصاء بالسعودية يكتبها الإحصاء وأشياء من هذا القبيل . المشكلة أن هذا المترجم لا يعرف أصلاً تاريخ المنطقة العربية ولا أسماءها ولا أقاليمها ، ومن هنا أنا أدعو إلى الإهتمام بالأزهر بوصفه «المشتل» حتى يخرج لى أناساً أدفع ببعض منهم للإشراف على لجان التأليف والترجمة والنشر . وبعضهم رؤساء تحرير للصحف ، وبعضهم وزراء ... لأنهم يجمعون بين العلم القديم على طريقة صحيحة والعلم الحديث بوسائله المعروفة ، وبذلك يستطيعون أن يربطوا بيننا وبين الماضى بأساليب الحاضر ، ويصلوا بين هذا الماضى وهذا الحاضر بطريقة صحيحة وليس بالوعظ والإرشاد .

الا تمتد أنه من شروط الوصول إلى هذه المرحلة المتقدمة أن يكون هناك وعى ذاتى متقدم ومتخلص من حالة الوعي المغترب أولاً، وكى يتم البناء على أصول صحيحة بعد ذلك ؟

الذين يعرفون الماضى قليلون جداً لذلك لابد أن يكون هناك هذا المشغل، ليعلم الناس كيف يفكرون وكيف يكتبون، لأن الكتابة بالطريقة المغتربة تشوه الناس، والكتابة بالطريقة القديمة تفرهم .

◆ لاحظ أن نقد وعينا بالغرب لا يحتل مساحة بارزة فيما تطرحه من آراء إصلاحية، فلكى أبني بناء أصيلاً - أكرر - لا بد أن أقاوم قليلا هذا التعلق المريض بالغرب.

● بالطبع يوجد هذا التعلق الشديد بالغرب فانا أحيانا أقرأ بعض الكتب فأجد أن المؤلف يصصر على أن يكتب بجوار بعض الكلمات مرادفها الفرنسى من دون أن يكون القارئ العربى فى حاجة إلى ذلك . فمثلا تكتب كلمة عقلانية وبجوارها مرادفها الفرنسى، من الطبيعى أن تكتب الكلمة بالفرنسية عندما يكون المصطلح الفرنسى هو الأساس ونقل إلى العربية مثلما يقول السورى مثلا «شركة مغفلة» وتقول نحن «شركة مساهمة» فهنا من المشروع أن تكتب المصطلح الفرنسى لأن الترجمة العربية قد لا تكون موفقة هنا أو هناك . لكن لا معنى لأن تكتب كلمة باب أو شباك وبجوارها ما يرادفها بالفرنسية...

◆ إذا سمحت لى أريد أن ألع مرة أخرى فى طرح التساؤل، فى إطار البناء واستعادة الذات، أريد أن أعرف مدى تصورك لأهمية إدراك جديد للغرب، ووعى جديد بالغرب قادر على أن يضعه فى حدوده الجغرافية والحضارية ألا يسبق البناء وعى ذاتى متقدم؟

● ما هو السوعى؟ أنا ضد استخدام كثير من التعبيرات، فبدلا من أن نقول نعلم الأولاد، يتحدثون عن بناء الإنسان . وأنا لا أعرف ما المقصود ببناء الإنسان، أنا أرى

هذا اغتراباً فى استخدام مصطلحات ذات رونق . . . فالذين يتحدثون عن البناء عليهم أن يعرفوا أن القضية هى أن نزيد عدد المدارس، ونرتفع بمستوى التعليم ومناهجه، ونعالج المرضى . . . هذا هو البناء . وأنا رأى لكى نضع الغرب فى حجمه الطبيعى ونتخلص من محاكاته والمباهاة بأننا تعلمنا فى مدارس وجامعاته . علينا أن نجد منافساً له فى أراضينا . ولا يمكن أن أنجح فى خلق منافس للغرب إلا إذا عرف أولادنا الشرق بصورة جيدة وجذابة وممتعة .

◆ لكن وأنا أفعل هذا أصطدم بما هو موجود فى الواقع الآن، وبالتالي قد يكون الانتظار حتى أستطيع الوصول لمرحلة المنافسة والمقارنة أمراً لا جدوى منه وربما قد يظل انتظاراً دائماً !!

● أنا لا أتحدث عن تعليم الناس كلها دفعة واحدة، بل أبدأ بعمل مشتل يفرز قادة ورواداً فى كافة المجالات . مثلما فعل رفاة رافع الطهطاوى الذى ألف كتابين أو ثلاثة لا تزال تفعل فعلها حتى الآن، وكذلك الذين صنعوا النهضة المصرية فى عهد محمد على وما تلا ذلك - لم يتجاوز عددهم خمسين شخصاً - ذهبوا إلى الغرب وتعلموا وعادوا بعلمهم إلى بلادهم ولم تغلبهم أبداً محبتهم لفرنسا وإعجابهم بها، ولم يصلوا إلى مرحلة التنكر لبلادهم .

◆ من خلال استقرائك للواقع اليوم ولعلاقة الشرق بالغرب . . هل تعتقد أن هناك موقفاً جديداً من الغرب يتبلور هذه الأيام بصورة مغايرة لما عاصرناه ؟

● هذا بدأ فعلاً مع اندلاع الثورة الإيرانية وظهور الخميني، الذى يعتبر الحضارة الغربية حضارة فارغة وجوفاء وأنه يجب علينا أن نتحرر منها ومن تأثيرها علينا، أى التخلص من الغناء الغربى والعادات الغربية والملابس الغربية، كل هذه الأمور تطارد وتحارب حرباً سياسية وليست حرباً عقلية، لكن هناك من جهة أخرى عودة إلى الشخصية العربية والشرقية والإسلامية وميل إلى مزيد من العلم والمعرفة بأصولنا وهذا

شئ جميل ويتنظر أن ينمو . وطبعاً هذا مصحوب في بعض الأحيان بكمية شديدة للغرب، وهي كراهية مشروع، لأن الغرب لا يزال يطاردنا بطريقة سيئة جداً . لكن أنا بلا شك مدين لهذا الغرب بكل الميكانيكيات والآليات التي تسمى تكنولوجيا، وأنا لا أرفضها أبداً، وقد أرفض ما تنتجه من تبعية عقلية للآلة ومصدرها . وتحويل المسائل الإنسانية إلى مسائل مادية خالية من الروح لذلك كل ما تعرفه الحضارة الغربية هو عكس ما قصده من مآكيناها، هذه المآكينا انتهت إلى نقيض ما جاءت من أجله، أنها إذا حضارة غربية بلا روح وشريرة جداً، ولا تنتج أبداً إلا للكسب وليس للإسعاد والدعوة، إلى الإنتاج في الحضارة الغربية ليست دعوة إلى الوفرة والرخاء وإنما هي دعوة إلى الكسب . ومن هنا تجد انتاجاً أوفر جداً وتجد أيضاً مجاعات لم نسمع بمثلا من قبل . . فانا اعتبر الحضارة الغربية حضارة سيئة وضارة وبلا روح واستعمارية وقائمة على الهيمنة والسطو، فهي أسوأ حضارة عرفها الإنسان مع أن منتجاتها في منتهى العظمة لكنها تحولت كلها إلى الشر والتدمير والسيطرة والقهر .

◆ في حديثي مع مصطفى صفوان، في إطار سلسلة الأحاديث عن الموقف من الغرب اليوم، قال إن الحضارة الغربية مبدعة في أدوات الانتاج ومبدعة أيضاً في أدوات التدمير .

● وأنا أرى أنها مبدعة في التدمير أكثر جداً من إبداعها في الإنتاج بلا شك، ولم تنتج شيئاً مبدعاً يوازي ما أنتجته على صعيد إلقاء القنابل في هروشيما وناجازاكي، إذا افترضنا مؤقتاً أن القتل إبداع . . فكونها تقتل وتدمر مليون كائن بشري في ثوانٍ فانا لا أرى أنها انتجت شيئاً إيجابياً إنسانياً يوازي كارثة ما أنتجته على صعيد التدمير .

فؤاد زكريا
الغرب لم يفرض ثقافته

فى نطاق سعينا نحو موقف جديد من الغرب اليوم، ونحو موقف جديد أيضاً من الذات، ومن الطريقة التى أدركت واستوعبت بها الغرب فى القرنين الماضيين . سعينا لإجراء هذا الحوار مع فؤاد زكريا، لأنه من المفكرين القلائل فى العالم العربى الذين يملكون رؤية واضحة وثابتة عن الغرب، بل أكاد أقول أن فؤاد زكريا ترتبط كتاباته ومواقفه بنوع من الدفاع عن الثقافة الغربية، منذ كان رئيساً لمجلة «الفكر المعاصر» فى أواخر الستينيات فى مصر . وحتى هذه اللحظات لم يغير الدكتور فؤاد زكريا قليلاً أو كثيراً من آرائه مع أن كثيراً من المفكرين العرب قد راجعوا أفكارهم بصورة واضحة فى الفترات الأخيرة، ولا نعرف فى الواقع إذا كانت هذه ميزة تحسب فؤاد زكريا أم تحسب عليه، لكن الشيء المؤكد أن فؤاد زكريا يقدم وجهات نظر تفرض على القارئ أن يتمعن فيها كثيراً قبل أن يصدر حكماً ما . فالقارئ يلحظ أولاً أن هناك صدقاً وهموماً تدفع هذا المفكر والفيلسوف إلى اتخاذ مثل هذا الموقف من الثقافة الغربية . وقيل أن نبداً الحوار مع فؤاد زكريا أطلعناه على الحوار الذى سبق أن أجريناه مع عدد من المستشرقين والتساؤل التالى : لماذا لا يوجد استغراب يوارى ما أنتجه الغرب من أبحاث ودراسات عن الشرق ؟ وطلبنا من فؤاد زكريا أن يقول لنا رأيه أولاً فى هذا التساؤل، فأجابنا :

● هناك بعض العرب الذين يعيشون فى الخارج، فضلاً عن بعض المستشرقين، فى الحوارات التى أجريتها معهم يميلون فعلاً إلى المعانى المتضمنة فى مثل هذا الطرح الذى

يقول لماذا لا يوجد من جانبنا استغراب، وأنا أرى من البداية أن هذا رأى خاطئ، بل على العكس فنحن لا نحتاج لآى نوع من الاستغراب لسبب بسيط هو أنه موجود فى حياتنا وتعليمنا وثقافتنا منذ القرن التاسع عشر، ومنذ اللحظة التى كان يعرض فيها الشيخ رفاعه رافع الطهطاوى على الناس الأشياء التى يهرته فى باريس، بدأ يحدث نوع من الاستغراب بمعنى محاولة من شرقى لفهم هذا المجتمع الفرنسى وتقديمه إلى المجتمع المصرى، ثم بعد ذلك محاولات استخدام الأجانب من أيام محمد على وفتح مدارس لتعليم الطب والهندسة والعلم الغربى بصفة عامة، ثم فترة الخديوى اسماعيل وما تضمنته من اتجاه واضح نحو الغرب، وهناك أيضاً دور المثقفين طوال القرن التاسع عشر والقرن العشرين الذين حاولوا الاقتباس من الغرب، ونقل فنونه وآدابه وعلموه ... أضف إلى ذلك المناهج التعليمية فى المدارس والجامعات، وبالتالي فالمطالبة بأن يكون هناك استغراب مواز للاستشراق هو أمر يثير الاندهاش - بالمعنى الشائع للكلمة - فالاستغراب موجود وموجود على نطاق واسع بل أن الذين ينتقدون حركة الاستشراق، فى الحقيقة يدعون إلى أن نقل من كمية الاستغراب الموجودة عندنا حتى نهتم أكثر بحياتنا وثقافتنا الخاصة، وبالتالي لا يوجد معنى وراء هذه الضجة التى تستهدف إظهار أنه لا يوجد استغراب لدينا، أنا أقول لهم لدينا استغراب فعلاً .

من جهة أخرى هناك بعض الأحكام الحضارية إزاء الغرب أعتقد أنها خاطئة فى اتجاهين، هناك مثلاً أصحاب الاتجاهات الإسلامية يحاولون تصوير الحياة الغربية والحضارة الغربية بصورة تتضمن قدراً كبيراً من الشبهة، لكن هذه ليست محاولة للاستغراب بل تدخل فى نطاق الدعاية الأيديولوجية التى تنتجها الجماعات الإسلامية من أجل الوصول إلى أهدافها الخاصة، ومن أجل أن تصل إلى نتيجة مؤداها أنه لا خلاص لنا إلا بالعودة إلى الهوية الإسلامية لأن الغرب متحل وفسد ومدمر وحياته ضائعة وفى طريقه إلى الضلال وأن الحضارة الغربية هى حضارة تفتى نفسها بنفسها وفى طريقها إلى

الزوال . . . فى اعتقادى أن هذا التصوير يحمل قدراً كبيراً من التشوية لكنه تشوية متعمد ولاغراض دعائية .

من جهة أخرى هناك محاولة لقد الحضارة الغربية على أيدى مثقفين علمانيين تصل إلى نتائج مشابهة إلى ما وصل اليه الإسلاميون، من ناحية أنها تدين الغرب لأنه مفرض وعلمه مغرض وليس موضوعياً، ولا يقترب من الشرق إلا بهدف السيطرة عليه . وبالتالي يحاولون إقامة نوع من الحاجز بين الثقافة الغربية والثقافة الشرقية قبل الألوان، وقبل أن تنضج الظروف فعلاً لكي يقام هذا الحاجز بصورة تلقائية . والنتيجة العملية لذلك هى أن الاتجاهين معاً - النقد الإسلامى للغرب والنقد العلمانى للغرب - يصلان إلى النتيجة نفسها .

❖ ماذا نتقص بالتضج قبل الألوان فى هذا السياق ؟

❶ أعنى أننا لم ندرس حضارتنا بما فيه الكفاية، نحن درسنا حضارتنا دراسة تشوها دائماً فكرة القداسة، بمعنى أن أى اقتراب من التاريخ الإسلامى أو الفكر الإسلامى أو حتى الحياة الإسلامية، يكون مشوباً منذ البداية بفكرة إظهار هذا التاريخ بصورة مقدسة، وحتى لو لم تصرح بذلك فانت تفترضها - هذه القداسة- فلنستعرض الكتب والدراسات المخصصة لهذا، فسنجد افتراضاً ضمنياً موجوداً بقوة. حتى عند الذين لا يصارحوننا بذلك وهو أننا نريد أن نبعد بتاريخنا الإسلامى وثقافتنا الإسلامية عن «الدنيوية»، وعن العيوب التى قد تلحق بنا من هنا أو هناك، ثم نريد أن نشب أن تاريخنا مقدس، ومن خلال ذلك يبدأ البحث فى الخلفاء والفلاسفة والمفكرين . . .

هذه هى المقدمة الأولى والفكرة المضمرة التى تؤثر بقوة - حتى لو لم نصرح بها - فى كل كلمة نقولها عند بحثنا ودراستنا لثقافتنا وبطبيعة الحال هذا يؤدى إلى توسيع نطاق المحرمات والمناطق التى لا تستطيع الاقتراب منها، فمن الذى يستطيع

لدينا أن يعرض لجوانب معينة فى السيرة النبوية ... هذا مستحيل ... من الذى يستطيع لدينا أن يعرض لجوانب معينة فى حياة الخلفاء الراشدين ؟ من الذى يستطيع أن يصدر أحكاماً موضوعية فى ما يتعلق بالعلاقة بين الجماعات الخارجة عن الإسلام السنى والتيار الرئيسى ... وهكذا هناك جوانب لا تستطيع الاقتراب منها نتيجة فكرة القداسة واعتناق الناس مناهج عتيقة وبالتالي لم نستطع أن نفهم تاريخنا وحياتنا فهماً جيداً، وبالرغم من ذلك، وبسرغم أن هذه هى المادة الخام الموجودة عندنا، وأقصى ما وصل إليه إبداعنا باستثناء حالات حديثة وقليلة جداً ، بالرغم من هذا نريد أن نقول أننا لا بد أن نستغنى عن رؤية الآخرين والاستشراق !! بينما أرى أن رفض الاستشراق لا ينبغي أن يتم بدعوة أو بمعرفة، المسألة كلها فى تصورى زوبعة فى فئانج ... لسبب بسيط وهو لماذا لا أدرس حضارتى وأنتج دراسات وأبحاثاً أفضل منهم، ويوم يحدث هذا ستكون تجاوزنا الاستشراق عملياً فى الواقع ودعنى أسأل ما الذى يدفع أى باحث أو مثقف أو شاب عربى إلى الإطلاع على كتب وأبحاث المستشرقين «بلغاتها الأصلية أو مترجمة» إذا كان عنده دراسات عميقة بلغته وبمثقفيه بما فيه الكفاية، وبحيث لا تدفعه إلى البحث فى «سموم المستشرقين» !!! لذلك أقول أن المعركة بأكملها ليس لها معنى وليس لها داع، فإذا أردت أن تعمل فاعمل، هذا كل ما فى الأمر .

◆ إذا سمحت لى أريد أن أقاطعك فى هذه النقطة لأننى أرى أن المعركة لها معنى على نقيض ما تقول، فالمطلب الذى ترفعه فلنعمل نحن لا خلاف بشأنه، نحن نريد أن نعمل فعلاً . لكن كيف ؟ عندما نحاول مصطلح بواقع عمل قائم، نحن لا نعمل فى غرف مغلقة، وكى أدرس واقعى وتاريخى وثقافتى أمامى معوقات كثيرة، من أهمها إنتاج المستشرق الغربى والمستشرق العربى على حد سواء، وكى أبداع منهجى الخاص من قراءة ثقافتى وحضارتى فإننى أصطدم أولاً بالمناهج الغربية القائمة (ماركسية، فينومينولوجية، بنوية، نفسية ...) وهى مناهج موجودة ومتشرة ولها نفوذها الواسع

بين باحثينا ومثقفينا، بل البعض لدينا يتبنى هذه المناهج بصورة متطرفة تفوق فكرة القداسة التي أشرت إليها في بداية الحوار ... فلدى هذا نفر من الباحثين يكاد يكون المنهج مطلقاً أو صابراً للقرارات والأوامر، ولا يستطيع حتى أن يعدل ولو بنسب بسيطة قواعد هذا المنهج ... فلكى أعمل لابد أن أصنع مسافة نقدية - أو إذا شئت معركة - ليس مع الاستشراق العربى المحلى المنتشر فى أجهزة الإعلام ومراكز إنتاج الشفافة والآداب والفنون ... معركتى إذاً مع الطريقة التى انتقلت وتجسدت فيها الثقافة الغربية فى مجتمعاتى، معركتى ضد انتشار «الغرب العربى» المسؤول عن إخماء الملامح الوطنية والقومية واضعاف فرص الإبداع والأزدهار فى بلادى ... ولا بد أن نمش مشاكلنا ونبدع حلولاً لها ... لا يمكن أن نستورد التكنولوجيا والثقافة والملابس وطريقتنا فى الحلم والضحك .. لا يمكن أن نستورد هويتنا .

● فلنحدد النقاش بتعابير أكثر دقة، تقول هناك مناهج غربية وأساليب غربية أنت وانتشرت فى بلادنا، أنا أتساءل كيف انتقلت إلينا هذه المناهج ؟ هل هناك جيش غربي غازٍ يحملها معه، هل هناك نابليون جديد يطبع هذه المناهج فى منشور ويعلقه على أعمدة المساجد ؟ بالطبع هذا لم يحدث، بل نحن الذين نأتى بها. فهل فرضت علينا - باستثناء الفترة الاستعمارية - المناهج الماركسية أو الفينومينولوجية مثلاً أم أن هناك ناساً - من صميم ثقافتنا - بمحض إرادتهم ذهبوا إلى هذه المناهج وطبقوها عندنا، فالمسألة هنا إذا كنت تريد أن تخوض معركة فإليك هنا تحارب عناصر تنتمى إلى صميم ثقافتك .

◆ وهذا ما أقصده من الحديث عن ظاهرة المستشرقين العرب .

● لا، الحملة الحالية ضد الاستشراق وضد الغرب لا تقول بذلك لابد أن نكون منصفين، إنها تهاجم الآخرين فى ما وراء البحار وليس المحليين الآخرين فقط ولو كان الهجوم مركزاً على من هم فى الداخل، وضد الثقافة المحلية عندما تخضع نفسها أكثر

مما ينبغي لشقايات أخرى إن هذا شيء مشروع، لكن الوضع الحالى يسير إلى أن مهام المعركة توجه إلى الآخرين فى الغرب، الذين يريدون أن يسمموا تاريخنا وأفكارنا - بالطريقة التى تكتبون بها عنا - وأنا صراحة لا أوافق على هذا الكلام بأية صورة من الصور، لذلك هذه المعركة التى وصفتها بأنها زوبعة فى فتنجان، لأن هذه الشقافة الغربية لا تأتى إلينا بقوة مسلحة، ولا تفرض علينا أنها ثقافة معروضة فى العالم كله، معروضة فى اليابان والبرازيل ... ولك أن تقبلها أو أن ترفضها ... هناك بالطبع بعض الأشياء قد تفرض عليك مثل بعض البرامج التليفزيونية وأشياء من هذا النوع لكنها فى النهاية تخضع لسياسة حكومات ولا يمكن لأحد أن يفرض على حكومة من العالم الثالث أن تشتري مثلاً مسلسل «دالاس» فهذه الحكومات لها القدرة على القبول والرفض فى ما يتعلق بمثل هذه الأمور ... وحتى إذا رجعنا إلى المعركة مع المحليين .

◆ المستشرقون العرب؟! ◆

● لا هم ليسوا مستشرقين، هم أصحاب توكيلات و«بوتيكات» ثقافية من الغرب ... لكن علينا أن نسأل لماذا يفعلون هذا ؟ فلنتفكر بشيء من المنطق، أليس ذلك راجعاً أيضاً إلى وجود فراغ لا بد أن نرجع الظواهر التى نتحدث عنها إلى أصولها ولا نكتفى بالنظر إليها من الظاهر، كيف تعلق أن بعض الكتابات التى تدعو إلى الأصالة والرجوع إلى الذات تفعل ذلك من خلال المنهج الفينومينولوجى، كيف تعلق هذا التناقض ؟ عندما نفكر فى هذا نجد أن ذلك عائد إلى أن أساليب ومناهج الفكر المحلية عتيقة ولم يظهر ما يحل محلها من مناهج ذاتية، فالأصالة بمعنى أن تبدع شيئاً من محيطك الخاص لم تنضج بعد، وهكذا فأنت غير راض عن القديم وليس عندك جديد يكفى طموحاتك فماذا تفعل؟ فى هذه الحالة تذهب وتستعير، هذا هو الحل الذى جعل من هؤلاء المستغربين المحليين يستقبلون وينشرون مناهج وأساليب الثقافة الغربية كما هى ويخضعون لها خضوعاً تاماً، نظراً للعجز الموجود فى الثقافة العربية، فالقوالب القديمة

لم تعد تكفى ومن هنا تأتي عملية المبالغة فى الاستعارة من الآخرين لذلك أقول أن المشكلة حلها بسيط، أنت لا تريد هذا النوع من الانسلاخ عن الذات، حسناً فلنشتيد ذاتك ولن يستطيع الغرب أن يمنعك ولا يقدر أن يمنعك .

◆ هل تعتقد أن الفراغ والخواء الداخلى يفسران وحدهما ظاهرة اللجوء المريض للغرب ؟ بمعنى آخر هل الغرب عندما يسمى ويفرض علينا تبعية اقتصادية الا يفرض أيضاً تبعية ثقافية ؟ ثم ماذا تقول عن بلد عريق فى ثقافته وبنائه الداخلى مثل فرنسا ومع ذلك نسمعهم يتحدثون عن الغزو الثقافى الأمريكى فماذا يكون شأننا نحن ؟!

● أنت تريد الآن أن، نتحدث عن من هم وراء البحار بعد أن تحدثنا عن المحليين والأسباب التى تدفعهم إلى أن يستعبروا أكثر مما ينبغى من المناهج والمذاهب الغربية هو الفقر الداخلى فى هذا الشأن، أما بالنسبة لمن هم وراء البحار فأنا أكرر أنهم لا يفرضون شيئاً علينا . هناك مثلاً الماركسية لن تستطيع أن تعلل انتشارها فى العالم العربى بأى حال من الأحوال على أساس من مفاهيم التبعية والهيمنة الغربية، لأن الماركسية فى كل تاريخها فى العالم العربى غير مشروعة ومرفوضة، فى هذه الحالة كيف تنسر تغلغل هذا الفكر منهجاً وايدولوجية فى بلادنا ومن دون أن تكون هناك تبعية وسلطة مؤيدة لذلك !! فنحن الذين نتبنى ذلك ولا توجد أية قوى خارجية تفرض علينا تبنى ذلك وهذا المثل الذى ضربته كاف لتفنيد وجهة النظر التى تقول بها . فنحن الذين نستقدم هذه الأفكار بمحض إرادتنا ونستطيع ألا نستقدمها والحل فى أيدينا، ولا توجد أية مشكلة من هذا الجانب، لكن لماذا يعتبر هذا الحل صعباً لأن الحاضر فارغ .

◆ إذاً فلتحدث فى تشييد هذه الذات، كيف تنظر إلى الشروط التى تسمح بملء فراغ الحاضر وإبداع ذاتنا من جديد ؟ وكيف نخرج من هذا المارق الذى يشير إلى حاضر فارغ وتبعية «عمياء» ؟

● من الصعب أن نحدد شروطاً إيجابية لكن من الممكن تحديد بعض الشروط

السلبية بمعنى التحذير من بعض الأشياء المعوقة، وفي ضوء هذه المناقشة أنا أحذر من السعى إلى النضج قبل الأوان، بالطبع البحث عن النضج شيء جميل ومطلوب نسعى إليه جميعاً حتى نستطيع الوقوف على مستوى الندية مع أية ثقافة أخرى في العالم، هذا أمل لنا جميعاً لكن إذا سمعنا وراء هذا الأمل قبل أن تستكمل الشروط اللازمة له، وتصورنا أننا قادرون على تحقيقه في الوقت الذي نكون فيه بعيدين عنه كل البعد هنا تكون الخطورة، وفي تصوري أن مرحلة السعى وراء الغرب وربما كانت مرحلة كان لابد أن تمر بها ثقافة معينة كي تستطيع أن تقف على أقدامها بعد ذلك .

♦ ألا تعتبر أن مرحلة السعى وراء الغرب قد طال أمدها بحيث لم تعد مفيدة على الإطلاق بالمعنى الذي تقصده ؟!

● أنا أرى عكس ذلك، وأرى أنها ليست مرحلة قد طال أمدها كما تقول وذلك لأننا نعيش في ظل أنظمة تعود بك إلى الوراء، ولأن المستوى العام للثقافة العربية كما يكاد يعترف به الجميع في نزول وليس في صعود، قد تكون مرحلة طال أمدها لو كان تطورها قد ترك ليسير في مجراه الطبيعي ولكن تطورها ضرب، وضرب من الداخل - وليس من الخارج - ضرب بالحكومات العربية وضرب بالاتجاهات السلفية، وكانت النتيجة أن مستوى نقاشنا في كثير من القضايا الثقافية الآن في نهاية القرن العشرين أشد هبوطاً من مستوى نقاشنا من مئة عام خلت مع أن عمرنا الثقافي كله لا يتجاوز ١٥٠ عاماً، فانظر عندما يضع منهم مئة عام في تدهور ... فماذا نقول اليوم عندما تمتلئ صحفنا بأحاديث عن : هل تعمل المرأة أم تبقى في بيتها ؟ هل ترتدى الحجاب أم تخلع الحجاب ؟ كان هذا يقول به قاسم أمين من مئة عام وعلى مستوى أعلى وأجراً مما يقال به هذه الأيام ... هناك عمليات ضرب لنموننا وتطورنا، عمليات ضرب أساسها من الداخل من قبل الأنظمة من جهة والرجعية والسلفية من جهة أخرى، لذلك أقول إن الشروط لم تكتمل، تطورها لم يترك كي يسير في مجراه الطبيعي، وأدعو أن لا نفكر في

الامل قبل فوات الأوان، لأن النتيجة الطبيعية للتفكير فى هذا الحل قبل نضوج شروطه هو هذه المسوخ المنتشرة هذه الأيام والتي تدعو إلى رفض الغرب وترك الغرب لكن يقولون هذا بمنهج غربى أيضاً، كما يفعلون جميعاً .

◆ أنا لست منهم ...

● أنت مثلهم، ومتشبع بالمناهج والثقافة الغربية أيضاً ، ولولا ثقافتك الغربية ما كنت تأخذ هذه المواقف .

◆ لا أنكر استفادتي الكبيرة من الثقافة الغربية بحكم وجودى فى العاصمة الفرنسية منذ سبع سنوات لكن لا يعنى هذا أننى أحمل معنى بالضرورة مناهج وأساليب غربية عندما أدعو إلى رفض التبعية وإعادة تشييد الذات من جديد .

● وأنا عندما أقول هذا الكلام ليس معناه بالضرورة أننى أدعو إلى نوع من العبودية إلى الثقافة الغربية ولكن أقول أن من يفعلون ذلك يفعلونه مضطرين ، لأنهم أنضج من أن يكتبوا بالقديم لكنهم أقل نضجاً من أن يقفوا على أقدامهم وأن يستقلوا لوحدهم .

◆ كيف الخروج إذاً من هذا المأرق الآن وفى اللحظة الراهنة، وفى شروط لم تنضج بعد كما تقول، هل انتظر حتى يتحقق نضج الألوان أم أن هناك تصورات وخطوات يمكن أن تقترب فيها من تحقيق ما نريد ؟

● نستطيع بقرار لو شئنا أن نرفض الثقافة الغربية، خصوصاً فى مجال الاستشراق، أنت لا تريد الاستشراق يمكنك ألا تقرأه، ما الذى يدفعنا لفهم مجتمعاتنا من خلال ما يقدم الاستشراق الغربى، أنهم يكتبون بالانجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية، ما الذى يدفعنا إذاً إلى الاهتمام بما يقولونه ... نستطيع أن لا نقرأ لاي مستشرق وأن لا نفهم مجتمعاتنا من خلال ما يكتبونه عنا لكن فى الظروف الحالية لو فعلت ذلك فإنك ستجد نفسك مضطراً لأن تقرأ الإنتاج المحلى الذى قلنا عنه أنه مشوه بسبب التحريمات

وأنه أقل من طموحات المستقبل وإمكانات الحاضر .

◆ مرة أخرى أسأل ألا يوجد مخرج من هذا المأزق بين الإنتاج المحلي غير الملائم والاستعانة من الغرب غير الملائمة أيضاً ؟

● بلا شك المخرج هو أن يكون هناك مشروع قومى، وأن يكون من أهم بنود هذا المشروع القومى - بل فى قمته - البند الثقافى أى نهضة ذاتية حقيقية من دون حساسيات تجاه الماضى أو الغرب، لكن إلى أن تصبح مثلنا وأن تجعلك هذه النهضة تقف على اقدامك بثقة فإن هذه القيود ستتساقط تلقائياً .

◆ هل تدعو للنهضة الذاتية الآن أم بعد نضج الشروط التى تسمح بذلك ؟

● لم أتحدث عن اللحظة الراهنة إنما أقول علينا أن نبدأ من هذا .

◆ أنا صراحة أفتش عن موقف جديد من الغرب اليوم يسمح لى أن أشيد ذاتى وأعيد تعميرها من جديد .

● عملية النهضة الذاتية أو البناء الذاتى تحتاج منا إلى أن نستجمع قوتنا وتكون لدينا الشجاعة أن ننظر لتاريخنا نظرة موضوعية وعلمية من دون أن نجبن أمام قوى داخلية أو أنظمة حكم تحاول أن تتملق أشد القوى رجعية فى المجتمع . . . فى هذا السياق دور الحذر من الغرب لا ينبغى أن نبالغ فيه لأن معركتنا الأساسية فى الداخل، ويوم نسير فى هذه المعركة بالشكل السليم ستتحل علاقتنا بالغرب من تلقاء نفسها .

◆ والغرب المحلى أو المستشرقون العرب ألا تعدهم أيضاً مع القوى الجائرة الرجعية والمتخلفة، وبالتالي ينبغى أن تكون المعركة معهم بالقدر نفسه أو بقدر أكبر ؟

● هو أحد هذه العناصر لكنه عنصر ناتج عن وجود نوع من الهزل أو الضعف فى الداخل وأتأنا خاسرون على كافة الجبهات، وبالتالي فإن التحرر الثقافى لا ينفصل عن التحرر العام فى مختلف الميادين، فأنا أقبل فتح معركة مع المستشرقين أو المستغربين

وأنا مجتمع مضروب فى الميدان السياسى والاقتصادى والثقافى وأتصور أننى سأعوض إحساسى بالضعف من خلال الهجوم على بعض المستشرقين... أنا أرفض هذا الموقف

◆ لا أعتقد أن المستهدف هو بعض المستشرقين - أو الشقافة الغربية ذات القيم الإنسانية - بل الغرب المحلى وأعتقد مساحة الخطر على النهضة الذاتية قائمة فى هذا الجانب، وربما أكثر من العناصر الرجعية والمتخلفة لأن العناصر الرجعية المتخلفة لها شكلها الواضح الذى يمكن مقاومته أما «المستشرقون العرب» فيختبئون خلف شعارات براقعة عن التغيير والتقدم والحداثة...

● وأنا أقول أن الموقف الجديد الذى ينبغى أن نسعى إليه ليس الموقف من الغرب بل الموقف من القوى الرجعية والمعيقة لتطورنا وأن خوض المعركة بهذا الشكل سيحل الموقف مع الغرب حلاً شبه تلقائى .

◆ ماذا يعنى لك غياب التأليف العربى فى مجال العلوم الإنسانية ؟

● يعنى أولاً حالة من الشعور الثقافى الذى يكاد يشمل معظم البلاد العربية، وهو تدهور مخيف، ولا يمكن لأحد أن يتصور ما الذى يحدث لشقافة بلد عندما تكون الأجيال المسيطرة الآن وحدها فى الساحة .

◆ أنت تتحدث عن الحالة الثقافية العامة والشروط الموضوعية الخائفة للتأليف والإبداع لكن لا توجد أسباب ذاتية، وتقصير ذاتى من جانب المفكرين العرب ؟

● الإطار الموضوعى يحجب أى شروط أخرى ذاتية أو غير ذاتية، فإذا كان المناخ نفسه فاسداً وإذا كان التكوين نفسه ناقصاً، وإذا كان الإنسان لم يستوعب بعد الفلسفات الموجودة جيداً، فكيف يمتلك القدرة على التجاوز والإبداع وتقديم الإضافات الجديدة... هذا مستحيل، فالعلوم التكوينية هى أهم العلوم، والملاحظ الآن أن هذا الجيل

المسيطر فى الجامعات ومراكز البحوث هو جيل هش وهزيل ويعيش عاله على الآخرين . وهذه أزمة ثقافية وتعليمية فى آن واحد، وللأسف هى المتحركة عندنا فى المجالات كافة .

◆ برغم ذلك فإن هذا لا يمنع بالضرورة من وجود بعض المفكرين الذين يمكنهم تجاوز ذلك نحو تأليف عربى فى مجال العلوم الإنسانية بصفة عامة والفلسفة بصفة خاصة ؟

● لا، أنا أرى أن هذا يمنع فعلاً .

◆ أليست هناك محاولات لاختراق هذه الأجيال المسيطرة من قبل بعض المجتهدين ؟

● حدث هذا فى الأجيال الأقدم لكن الجيل الصاعد مستواه هابط بمراحل عن الجيل الذى سبقه، وذلك على التقيض مما نراه فى البلاد الأخرى حيث الأجيال الصاعدة تتقدم فى معرفتها ووعيها على من سبقها . . المفروض أن الحركة تستمر لكنها متوقفة تماماً .

◆ بالنسبة إليك . كيف تنظر إلى غياب التأليف الفلسفى العربى بصفة خاصة؟

● أنا لا أقول بذلك، وإنما أقول أن هناك تراجعاً وتضاؤلاً وأن المجموعة القليلة التى تملك شيئاً من الإبداع والقدرة على التأليف إذا اختفت من الساحة فإنها النهاية المظلمة .

◆ هل ترى أهمية فى الحديث عن ضرورة وجود فلسفة عربية اليوم ؟

● يبدو لى من استعراض الحياة الثقافية فى العالم العربى، أن هذا المطلب ذاته قد لا يكون أساسياً بالنسبة للمفكر العربى، ففكرة أن تنشأ فلسفة بالمعنى الشامل المذهبى المتكامل هى فكرة ذات أصول غربية، ولا يشعر المفكر العربى بأن الحاجة الأولى الملحة هى بناء المذهب المتكامل، إنما يشعر أن أمامه مشاكل محددة عليه أن يوظف طاقاته من أجلها، وهذا هو الحاصل فعلاً، وفى هذا الاتجاه نجد أعمالاً لا بأس بها فى العالم العربى وهى هادفة إلى حل مشاكل فكرية محددة، أما النظرة الفلسفية المذهبية

الشاملة فإذا كانت تلبى حاجة ما فى المجتمعات الغربية، فلا أعتقد أنها تمثل حاجة بالنسبة لوضعنا الثقافى وأحوالنا المعيشية، نحن غير مضطرين لمحاكاة الفكر الفلسفى الغربى فى هذه النقطة بالذات، أى بناء مذاهب فلسفية .

◆ ليس بالضرورة بناء مذاهب فلسفية، ولكن أتحدث عن التأليف الفلسفى الذى يمثل إسهامنا الحضارى، بمعنى لو أننا قمنا بترجمة الأعمال الفلسفية الرئيسية الصادرة فى العالم العربى فى الثلاثين سنة الماضية إلى اللغات الأجنبية الألمانية والانكليزية والفرنسية فهل سيجد القارئ ما يكون تأليفاً عربياً أو فلسفة عربية ؟

● عندما تكون هذه الكتب المترجمة متعلقة بمشاكل مجتمعاتنا العربية يمكن أن يجد فيها ذلك، لكنى لا أعرف لماذا الإصرار على طرح مسألة وجود فلسفة عربية اليوم أم لا ؟

◆ لأنها قضية محورية فى تصورى وتكشف عن واقعنا بعسرة تسمح لنا بتجاوزه فيما بعد ... لأنها ما نملك وما لا نملك، ما نحن فيه وما نتظر تحقيقه .

● وأنا أرى أنها قضية فرعية وثانوية وأن المهم هو أن نحلل أوضاع المجتمع الذى نعيش فيه، ليس المهم بالنسبة إلى أن ابني نظاماً فلسفياً شامخاً .

◆ ليس المقصود من هذا الحديث هو بناء أنظمة فلسفية متكاملة فبناء المذاهب انتهى فى الثقافة الغربية أيضاً ؟

● أنا أعتبر هذا الحديث أقرب إلى الاحتياجات الفكرية للمجتمعات الغربية وأن احتياجاتنا من نوع مختلف، لأن أى مفكر عربى تحاصره المشاكل من كل النواحي وبعض هذه المشاكل تحاصره من جهة البقاء فى الحياة . المفكر العربى مهموم باستمرار مجتمعه وذاته لأنهما معرضان للفناء أو الانهيار أو الاحتلال فى مثل هذا المناخ من الصعب أن نطالب المفكر العربى بانجاز فلسفات بالشكل التقليدى المورث من أيام اليونان وهمه أن يواجه الأزمات وقت حدوثها .

◆ في مساهمات المفكرين العرب في حل المشاكل ، هل ترى تجديداً وإبداعاً ؟

● نعم ، وربما ما قاله مسحق في كثير من الأحيان من كتابات الغربيين عن المشاكل ذاتها . وعندما أقرأ ما يكتبه بعض من الأميركيين أو الفرنسيين عن مجتمعاتنا أجده يصلح كمدخل بالنسبة للأجانب والعديد من أوجه القصور والنقص على خلاف كتابات المفكرين العرب المتفهمين بعمق للمشاكل التي تناوّلوها .

◆ هل هذه الكتابات التي نتحدث عنها كشفت لك عن طريقة معينة في الفهم والرؤية بحيث تسمح لنا بالحديث عن ملامح معينة لمنهج عربي في تناول مشاكل هذا الواقع ؟

● أنت ، من جديد تتحدث عما إذا كان هناك منهج مجدد تنسم به هذه المنطقة في حين أرى أن المطلوب هو أن يكون هناك في المنطقة العربية تفكير منهجي بالمعنى العام للكلمة ، أنا أتصور أن المطلوب هو أن يكون هناك تفكير منهجي منطقي . وأن يكون هناك منهج محدد خاص بنا ، فلا أظن أن هناك منهجاً أميركياً أو فرنسياً . هناك شروط عامة للمنهج إذا توفرت يكون الفكر منهجياً ، وإذا لم تتوفر يصبح ناقصاً من الناحية المنهجية ، لكن الدعوة لقواعد المنهج كما فعل ديكاوت في بداية العصر الحديث ، بما يتناسب مع قدرات العالم العربي ، فهذه مسألة تجاوزتها التطورات أيضاً ، ديكاوت كان يتحدث في فترة خروج من العصور الوسطى إلى الفكر الحديث ، والعلم الحديث . وكان لا بد من التفكير في تغيرات جوهرية ، بالنسبة إلينا الأمور استقرت إلى حد كبير لكن لا يوجد شك في أن الحد الأدنى من القواعد المنهجية المتعارف عليها في مختلف المجتمعات غير متوفر عندنا . وبصفة خاصة عند جماعات الأصوليين ، فالحدود الدنيا للمنهج السليم غير موجودة ، كما يحدث مثلاً عندما يقتبس أحدهم أقوالاً أو قرارات لغربيين أو مستشرقين بدون أن يذكر اسم المؤلف أو المرجع الذي استقى منه معلوماته في كتبه ، ثم يذهب بعد ذلك ليبني بناءً كاملاً من الأفكار بدون أي نوع من التوثيق ، ألف باء ، المنهجية غير موجودة

◆ . ما العمل إذا ؟

- العمل ... نحن ليس مسموحاً لنا في مجال الفكر الفلسفى بالحد الأدنى ممارسة الفكر الحر، المعوقات عندنا لا يوجد لها نظير فى أى مجتمع آخر فى العالم، ثم نأتى لنقول : لماذا لا توجد فلسفة عربية !!

◆ إذا نعيش فى إطار غضب السماء وليس أمامنا سوى أن نترك الساحة !

- لا، لكن أقول الإرهاب موجود لدينا، افترض أننى كتبت كتباً عن الشيخ الغزالي أو القرضاوى، وقلت أن هناك مدرسة كاملة تفكر تفكيراً غير منهجى بدليل أنها تتبع آراء فلان وفلان وهم أناس يخطئون فى أبجديات المنهج المنطقى السليم، فلو نشرت ذلك فإنه قد يحكم عليك بالإعدام . قيامك بنوع من التوعية والتنوير البسيط لأهلك ومجتمعك بالقواعد العادية للتفكير السليم وقولك أن هناك ملايين من الشبان يسرون وراء أناس لا يتوفر لديهم الحد الأدنى من التفكير المنتظم . مجرد قولك هذا يعرضك لأخطار لا نهاية لها . وأنا أحدثك فى هذا عن الحد الأدنى فما بالك لو حاولنا تجاوز هذا الحد البسيط .

◆ والحل مرة أخرى ؟

- أنا لا أعرف كيف تستطيع أن تعمل فى هذا المناخ من الإرهاب، الناس تدور حول نفسها، الفكر المستنير المتقدم منذ خمسين عاماً يتراجع ويقف الآن على أرضية خصمه القديم . والضغوط تتواصل فتتراجع فتتواصل فتتراجع وهكذا، نرى المسألة فى نهاية الأمر ترتد إلى مناخ سياسى واجتماعى مفروض عليك وهو المعوق الأكبر .

◆ هل هناك امكانية ما للخروج من هذا المأرق ؟

بما أننى لست سياسياً فأنا لا أملك الحل .

● كمفكر !؟

● هناك فجوة كبيرة بين المفكرين والمنفذين، فالمنفذ لا يأخذ أبداً بآراء المفكر فإذا شئت أطرح لك برنامجاً مثالياً وعظيماً ولن تجد أروع منه لكن قل لى من ينفذ ذلك فى الواقع .

◆ فلتحدث إذاً فى هذا البرنامج المثالى، ما هى ملامح مشروع النهضة الثقافية فى مصر والعالم العربى فى ظل الظروف الراهنة التى أفغمت فى وصفها ؟

● فى ضوء الوضع الثقافى الحالى نحن فى حاجة إلى عشرات السنين كى نقر مبادئ التنوير البسيطة، بمعنى حق الإنسان فى أن يفكر بحرية وأن يتقبل الناس أفكار البعض، حتى ولو اختلفوا معها . أن لا يدينوا بعضهم بالخيانة والكفر . وهذه المبادئ البسيطة لا تشكل فلسفة ولا فكرياً لأن مهمتها سلبية، أى تمنع عن الإنسان العنوان الفكرى، لكنها لا تخلق الجديد، فالجديد يأتى بعد ذلك وحتى هذه المبادئ محتاجة، كما قلت، إلى كفاح عشرات السنين، ولا أدرى إذا كنا سننتصر أم لا الوضع أسود فى العالم العربى . وأنت تنظر من بعيد من باريس من مناخ ساد فيه التنوير منذ قرنين من الزمان

◆ إذا أساء البعض فهم ما نقول فربما يؤدى ما نقوله إلى أنه طالما لا يوجد الحد الأدنى من التنوير فلا داعى للطموح فى الإبداع، طالما الأرض غير مهيأة وأدنى الضرورات العقلية غائبة ؟

● لا، كلامى لا يؤدى إلى هذا المعنى وإنما أقول عندما لا تجد الإبداع متحققاً بالصورة التى تشدها فلا تدهش من ذلك، هذا ما أردت قوله .

◆ والعمل مرة أخيرة !؟

● كما قلت لك لسنا نحن الذين سنحسم هذه المسألة . الحسم سيكون على أرضية السياسة، واللعبة من أولها لآخرها لعبة سياسية والدعوة إلى التراجع دعوة سياسية ربما كان غطاؤها الخارجى دينياً . . . عندما يتحدد من المنتصر ستضح صورة العمل . لكن

إذا تصورت أننا كمفكرين نستطيع أن نغير شيئاً من الأوضاع الحالية فإنك تبدو لى متفائلاً، اللعبة الكبيرة فى مجتمعاتنا خرجت من أيدينا .

◆ فى أيدي من ؟

● فى أيدي الذين يلعبون اللعبة السياسية سواء المسيطرون أو المعارضون لهم، والذين يرغبون فى السيطرة . وأنا أحدثك فى ذلك من خلال صورة السنوات العشر الأخيرة .

◆ والسنوات القليلة المقبلة ؟

● يبدو لى أنها العن وأشد سواداً .

أشكرك على هذا الحديث المتفائل جداً .

أنور عبد الملك
أنا دائماً مع ريح الشرق

ما هو موقفنا من الغرب اليوم ؟ وكيف كُتِبَ موقفنا عنه بالأمس ؟ متى أصبنا وأين
اخطأنا ؟ ثم هل آن الأوان لبروز موقف جليد من الغرب نتجاوز فيه أخطاء الماضى
والحاضر ؟ وكيف نبذل هذا الموقف الجديد الذى نصصح فيها إدراكنا للغرب وقبل ذلك
إدراكنا لأنفسنا؟ وما هى العقبات التى تقف حجر عثرة أمام من يحاول الخروج من مأرق
العلاقة المريضة لمجتمعاتنا مع مجتمعات الغرب ونظمها وقيمها، باختصار : ما العمل ؟
هذه التساؤلات، وغيرها . تشكل الأطار والهاجس الذى تدور حوله سلسلة
الأحداث مع بعض الكتاب والمفكرين العرب، والهدف منها - بعد أن حاورنا بعض
المستشرقين - بالدرجة الأولى، هو اكتشاف ذاتنا من جديد وتصحيح الوعى بهذه الذات
من خلال التفتيش عن مكوناتها الأساسية التى غابت وطمست فى ظل علاقتنا المريضة
بالغرب . ومن جهة ثانية تهدف هذه الأحداث إلى إبراز حدود التعايش الممكنة
والمستحيلة مع الثقافة الغربية وقيمها ومعاييرها .

واختيارنا للكتاب والمفكرين العرب راعينا فيه بدرجة أولى أن يكون مع أولئك
الذين عاشوا فى الغرب وتكونوا علمياً وثقافياً فى مدارسه، وبالتالي هم فى إطار وموقع
اتصال دائم مع رموز واتجاهات واجهزة الثقافة الغربية، موقعهم هذا له ميزته خصوصاً
أننا نتحدث مع أشخاص على دراية حقيقية بما يحدث فى الغرب، لكن من جهة أخرى
له مساوئه بفعل الأسئلة التى قد تسبب حرجاً ما لبعض من نلتقى بهم، لأنهم مطالبون
أمامنا أن ينطقوا لغة واحدة، لا أن يحكوا لغة فى الغرب تختلف عما يقولونه فى الشرق
... تحدثنا مع مصطفى صفوان أستاذ التحليل النفسى المشهور فى فرنسا والغرب بصفة
عامة، واليوم أنور عبد الملك الذى يعيش فى فرنسا منذ ثلاثين عاماً ومن دون أن تنقطع

اهتماماته بمصر والعالم العربى وعموم مجتمعات الشرق، سواء فى دراساته أو فى البدائل الحضارية التى يشرف عليها من خلال عمله الثانى - بعد المركز القومى للبحوث الفرنسية - فى جامعة الأمم المتحدة .

◆ وكانت بداية حديثنا الذى وافق عليه أنور عبد الملك بترحاب - وبعد أن اطلعناه على أحاديثنا المنشورة مع المستشرقين - يبدأ من حيث انتهينا مع المستشرقين الفرنسيين وتساؤلهم - رداً على انتقاداتنا - لماذا لا يوجد استفراب - بمعنى دراسات من الشرق إزاء الغرب - يوازى الاستفراق . وكان أول تساؤل وجهناه وأنور عبد الملك هو، كيف يعلق أولاً على هذا التساؤل ؟ هل يقبله ؟ هل يرفضه ؟ هل يود الإجابة على التساؤل من زاوية أخرى ؟ هل يود أن يعلق على بعض ملاحظات المستشرقين الفرنسيين ؟

● فى الحقيقة لا أود أن أبدأ من حيث انتهى الزملاء المستشرقون فهذا شأنهم ولنا شأن آخر . نقطة البدء فى أى حديث عن الفهم المتبادل أو التفاعل المتبادل للحضارات والثقافات يجب أن تتسع كى تشمل مجال عموم المجتمعات الإنسانية البشرية، وليس شمال وجنوب البحر المتوسط، ليس الغرب الاستعمارى والشرق العربى المُستعمر منذ عدة قرون. هدفى أن نتحدث بوجه عام عن تفاعل الحضارات والثقافات والقوميات . إننا نلاحظ باستمرار فى تفاعل الحضارات والثقافات أن ميزان القوى هو الذى يحدد المجهود العلمى أو « المعلومية » والتراكم العلمى . مثلاً فى عصر الإمبراطورية الفرعونية المصرية كأكبر إمبراطورية فى العصر القديم من حيث الاتساع والتأثير أو فى فترة انتشار الإسكندر نحو الشرق، وفى مرحلة انتشار الإسلام شرقاً وغرباً . أو مرحلة ظهور الصين كمركز عالمى حضارى وسياسى، وفى مرحلة انتشار المغول إلى قلب آسيا ثم أوروبا، نجد أن هناك « معلومية » أى مجموعات معلومات فى القطاعين، القطاع المهيمن والقطاع المهيمن عليه، لكن الملاحظ أن المعلومية كانت دائماً زائدة فى القطاع المهيمن سواء فى الغرب أو فى الشرق. خذ مثلاً الغزوة الأيبيرية الأسبانية البرتغالية لأمريكا الوسطى والجنوبية ابتداء من نهاية القرن الخامس عشر، هناك عشرات بل مئات وآلاف من الكتب

والدراسات والروايات الأسبانية والبرتغالية تحكى بتفصيل عن المجتمعات الهندية آنذاك وهي مقهورة بالسلاح . فما هى نسبة المعلومات لدى الشعوب الهندية آنذاك ؟ هذه الظاهرة تتفاوت حسب علاقة القوة المهيمنة والقوة المهيمن عليها . فى الحروب الصليبية ، مثلاً ، كانت هناك معلومة كبيرة لدى الغرب المسيحي عن الأراضي الإسلامية التى فتحت آنذاك إلى حد ما لكن هناك معلومة لا تقل بل ربما تزيد فى بعض الأحيان فى العالم الإسلامى خاصة فى عصر صلاح الدين ، وكذلك أيضاً وبشكل أعمق وأوسع بكثير فى أسبانيا فالكتابات التاريخية والطبية والعلمية فى أسبانيا ومدى دقة معرفتها بالعالم الذى كان آنذاك قطعاً هاماً غزيراً من القوة والثقافة المسيحية الغربية، تجده محللاً تحليلاً دقيقاً وعميقاً ، على أيدي مفكرى وعلماء هذه الفترة . الآن نتحدث عن الفترة المعاصرة وهي بيت القصيد . والمنهج الأساسى لعرض هذه القضية بشكل منصف هو أن ندرس العلاقة المتبادلة فى المعلومة فى محاولة فهم الآخرين بين الدوائر الثقافية الرئيسية فى الشرق وبين الغرب المهيمن ، وأقصد بذلك إلى جانب الدائرة الثقافية العربية فى العالم الإسلامى : تركيا ، إيران ، الهند ، جنوب شرق آسيا ، وفى المقام الأول بدون شك الصين واليابان والهند ، لو أقمنا دراسات مقارنة - ولو مبسطة - بين الجهود التى بذلت فى هذه الدوائر لتفهم الغرب المهيمن لرأينا أولاً : أنه لم تتم فى أى من هذه الدوائر الثقافية إقامة نظرية عامة أو نظام فكرى عام يشرح الغرب ، وإنما كان هناك موقف انتقائى نقدى تحليلى من الثقافة الغربية لإدراك أسباب هيمنتها وكيف يمكن الاستفادة منها لكسرها وردها ومن دون الانقطاع عنها ، وهو نفس الموقف الذى وقفته مصر محمد على وبعد ذلك حتى فى عصر اسماعيل ، وموقف العالم العربى حول ثورة مصر الوطنية بقيادة جمال عبد الناصر ، الموقف النقدى أى التحليلى الانتقائى ، لن تجد فى أى من هذه الدول فلسفة متكاملة لمفاهيم الثقافة الغربية فى فترة الصراع ، الآن بعد أن ابتعد الصراع عن بعض هذه الدول الشرقية - الصين ، اليابان ، والهند - وأصبحت فى مقام الدول الكبرى ، بدأ العمل التفصيلى لإكمال ما بدأوه فى مرحلة الصدام ، أى للحصول على نظرة عامة شاملة لهذا الغرب الذى أصبح نداءً - وليس فقط عدواً مهيمناً - من الناحية

الجيو سياسية والتجارية والاقتصادية والعلمية والتكنولوجية . هذه الملحوظة هامة جداً من الناحية المنهجية ويمكن أن نضيف لها ملحوظة ثانية، وهى أن الدائرة العربية من الحضارة الإسلامية كانت الدائرة الأقرب إلى خط النار، وأنها هوجمت بالقهر والسلاح بشكل منظم منذ القرن التاسع وفى العصر الحديث منذ ١٧٩٨ حتى الآن، فالغزو المسلح والهجمات المستمرة لم تنقطع، ولم يكن هذا شأن الهند ولا جنوب شرق آسيا بهذه الاستمرارية ولا الصين أو اليابان، هذا مهم جداً لإدراك كيف تشكل ترسانة المعلوماتية، وفى تقديرى - وهذه هى النقطة الثالثة - أن دراسة الغرب لا تأتى بتأليف نصوص مثل وصف الغرب، ووصف إنجلترا أو فرنسا باللغة العربية أو الهندية أو الإيرانية فليس هذا هو المطلوب، وإنما عملية جدلية، بمعنى أن كل الجهود التى بذلت لإقامة ثقافة وطنية وفكر وطنى اجتهداى هى جهود بدأت بنقد المطروح ومحاولة لإحياء التراث الحى بالتفاعل مع إيجابيات ذلك الذى هو آت من الخارج . أى أن عملية صياغة الفكر والثقافة الوطنية هى عملية فهم جدلى للإيجابيات التاريخية المسقطة على أرض الوطن .

نقطة رابعة وأخيرة . . هناك، رغم هذا كله، فى مختلف الثقافات الشرقية مجموعة كبيرة هامة من المؤلفات فى الفكر والفلسفة والتاريخ والاجتماع والسياسة، تتناول بشكل نقدى تجديدي تماماً نقد الغرب وما يقدمه، وقد أسهمنا فى هذا المجال مع نخبة من زملائنا المفكرين الرواد فى مختلف أقطار الشرق وخاصة فى مشرونا حول الجدلية الاجتماعية الذى بدأ نشره فى ١٩٧٢ ومازال مستمراً فى قطاع المشروعات الدولية الذى تولينا إدارته فى جامعة الأمم المتحدة ابتداء من ١٩٧٦ - ١٩٧٧ حول «البدايل الاجتماعية - الثقافية فى عالم متغير» وهى مشاريع جمعت نخبة من مثات رواد الفكر والعلم وعشرات من مراكز البحوث على امتداد العالم .

لكن ما يلفت النظر أن هذه الجهود تطمس دائماً فى الغرب- وكأنها لم تقم- ما هو مقبول من الكتابات الشرقية فى الغرب الذى يتنكر لوجودنا أو ينقل رؤيته إلى

مجتمعاتنا، فيترجم بلغات قومية المعرفة المنتجة فى عواصم الغرب إلينا، لكن بعناوين عربية أو شرقية .

◆ هم من أسميناهم " المستشرقون العرب " 11

● هؤلاء هم المستشرقون، الشرقيون هذا واقع الأمر كما نراه ونعلمه ولا داعى للإطالة فى هذا الموضوع، وأرى- كما يقول بعض الزملاء- أنه ليس علينا أن نبدأ من حيث انتهى الغرب بل أن نبدأ من حيث نتحرك كلنا فى دوائر الشرق المختلفة، فى دوائر العالم الذى يقال إنه هامشى، فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، أى أن نتعرف على المجهودات الفكرية النقدية الهامة، وعلى الإبداع الفكرى الذاتى وعلى الريادة الفكرية فى العديد من المجالات وأن نحاول اختصار طريق التبعية ونختار التقدم بهذا النهج فى الوقت نفسه الذى نظل فيه على تفاعل مستمر مع الثقافة والفكر المستقبلى فى مختلف دوائر الغرب .

◆ هل الغرب مسؤول عن الصورة التى رسمناه له . وهل شجع نمطاً معيناً وطريقة معينة من إدراكنا له ؟

● موضوعياً ميزان القوى التاريخى مسؤول عن الرؤية الناقصة غير المتكاملة التى يشكو الغرب منها .

◆ الصورة التى أدركنا بها الغرب كانت ناقصة . هل يمكن أن نتحدث بصورة تفصيلية أكثر لتعرف وجهة نظرك فى هذا الشأن، وكيف أدركنا الغرب فعلاً . أين نجحنا، ومتى أخطأنا . ولماذا أدركنا الغرب بصورة انتقائية ؟ وما هى الأسباب والدوافع ؟

● أنا لا أرى هناك دواعى للتفصيل، لأن ما أدركناه - شعوب الشرق - من الغرب هو إيجابيات الغرب .

◆ هل هذا حقيقى ؟

بدون شك، الفكر العلمى، الفكر المنطقى ...

◆ هل هذا ما أدركنا فعلاً ؟

بالطبع، بالطبع .

◆ يبدو لى أننا أدركنا ما يريد لنا الغرب أن ندركه به أدركنا ما انتهى فى الغرب أو ما يريد الغرب أن يتلخص منه ويصدره لنا، كما يصدر أحياناً أدوية فاسدة انتهى مفعول استخدامها !

● متفق معك فى هذا لكن دعنى أحدد وجهة نظرى . فى فترة التحرر الوطنى فى الدول الشرقية . مثلاً فى مصر محمد على كان إدراكنا للفكر الغربى، هو إدراك لإيجابيات الفكر الغربى، تذكر رفاة الطهطاوى وعلى مبارك . . .

◆ أى فى الفترات التى لم يكن فيها استعمار؟!

● كلا، فى الفترات التى تأكدت فيها سيادة الدولة الوطنية الاستقلالية، أما فى فترات انزواء الاستقلالية وسيادة جو السمسرة والتبعية السياسية والاقتصادية فى الدول الشرقية وعموم الشرق، استطاع الغرب أن يسقط علينا نفايات فكره وثقافته وكل التيارات الفكرية السالبة، كما حللتها فى «الجدلية الاجتماعية» وفى «سوسيولوجيا الإمبريالية» كل ما هو مرتد ويهدف إلى كسر الإيمان بالمبادرة التاريخية تحت عنوان البنيوية، مثلاً كل ما يمثل فكراً رافضاً أو فكراً عديمياً باسم الطليعية وهو نفاية الثقافة الغربية تحول إلى الأراضى الشرقية بشكل براق إلى «طليعة» و «ريادة» فكرية و «وتحرر» من الجمود الفكرى وهذا بفضل عملية نقل المعرفة نتيجة ضعف الدول الوطنية المستقلة وبالتالي ضعف الثقافة الوطنية المستقلة، المسألة كلها تنحصر فى ميزان القوى .

◆ عندما يكون منطق القوة لصالح الغرب، وليست لدينا «المعلومية» التى تحدثت عنها . كيف يمكن الخروج من مأرق ثقافة غربية لها بعد إنسانى فى كثير من الأحيان وبين توظيف هذه الثقافة فى إطار هيمنة الغرب ضدنا؟

● لا يوجد مفتاح سحرى، إنما كرد اتجاهاً أولاً وقبل كل شئ تعبئة جميع قوى

الثقافة الوطنية بمختلف مدارسها الفكرية والعمل حول مشروع وطنى حتى فى فترات ضعف الاستقلالية فى مختلف الاوطان . ثانياً فى فترة الضعف التى نمر فيها الآن يجب أن نعتد فى المقام الأول على التعاون العضوى الوثيق مع القطاعات الطليعية - وهى جبارة - فى دول الشرق الأخرى اليابان والصين والهند، وأمريكا اللاتينية وخاصة البرازيل بالإضافة إلى القوى الموجودة فى الدول العربية والإسلامية . فى المقام الأول ينبغي أن نعتد على التعامل مع كل ما هو جاد وأصيل - ولا أقول «تجديد وبراق»- فى الثقافات الغربية، بدون أى تردد إطلاقاً وخاصة فى القطاع العلمى والتكنولوجى .

◆ من منظور انتقائى أيضاً، أم أن هناك معايير جديدة ؟

● من منظور نقدى انتقائى لكن بالفكر التحليلى وربط المعطيات بما نستطيع أن نستفيد، من دون أن يزيف ذلك خصوصية الشخصية الوطنية والثقافة الوطنية النابعة منها والتراث الحى فى عملية التجديد، بيت القصيد هو : الحفاظ على سيادة واستقلالية القرار الوطنى، أى أن الموضوع سياسى بمفهوم حضارى أولاً، وقبل كل شئ .

◆ حتى الآن لم يدرس الشرق الغرب فى اطار نظرية أو من خلال فهم شامل...

لماذا لا توجد فلسفة كاملة فى تصورك فى التعامل مع هذا الغرب ؟

● علاقة القوى هى التى تكون الأساس والإطار العام . العنصر الذاتى واجتهادات ومبادرات المفكرين الوطنيين فى مختلف الدوائر الثقافية الشرقية تلعب دوراً هاماً . داخل هذا الاطار . وفى تقديرى أن المعروف والمعلوم أكثر من المنشور . لا توجد «انسكلوبيديا» للغرب فى الشرق لكن هناك فهم عميق جداً لقطاعات هامة من الشرق بما فى ذلك العالم العربى فى بعض فتراته بطبيعة القوة المتحركة أمامه وفكرها وفلسفتها ومنهجها . لم يتخذ هذا شكل تصورات متكاملة . وسأضرب فى ذلك مثلاً محدداً - فى إطار العالم العربى - «فى أصول المسألة المصرية» لصبحى وحيدة تجد فهماً وإدراكاً عميقاً ورائعاً لأركان الفكر الغربى ولصياغة هذا الفكر من الناحية التاريخية فى صفحات قلائل . المسألة ليست فى بعدها الانسكلوبيدى ولكن فى عمق التفكير وتأثيره

فى القرار السياسى وهناك كتب ومحاولات أخرى كثيرة ذكرت صبحى وحيدة كمثل واضح معروف .

◆ ما الذى يمنع من انتشار عمق التفكير هذا، وبحيث يكون إدراكنا للغرب إدراكا علمياً متشوراً على نطاق واسع وليس كشذرات عند صبحى وحيدة أو غيره.

● أنا لا أفهم صراحة ما هو المطلوب منا، وما الذى نطالب به أنفسنا . هناك أولاً الموقف الدولى لأننا نعيش فى مجتمع السوق الدولية . ولأن الدولة الاشتراكية الأولى فى العالم ولفترات قريبة جداً كانت تتحرك فى إطار اللحاق بمستوى معيشة الند الأمريكى وهى لا تزال تعيش فى نظام ثنائى من التنافس إلى أن جاءت تجربة الصين الرائدة وفيها لأول مرة محاولة لإنشاء مجتمع متعدد القطاعات يتسم بالتعددية الاقتصادية، وهو نفس النهج الذى نهجه النظام اليابانى الرأسمالى حيث تجد نظاماً ظاهره رأسمالى وباطنه مختلف تماماً، ومبنى على التضامن الاجتماعى بل على ما يمكن أن نطلق عليه الإقطاعية العسكرية التى تحرك النظام الرأسمالى فى مستوى متقدم من التضامن الاجتماعى والوثام بين مختلف فئات الشعب .

ثم هناك مجموعة كبيرة واسعة من المبادرات والمواقف لمختلف قطاعات الشرق لا يمكن أن تكون قد حققت هدفها إلا على أساس فهم عميق بعيد الرؤية لحقيقة وتحرك الغرب . ثورات التحرير والتحول الاشتراكى فى الصين وكوريا وفيتنام وكوبا وغيرها، حركات وحروب التحرير الوطنى، السويس، الجزائر، اليمن، أثيوبيا، الهند، إيران، التقدم العلمى والتكنولوجى الهائل فى مصر محمد على، وكذا فى اليابان والهند والبرازيل والصين اليوم، المبادرات المستمرة لمجموعة دول عدم الانحياز للإبقاء على مجال من الحرية فى القارات الثلاث والتوسط فى المنازعات العالمية الكبرى . إن فكر مدرسة رفاة الطهطاوى، إبراهيم باشا، ثم دائرة الإمبراطور مىجى فى حركة التجديد فى اليابان، وكذا أفكار الرئيس ماوتسى تونج، والفكر الاستراتيجى لحروب التحرير فى فيتنام والجزائر ثم «فلسفة الثورة» ورسائل باندونج، ثم انجاز تأميم السويس

وعبور أكتوبر العظيم، والشورة الكوبية وانطلاق رجال الكنيسة فى أمريكا اللاتينية إلى لاهوت التحرير، والفكر الذى أدى إلى مقاومة «صندوق النقد الدولى» فى البرازيل وبيرو وتحدى أمريكا الجنوبية فى زيمبابوى ودول أفريقيا فى خط المواجهة، والعقلىة التصنيعية المهمة على آسيا الشرقية فى مواجهة التحدى الأمريكى... مئات الأمثلة والإنجازات كلها تشهد على أن هناك فهماً عميقاً للغرب، وقدرة فعالة على المحاوراة والإنجاز على أرفع مستوى، وبعد هذا يسألون الشرق: أين وصف الغرب ؟... أليست العبرة فى العمل ؟ فى تغيير الواقع ؟ فى تشكيل مجتمع عالمى جديد ؟ اليس كذلك ؟

◆ أنا أطالب أولاً على مستوى علاقتنا بالغرب أن ندرك أولاً الأخطار الناجمة عن الصورة التى أدركنا بها الغرب حتى الآن وإلى أى مدى كان الغرب مسؤولاً عن إدراكنا له بهذه الصورة وحتى إدراكنا نحن لصورتنا فى كثير من الأحيان، فلو أخذنا نموذجاً تفصيلياً لما نعيشه مع أجهزة الإعلام الغربية ووكالات الأنباء الغربية نجد فى بعض الأحيان أحداثاً تجرى وقائعها فى بلادنا، فيقولونها بالصوت والصورة والتعليق ليقتنعونا بعد ذلك بهذا الحدث بما يتناقض مع توجهاتنا، ولكن نسلك فى النهاية كما يريدون لنا.

● أنت تقول ما أقوله لكن بعبارة أخرى . لكن هذا كله نتيجة ماذا ؟... نتيجة وهن القوى الاستقلالية الوطنية . اليوم فى القطاع الشرقى الذى يعيننا بما يحدث فى الصين واليابان والهند لا يأتينا إلا من خلال وكالات الأنباء الغربية، بل حتى غربة أقوال هذه الوكالات من خلال "الهيرالد تريبيون" التى أصبحت مرجع الطبقة السياسية وسائر المثقفين فى بلادنا بدلاً من أن يكون مصدر المعلومة كبرى الصحف ووكالات الأنباء فى الصين واليابان والهند والعكس بالعكس .

◆ هل هناك ما يدفع الغرب نحو تصحيح صورته عن بلدان الشرق عموماً ومساعدة هذه البلدان فى الخروج من مأزقها الحالى نحو طريق التنمية والقدم ؟ ما أن المواجهة والصراع بمختلف أشكاله هو الطريق الوحيد لتصحيح علاقة الشمال بالجنوب أو الشرق بالغرب ؟

● سأحدث بصراحة . منذ بداية هذا الحديث وأنا أشعر بعدم ارتياح لكثير من الأسئلة التي تطرحها بأن القضية هي علاقة الغرب بالعالم العربي والعكس بالعكس، أنا أرى عكس ذلك وأن المسألة هي العلاقات المتبادلة بين مختلف الثقافات والحضارات وأعتبر أن الدائرة الثقافية العربية داخل الدائرة الإسلامية جزء هام من الدوائر الحضارية التي تتكون منها الحضارة الشرقية في آسيا والقطاع العربي الإسلامي من أفريقيا وبعض امتداداتها في أمريكا اللاتينية، أنا لا يهمنى العلاقة بين الغرب والعالم العربي على وجه الحصر، يهمنى العلاقة بين مصر والعالم العربي من ناحية والدائرة العالمية الشاملة من ناحية أخرى . ما أطرحه هو: كيف يمكن أن نجدد إدراكنا لحركة العالم بما في ذلك الغرب ؟ والوسيلة ليست في تعديل نمط علاقة مع أوروبا أو الغرب . والوسيلة هي في تعديل وجهة نظرنا أو باتجاه الرؤية العربية نحو حوار جنوب - جنوب أى الارتباط أساساً بعموم عالم الشرق في المقام الأول . لو عدلنا هذه الدفة وهذه هي دعوتى فى «رياح الشرق» والتابعة من فلسفة مؤتمر باندونج، ولو عدلنا هذه الوجهة سندرك أن المبادرة التاريخية اليوم فى تغيير موازين القوى فى العالم تأتى أساساً من الشرق وخاصة من آسيا، وحتى الرد على سؤالك لا يمكن أن يبدأ إلا من تغيير تشكيل النظام العالمى الذى يجرى تحت أعيننا، تغيير هذا التشكيل سينقل مركز الصدارة من الغرب الصناعى إلى الشرق، حول محور الصين - اليابان فى علاقة وثيقة مع القطاع الآسيوى لأوروبا . مع سيبيريا، مع الهند، مع الدائرة الأفريقية الآسيوية وامتدادها إلى أمريكا اللاتينية وخاصة البرازيل، هذه هى وجهة نظرى...

◆ اختلف معك بصراحة فى مسألة حوار الجنوب - الجنوب لأننى أرى أن هذا الحوار ينبغى أن يكون أساساً فى مواجهة الغرب . وكما تعلم مثال باندونج الذى استشهدت به كنموذج لحوار الجنوب - الجنوب كان موجهاً أساساً ضد هيمنة الغرب . وبالتالي حتى مع الاعتراف بأهمية توسيع حوار الجنوب - الجنوب فى هذه المرحلة فإنه لا ينبغى أن ننسى أن وجهة الحوار، والمواجهة الرئيسية هى مع الشمال أى مع الغرب أساساً .

● حوار الجنوب - الجنوب وجهته نهضة شعوب الجنوب وشعوب الشرق .

◆ عندما نقول جنوب فإن هذا يعنى «جنوب فى مواجهة شمال»!؟

● المواجهة تعنى نقل مركز ثقل المبادرة التاريخية إلى المنطقة التى تمارس تحريك العملية . أين هى ؟ كانت قبل القرن الخامس عشر فى إطار الإسلام والصين . تحولت بعد هذا إلى أوروبا الرأسمالية، ثم الولايات المتحدة الأمريكية . الآن هذا المركز بدأ ينتقل إلى القطاع الآسيوى من العالم الشرقى . هذا تبسيط شديد وهذا لا يقتضى حروباً عالمية بحال من الأحوال .

◆ لم نتحدث عن حروب عالمية بل عن حدود التعايش بين الثقافات . فعندما أنجح فى نقل مركز الحضارة، هذا معناه أن ذلك يتم فى تغيير ميزان القوة الموجود حالياً بين الشرق والغرب، لأننا إذا عمقنا حوار الجنوب - الجنوب الذى تدعو إليه، فإن ذلك، لن يتم إلا على حساب الشمال أو الغرب . وبعد مواجهة حقيقية مع العلاقة المقلوبة مع الغرب الآن، وإلا كيف سيتقل مركز المبادرة التاريخية ومركز الحضارة إلى القطاع الآسيوى من العالم . هل يتم هذا الانتقال بتصريح سلمى من الغرب إلى هذا القطاع الآسيوى !! وكى ننجح فى نقل مركز المبادرة التاريخية ينبغى أن يكون لدينا مستوى من المعرفة والوعى والفكر له استقلاله الذاتى . بمعنى أن نتخلص من حالة الاستناد إلى مراجع غربية وكأنها الحكم والفصل فى ما نقوم به من نشاط ... ينبغى أن نخرج من حالة عدم وضوح الوعى الذاتى، والمسخ والتشويه الناجم عن علاقتنا بالغرب .

● هذا هو ما أقوله .

◆ إذن الخطوة التالية أن نتخلص من آثار هذه الحالة المستغربة . حتى الآن مشفقونا ينتظرون، أو يكتبون، كلمة أو اثنتين وتكون الثالثة استشهاداً بمراجع غربية يثبت صحة الكلمة السابقة . ويدون أن يكون بين مثقفينا وبين المصدر أية مسافة نقدية ... وهل ترى أن هناك خلافاً فى هذا، وقد سبق أن عبرت عنه فى كثير من دراساتي !؟

◆ أقول ذلك لأننى أخشى أن تحمل دعوتك لحوار الجنوب - الجنوب نوعاً من تخفيف الضغط عن الغرب، لابد أن تكون المواجهة صريحة مع الذات، مع الآخر .

● أنت تتحدث اليوم عما أسميتهم فى السبعينيات باسم «العملاء الحضاريون» هذه الفئات المنغرية التى تتصرف فى إطار من النقل والمحاكاة ...

◆ وما زالت هذه الفئات لها الغلبة والانتشار حتى الآن .

هذا جزء من الهجمة الحضارية المضادة التى بدأت بعد حرب أكتوبر (تشرين) لإجهاض نتائج الحرب : مستغلة فى ذلك وباء العقود الدولارية المعروفة !

◆ وقبل حرب أكتوبر (تشرين) أيضاً .

● بعد أكتوبر (تشرين) بشكل أكثر شراسة ... فى تقديرى أن هناك منهجين، منهج المواجهة والتشهير والصراع، ومنهج ثان هو نقل أرضية المعركة. فى تقديرى الآن أن المنهج الثانى هو الأقل، نتيجة وجود المنطقة العربية فى خط النار، فى ما يمكن أن نطلق عليه حرب المائة عام، وهى حرب حضارية وليست تكتيكية، والعمل هو أن نركز الجهود بشكل بناء نحو إعادة الدفة إلى إقامة ثقافة وطنية أصيلة جديدة فى عالمنا العربى، فى علاقة وثيقة عضوية ذكية بالثقافات الوطنية المتقدمة فى مختلف الدوائر الشرقية، ليست المسألة إذاً عملية صدام داخلى، وإنما تحديد موقف ثم دفع القوى الرئيسية إلى هذا الموقف. وهذا هو الذى سيغذى الطاقة الداخلية .

◆ تحديد هذا الموقف، هل تعتقد أنه يجرى على أحسن وجه هذه الأيام، لم أننا لا نزال نعيش فى عصر "اللخطة" والاختلاط وضياغ الملامح فى تواصلنا المشوه مع الغرب، فلا نعرف من نحن، ما هى مقوماتنا الأساسية التى نستند إليها فى عملية الصراع ...

● نعم نحن فى خليط وتواصل مشوه كما تقول، هناك ملامح للتغريب واضحة لكن يوجد أيضاً فهم متزايد نابع من مؤتمر باندونج الذى كان هو النهج الغالب فى بلادنا فى

فترات طويلة، وهذا النهج الآن هو النهج الأقوى فى أهم دول الشرق، وبدأ يتشتر بشكل واضح فى مناطق واسعة فى أمريكا اللاتينية رغم جذورها الغربية وخاصة البرازيل . فالموقف موقف جدلى، هناك صراع بين الموقف التقليدى الذى وصفته وبين الموقف الجديد الذى بدأ مع محمد على، على مستوى عالمى، وليس مستوى مصر فقط، لكن فى النهاية هناك خلط بين المنهجين، والغلبة فى أحيان كثيرة فى العالم العربى هى لموقف المحاكاة وعدم الوضوح وعدم الاطمئنان إلى النفس . وبالمناسبة هل يمكن أن تذكر لى فى أية دولة عربية وفى أية جامعة عربية توجد أقسام لدراسة لغات وآداب وواقع شعوب الشرق فى اليابان والصين والهند، بينما فى جميع كليات الآداب فى الجامعات العربية توجد أقسام لتدريس اللغات اليونانية واللاتينية الكلاسيكية، اليس كذلك ؟ صحيح هناك بدايات، بدأنا ندرس هذه اللغات، وبدأنا نتعرف على هذه البلاد نتيجة حركة عدم الانحياز النابعة من باندونج، لكن مازلنا متخلفين جداً على هذا الصعيد، ومازلنا نعتمد على منطق المحاكاة والتقليد ونقل المعرفة والحوار مع الشمال فقط . وأنا أقول مرحباً بالحوار مع الشمال، ومرحباً بتجويد معرفتنا بالشمال، ولكن الواجب أن نقوم أنفسنا أولاً ونطور المشروع الوطنى فى علاقة وطيدة مع القطاعات المتقدمة فى مختلف ثقافات وحضارات وقوميات الشرق وهى فى غاية الثراء .

◆ لماذا تستخدم تعبير الشمال للدلالة على الغرب؟

لأننا استخدمنا تعبير الجنوب .

● لماذا لا نستخدم تعبير الشرق والغرب خاصة أننا نتحدث أساساً عن الأبعاد الثقافية للمصراع وليس فقط الأبعاد الاقتصادية؟

● أنا شخصياً فى كتاباتى لم أستعمل مصطلح الشمال والجنوب، وقد يكون اليوم هو أول مرة أستخدم فيها هذا التعبير، وعادة أستخدم تعبير الشرق والغرب أو القارات الثلاث والمركز المهيمن، لكن لم أستخدم من قبل مصطلح الشمال والجنوب، واستخدامى فى الحديث لهذا المصطلح غير مقصود، وأفضل أن يوضع مكان

استخدامه فى هذا الحديث كلمة الغرب والشرق، أو القارات الثلاث .

◆ هناك من يزعمه استخدام مصطلح شرق وغرب، ويعتبر أن ذلك قد تم تجاوزه من زمن، فلماذا العودة إلى هذا المصطلح . وهناك من يزعمه هذا التعبير لأنه يوحد بين الغرب ولا يميز بين غرب وأسمالى وغرب اشتراكى . هل هناك غرب واحد، أم مجموعة متباينة من هذا الغرب ؟

● كتبت عشرات الدراسات حول هذا الموضوع، الغرب إطار حضارى تكون تاريخياً ابتداء من جذور معروفة، ثم تشعب خلال ثورات وخاصة منذ ثورة أكتوبر إلى نظامين مختلفين اجتماعياً وسياسياً وأيديولوجياً، وكذلك فى الشرق أيضاً. هناك عدد من الدول والأنظمة الاشتراكية، وعدد آخر من الدول الرأسمالية التابعة والمتخلفة أليس كذلك ؟ وكل حضارة يمكن أن تتشكل سياسياً حسب ظروفها. وإن ظلت متسقة فى إطارها التكويني العام.

◆ فى التعامل معنا، هل يكون هناك غرب واحد ونظرة غربية موحدة فى النهاية ؟

● فهم الحضارة الغربية على تنوعها بشكل موحد ليس موقفاً سياسياً وإنما هو موقف ناتج من إقرار واقع، هو نتاج لعملية تكون تاريخى طويل استمر بالنسبة للغرب ٢٥ جيلاً ... الناتج عناصره واحدة، لكن تنظيم هذه العناصر فى الاجتماع والسياسة لإنتاج مجتمع من طراز كذا هو نتيجة الحركة السياسية هناك أنظمة اشتراكية وهناك أنظمة رأسمالية، هذه الأنظمة تستعمل العناصر التكوينية بشكل فيه ديمقراطية اجتماعية متقدمة جداً، وفى نفس الوقت مارست الهيمنة السياسية بأساليب مغايرة عن أساليب الغرب الإمبريالى التقليدى. وتدل التجربة أيضاً على أن العديد من الدول الاشتراكية قد تعاونت مع الدول الوطنية المستقلة فى مرحلة استقلالها بشكل إيجابى ساعد فى التخلص من الاستعمار وفى بناء الاقتصاد الوطنى، وهذا واقع تاريخى، لكن فى نفس الوقت لا يمكن أن ننكر أن هناك معطيات كثيرة ثقافية وعلمية وتكنولوجية جاءتنا فى مراحل سابقة

من الغرب قبل أن ينقسم إلى معسكرين . إنما جاءت تأكيداً لهيمنة الغرب . . . وهذا شيء طبيعي ففى أية علاقة بين قوى مختلفة، هناك قوى مهيمنة، وقوى تابعة. ثم إن التفرقة بين الشرق الحضارى والغرب الحضارى موضوع تاريخى - فلسفى فى حاجة إلى حديث آخر وقد عرضنا له بالتفصيل فى دراسات سابقة ومعروفة .

◆ إنه يفيض بالنسبة لنا لأننا نشكل جانب القوى التابعة .

● إذا ندرك هذه كظاهرة تاريخية، ندركه كنتاج لعلاقة قوى .

◆ لكن ونعانى من آثار هذه الهيمنة الناتجة عن ميزان القوى .

● لكن لا ننظر إلى هذه المسألة من منظور 'إخلاقي' .

◆ فى بعض الأحيان الرؤية الأخلاقية ضرورية ومطلوبة ومفيدة خاصة عندما نسمع مثقفى الغرب وهم يتحدثون دوماً عن حقوق الإنسان والحريات . . . نريد أن نقول لهم فى هذا الحوار أنتم كاذبون وتحدثون عن حقوق الإنسان فى مكان، وتتغافلون عنها فى مكان آخر !!! يتحدثون عن حقوق الإنسان بصورة نفعية لا صلة لها بمفهوم الحقوق أو الإنسان .

● لا، علاقة القوى ينبغى أن ننظر إليها بعين باردة للتحليل التاريخى الموضوعى لعلاقات القوى . وبعد هذا يأتى الموقف الأخلاقى . فالعمل هو دوماً بيت القصيد .

على فهمى خشيم
الغرب يرفض الاستغراب

على فهمي خشيم أحد المفكرين البارزين في ليبيا، وأحد القلائل المهتمين بالفلسفة العربية تديساً وتالياً. وهو من المتخصصين في فكر المعتزلة وله : النزعة العقلية في تفكير المعتزلة، والجبايتان أبو على وهاشم، غير الكثير من المؤلفات الأدبية والتراثية، ويعمل في الجامعة رئيساً لقسم الفلسفة (أمين قسم التفسير في ليبيا). وساهم في إصدار عدد من الصحف والمجلات أهمها : «الفصول الأربعة» كما أن اهتماماته لا تقتصر على مجال الفلسفة بل تمتد إلى التاريخ والاجتماع والأدب والنقد وقرض الشعر ودراسة اللغات القديمة . . . بدأنا معه الحوار بهذا التساؤل الذي دار على ألسنة بعض المستشرقين لماذا يوجد استشراق ولا يوجد في مقابله استغراب؟

● فلتحدث أولاً عن الاستشراق والمستشرقين . البعض يرى أن الاستشراق بدأ مع الاستعمار، لكن الأمر الصحيح أن الاستشراق بدأ قبل الاستعمار . لكن من المؤكد أيضاً أن الارتباط بين الاستشراق والاستعمار مسألة محسومة بالأدلة والوثائق. فاهتمام المستشرقين بالشرق في بداياتهم الأولى لم يكن حباً في الشرق العربي أو الإسلام . المستشرقون الأوائل في القرن الثامن عشر والتاسع عشر وأوائل القرن العشرين كانوا ينقسمون إلى قسمين : قسم جاء ليمهد السبيل ويقدم المعلومات، وهو عمل لا يختلف عن عمل الاستخبارات عندما يكتبون عن مجتمع ما، عن طريق رصد كافة المعلومات عن هذا المجتمع . وكثير من المستشرقين كانوا يعملون مباشرة لدى

دوائر الاستخبارات الفرنسية والإنجليزية والألمانية وغيرها، هذه بديهيات مؤكدة بالأدلة والرسائل . لكن منهم بعض الناس الذين دُهلوا أمام هذا التراث العربى الإسلامى، وأحبوه عن صدق ودافعوا عنه، لذلك لا ينبغي أن ننسى لهم حسنة حفاظهم على هذا التراث فى المكتبات الغربية، ولو لم يحفظ هذا التراث فى فترة الركود والانحيار العربى لضاع منه الكثير، هذا فضل يحسب لهم، ثم منهم من كان على علم كبير فأبدع، ومنهم من لم يكن على علم . . . المستشرقون الآن فى العصر الحديث فى حالة تراجع، لم يعد هناك الشيء الكثير مما يهتمون به نتيجة الصحوة فى الوطن العربى والإسلامى، لكن للأسف الشديد عندما يكتب المستشرقون الآن فإنهم يكتبون من منطلق الطعن ومحاولة التشويه، وأذكر منهم على سبيل المثال، برنارد لويس الذى لا يختار من الموضوعات إلا الشائكة، فأذكر دراسة له كانت عن الزنوج أو السود فى الإسلام، فكان لا يختار فى دراسته إلا النماذج التى تسىء إلى السود كمحاولة منه لتشويه العلاقة بين الأفارقة السود والمسلمين، كان يركز على نماذج من بشار بن برد تسىء لهم، وينسى النماذج المضادة، ينسى أن بلال كان مؤذن الرسول، لم ينتبه إلى قصة عنتر بن شداد وتأثيرها العميق فى التراث الشعبى العربى وفى الوجدان العربى والفولكلور العربى، لم يذكر البطولات الخارقة لهؤلاء السود . كان يعرف كل هذه النماذج لكنه لم يشر إليها . يختار المستشرق موضوعات يعلم أنها تثير الحساسية، يختار ثورة تو باعتبارها تعبيراً عن رفض الزنوج الأفارقة للحكم العربى، وهذا غير صحيح لأن قادة الزنج كانوا عرباً . ويختار المستشرق الشخصيات التى يدور حولها الكثير من الجدل مثل ابن الحلاج أو ابن سبعمين فى التصوف، وتجدهم لا يهتمون بالقيم الصوفية الحقيقية المتأثرة بالمنهج الإسلامى، لأن التصوف إسلامى

المنهج والتصور، وبالتالي يحاولون التشويه إما عن طريق بث المشكلات فى داخل الفكر الإسلامى أو عن طريق الفكر الصرفى . المستشرقون اهتموا أيضاً باللغات، وسأضرب مثلاً : ما الذى فعله شمبليون؛ اضطر إلى قراءة العربية وتعلمها ليحل رموز اللغة المصرية القديمة، وقاموسه الأول كان مقابلة اللغة العربية إلى اللغة المصرية، ومن جاءوا بعده حاولوا ونجحوا فى أبعاد اللغة المصرية القديمة عن اللغة العربية، باعتبارها لغة منفصلة واعتبروها لغة حامية وبالتالي غرقنا فى هذا الخضم وخُدعنا فيه .

المستشرقون أدوا دوراً سياسياً وجاسوسياً ضخماً فى شمال أفريقيا، يجب أن نعترف بذلك، وعملوا كذلك على إثارة الفتنة الطائفية عبر نشر كتب معينة وتحليلات معينة وغير تشويهِهم للتراث الإسلامى والتاريخ العربى، وهو ما أدى إلى ما نشهده اليوم من حرب طائفية فى لبنان، وأيضاً ما نشهده من محاولات وزرع الفرقة بين أقباط مصر ومسلميها بشكل مفتعل حتى يهددوا بها عروبة مصر وإسلامها، ثم من الذى نشر النزعة البربرية فى شمال أفريقيا ؟ أليست المدارس الفرنسية، بروفنسال وجماعته، لاوست وجماعته، وكثير من الأسماء التى اهتمت بدراسة اللغة البربرية والعمل على فصلها عن اللغة العربية، كى يمنحوا لقسم من شمال إفريقيا ذاتية ثقافية، وبذلك يحصل إنشقاق فى صفوف الأمة . لقد دمروا فعلاً التكوين والوحدة الحضارية للمثقفين . هم الذى يتبنون الآن الكتب التى تدمر الكيان العربى الإسلامى أو التى تنهج منهجاً يمسى مع تفكيرهم . دور النشر الفرنسية هى التى تتبنى أسماء لا داعى لذكرها، وهم فقاقيع أو توائم ك ما فى الأمر أنهم يشتمون القرآن أو يشتمون فقيه القرية ويسخرون من المسلمين، كمحمد شكرى وغيره، الذين يظنون أنهم اقتربوا من جائزة نوبل، عليهم اللعنة . . . المستشرقون، للأسف، وأنا عشت مع أغلبهم من

المحدثين هم جهلة، أغلبهم جهلة...

◆ هل تذكر لنا نماذج ؟

● كتابات برنارد لويس نفسه، إنه يدعى المعرفة ويكتب عن جماعة «الحشاشين» ويلوى الحقائق... مرجليوث هو الذى مد طه حسين بالعيث والكلام الفارغ الذى قاله فى كتابه الشعر الجاهلى... عندما أقرأ لمستشرقين محدثين أجدهم يفسرون الأشياء بطريقة... أذكر جاك بيرك وهو أستاذ جليل وقدم خدمات جليلة، لكنه لا يحسن العربية كما أحسنها أنا وأنت، وأنا أستمع إليه فى محاضرة بالكوليج دوفرانس...

◆ مع أنه من أفضل المستشرقين الذين يتحدثون باللغة العربية .

● كان لديه الكثير من التركيبات المعوجة، وهذا لا يقلل من أهمية الجهد الذى بذلوه... حفظهم لثرائنا ينبغى أن نقدره ولكن نأخذ عليهم أن أغلبهم كانوا أتباعاً للاستخبارات ويخدمون أوطانهم، ولا تسريب.

◆ لكنهم يقولون : وماذا فعلتم أنتم ؟

● حضرت مؤخراً حلقة نقاش فى جامعة الفاتح عن الدراسات العليا... عندما نرسل طالباً إلى إنجلترا ليتخصص فى التقنيات الحديثة لمعالجة الحديد والصلب يرفض طلبه، لكن نقدم رسالة عن تشغل مصنع الحديد والصلب فى مصراته يُقبل، فجميع الدراسات التى يكتبها طلاب عرب عن العالم العربى تقبل فى كافة المجالات ويرحب بها، لكن إذا أردت أن تكتب شيئاً عن الغرب لا يُقبل، بينما الرسائل الأولى تقبل لأنها موثقة وملينة بالمعلومات التى تمضى مباشرة إلى دائرة المخابرات

وتبرمج. يقولون وماذا عنكم ؟ نحن لم ندرسهم لأنهم لم يسمحوا لنا أن ندرسهم .
أنه غير مسموح لنا إطلاقاً القيام بذلك * أتمنى أن يدرس طالب عربى تركيبة الأسرة
البريطانية المالكة لن يسمح لطالب عربى دراسة أصول العائلة المالكة، لكن بينما
يسمح للطلاب دراسة تركيبة الحكم فى العراق أو سوريا أو ليبيا .

◆ قمت بإجراء تحقيق صحفى عن هذا الأمر ووجدت الأساندة فى فرنسا يقولون
انتم السبب، وأنتم الذين تبحثون عن دراسات سهلة عن الطهطاوى أو الحزب
الاشتراكى فى لبنان حتى يحصل الطالب على الدكتوراه بسرعة ويعود للعمل فى بلاده .

● لا ... هذا الكلام غير صحيح .. هم يشجعونه لمعرفة الأفغانى وعبد، أو
تركيبه السكان فى مصر وليبيا، يرحبون بذلك لأنها معلومات، ووفقا لها تخطط دوائر
الاستخبارات الغربية، لذلك ناقشنا الأمر فى ليبيا واتخذنا هذا القرار: الذى يريد أن
يدرس موضوعاً عن ليبيا فليدرسه فى ليبيا، أما إذا أراد أن يدرس موضوعاً عن فرنسا
فليذهب إلى هناك، إذا أراد الطالب أن يدرس فلسفة هيغل أو سارتر فليذهب إلى
هناك، وإذا رغب فى دراسة الكندى والفارابى فليذهب إلى جامعاتنا، أما إذا كان
الهدف دراسة اللغة والاحتكاك بالآخرين، وهو أمر محمود، فبشرط أن يدرس سنة ثم
يعود لإعداد دراسته هنا .

◆ يقولون: لا يوجد لديكم استغراب .. كم قدمنا نحن الاستغراب ؟

● نحن لسنا مقصرين، بل بالعكس لدينا أحمد فارس الشدياق الذى كتب عن
أوروبا . أليس هذا محاولة لدراسة الغرب . والعلماء الذين ذهبوا إلى الغرب فى بداية
النهضة كتبوا عن أوروبا . لكن الأوربيين منعوا هذا لأننا بدأنا نعرف ... الآن نحن
مقبولون للتعرف عليهم أكثر وبدراية أكثر، فهل يسمح لنا بذلك ؟ لا أعرف لماذا

يضعوننا فى موضع الاتهام، كأننا نحن المقصرون ؟ أهم الذين يتعمدون ذلك حتى يظل الاستشراق قائما . . . المستشرقون جاءوا مع الاستعمار، وأخذوا آلاف الكتب والوثائق، تجدها فى مكتباتهم الوطنية . كل دولة سرقت حصتها من تراثنا المكتوب . نحن دائما نلام، على العرب أن يستيقظوا . . .

◆ لماذا لا يستيقظ العرب أو بتعبير آخر: لماذا لا يوجد لدينا فلاسفة عرب اليوم ؟

● لست متفقاً مع هذا السؤال . فإذا كان مفهوم الفلسفة الذى نتخذه معياراً للحكم على وجود الفلاسفة العرب أو غيابهم هو المفهوم التقليدى للفلسفة أى أن يضع الإنسان مذهباً متكاملاً فى مناحى الحياة، فهذا المفهوم لم يعد قائماً لا فى الشرق ولا فى الغرب . أما إذا كانت الفلسفة هى الفكرة الجوهرية المعينة التى يدور حولها فكر المفكر أو الفيلسوف فهذا موجود، ونحن لدينا كثير من الكتاب يفوقون كتاب الغرب أمثال عبد الرحمن بدوى، عبد الهادى أبو ريده، توفيق الطويل، زكى نجيب محمود وغيرهم من بلاد المغرب والشرق العربى الذين قد تنفق أو تختلف معهم، لكن لا نستطيع أن نذكر فلسفاتهم، لكن المشكلة تأتى من أن هناك فيلسوفاً ما تسلط عليه الأضواء ويجد من يهتم بأفكاره ويذيعها فيصير فيلسوفاً . . وأنا فى تصورى أن هناك فلاسفة عرباً معاصرين لكن حفظهم سئ لانهم لم يُعرفوا بعد فى الغرب !! ونحن فقط مأخوذون بما يأتى إلينا من الغرب ودعايته فى حين أن لدينا فلاسفة عرباً كباراً لكنهم لا يجدون فرصة أن يُعرفوا وأن يُعترف بهم فى الخارج كما فى الداخل، حيث لا يستطيعون أن يعبروا تعبيراً حقيقياً عما يدور فى أذهانهم نتيجة الطغيان السائد فى الوطن العربى . لا يزدهر الفكر إلا فى جو من الحرية. والمعروف أن الوطن العربى، محروم من نعمة الحرية هذه .

◆ حسناً .. لكن ألا تلاحظ أنك لا تقيم فرقاً بين الفيلسوف والمفكر . فالثانى قد يكون مجاله الفكر السياسى أو الاقتصادى أو الاجتماعى، بينما الاول فمجاله محدد هو الفكر الفلسفى . بالطبع لا اعنى بذلك أن مجال الفلسفة يغفل المجالات المعرفية الأخرى، لكن لاحظ أن لدينا مفكرين وليس فلاسفة يبحثون فى قضايا فلسفية من منظور جديد، استناداً إلى تراث فلسفى عربى .

● أنا لا أعتقد فى مشروعية التمييز بين الفيلسوف والمفكر كما تقول، وكثير من كتب الفلسفة تتناول سقراط وأفلاطون وأرسطو لوصفهم مفكرين . أنا فى تصوّرى وأصر على ذلك أن هناك كثيراً من المفكرين العرب لكنهم مغبونون وغير معروفين أو معترف بهم، أما الفلسفة بمعنى التنظير الخاص فى مجال محدد فأعتقد أنه لم يعد لهذا النوع من التفكير مجال حقيقى، لأن الحياة أصبحت أكثر دفقاً . نحن محتاجون إلى أفكار متصلة بالحياة ... أعود إلى سؤالك: هل فى الوطن العربى فلاسفة ؟ أقول: إذا الفيلسوف بمعنى ذلك الذى يفكر فى قضايا وله موقف- كلمة موقف فى التعبير الحديث هى مذهب فى التعبير القديم - فأجيب بنعم ولدينا منهم الكثير لكن لا يسلط عليهم الضوء .

◆ يبدو لى أنك حصرت النقاش فى قضية «تسليط الأضواء» فقط فى حين أن غياب الفلاسفة العرب المعاصرين ربما يكون نابعاً من غياب منهج ورؤية ذاتية تميز هؤلاء الفلاسفة العرب عن أقرانهم الغربيين .

● لا ينبغى أن نقول بأن هناك انفصلاً فى المعرفة الإنسانية، فالذى فكر فيه الفيلسوف لا يبتز فكر فيه من قبل فلاسفة عرب . هناك تفسير إنسانى مشترك وهذا شئ طبيعى ... فالشك المنهجى الذى قال به ديكارت ألم يكن موجوداً فى كتب

الجاحظ، كل ما فى الأمر أن هذا الشك المنهجى نسب إلى ديكارت لأنه ظهر فى بداية النهضة الأوروبية فسلطت عليه الأضواء، بينما الجاحظ جاء بعد انهيار حضارى فمات فكره ...

◆ بالطبع هناك بديهية تقول إن المعرفة عامة ومشتركة وإنسانية، لكن هذا لا ينفى أن العالم منقسم إلى حضارات وثقافات، الأمر الذى ففضى بالضرورة إلى وجود فلسفات مختلفة ومناهج فى الرؤية مختلفة أيضاً .

● المنهج فى التفكير أو الرؤية واحدة فى تصورى . منهج كتابة التاريخ فى أمريكا لا يختلف عن منهج كتابته فى ليبيا . فالعلوم واحدة والمنهج واحد لكن التطبيق يخضع إلى ظروف متنوعة .

◆ لكن الا يغير اختلاف الظروف من قواعد المنهج . وهل المنهج اجراءات تقنية فقط تصلح فى أى زمان ومكان أم أن به جانباً نظرياً تحليلياً يرتبط بمفهوم الثقافة أو الحضارة التى ننتهى إليها؟

● أنا مؤمن بالتنوع وليس الانقسام داخل الأسرة الواحدة . أنا مؤمن بوحدة الأصول فى كل شىء، وأؤمن بهذا الاختلاف الذى لا يؤثر فى وحدة الأصول، وأعتقد أن المناهج - كوحدة أصول - هى واحدة فى كل أنحاء العالم .

◆ التحليل النفسى كمنهج فى معرفة الذات البشرية والغوص فى أسرارها على سبيل المثال ، لا يمكن النظر إليه على أنه منهج عالمى يصلح فى الغرب كما فى الشرق ؟

● أولاً: هناك ردة فعل ضد التحليل النفسى فى الغرب ذاته، وثانياً ينبغى أن

نتساءل أولاً: هل نقبل نحن التحليل النفسى أم لا ... المشكلة هى متى نصل فى العالم كله إلى حقائق ثابتة تطبق فى أى زمان ومكان ١٩

◆ قبل أن نصل إلى تلك الحقائق الثابتة بين الحضارات والثقافات، أليس المشروع أن نتحدث أولاً عما يميز هذه الحضارات، ثم نبحث بعد ذلك فى القواسم المشتركة بينها . فإذا كنا نتحدث عن المناهج فما هى مناهجنا الذاتية فى الرؤية والتحليل ؟

● إذا اخذنا الحضارات الإنسانية باعتبارها تعيش فى صراع فإنه ليس من المطلوب منى أن أتبع مناهج الأخرى . أما إذا قام بين الحضارات والثقافات حوار فيمكن الاستفادة من الثقافات الأخرى والعطاءات الأخرى، وبالتالي لا أمانع فى استخدام المناهج إذا أفادتنا، وليس هناك ما يمنع حدوث العكس أيضاً إذا وجد الغربيون فى مناهجنا ما يفيدهم .

◆ إذا تركنا جانباً مسألة الصراع أو الحوار بين الثقافات . فإين هى مناهجنا الذاتية فى الرؤية والبحث اليوم والتي يمكن للغرب أن يستفيد منها؟

● كعربى مسلم فإن منهجى واضح جداً وليس لدينا مشاكل فى هذا ... منهجنا العقلى موجود وهو الأساس الحقيقى لثقافتنا . العقل هو أساس المنهج الإسلامى فى التفكير وهو مبنى على أسس منطقية تتفرع بعد ذلك إلى مجموعة هائلة من الفروع التى تتنوع حسب المعطيات وظروف الزمان والمكان . وليس هناك ما يوجب فرض المنهج العقلى على غيرنا . كما لا أطلب من أحد أن يفرض مناهجه لدينا ... واعتقد أنه قد آن الأوان لكى نسترد الثقة بأنفسنا . نحن فى الوطن العربى فى حاجة إلى الثقة بأنفسنا ومبادئنا والعودة إلى تراثنا - والتراث لا يؤخذ كله

بالمناسبة - ومن ناحية أخرى ينبغي أن نستفيد من تجارب الآخرين على أساس الند للند، وأن نعترف أولاً بمفكرينا الذين لا يقلون أهمية عن فلاسفة الغرب . . . وهم يهتمون في الغرب بمفكرهم وعلينا أن نهتم بمفكرينا . خذ مثلاً راسل إلا يعتبر فيلسوفاً ؟ - لكن ما هو الإسهام الفلسفي الذي قدمه راسل، له كتابات أخرى في السياسة ؟ اليس هو شغله في الرياضيات مع وايتهد ! لكن راسل له كتابات أخرى في السياسة والاجتماع والدين وكل شيء . هل كان يتبع موقفاً معيناً موافقاً لمنهجه الرياضي في كل هذه النشاطات التي كان يقوم بها ؟ ! لا يمكن تأكيد ذلك . كان يأخذ مواقف الاجتماعية نتيجة تفكير مستقل . عندما كتب لماذا لست مسيحياً ؟ لم يكن لموقفه هذا علاقة بفلسفته في الرياضيات، وكان آخر عمل له بيانه عن فلسطين قبل أن يموت بشهر واحد فقط . لكن جملة المواقف السياسية والاجتماعية والفكرية هذه هي التي جعلت من راسل فيلسوفاً . فلماذا - انطلاقاً من هذا المعيار - لا نتحدث عن المفكرين العرب بوصفهم فلاسفة لماذا لا نقول الفيلسوف العقاد ؟ فالعقاد أضخم وأشمل وأكثر منهجية مع نفسه . العقاد كان يؤمن بقدرة الفرد وانطلاقاً من هذا الأساس أنتهج أعماله الأدبية والفكرية والإسلامية . العقاد إذا فيلسوف وتراثه أضخم من تراث راسل، فلماذا نعترف براسل فيلسوفاً والعقاد غير ذلك . أم أن كلمة فيلسوف هي جميلة عندما نقرنها باسم راسل وهي غير جميلة عندما نقرنها باسم العقاد . طه حسين أيضاً كتب في كل المجالات: في الأدب، في السيرة، في النقد، وخلف لنا آلاف الصفحات فلماذا لا نعتبره فيلسوفاً؟ هل لأنه مفكر عربي لا يستحق كلمة فيلسوف؟ وأنا أقول إنه فيلسوف (بحدة) وله موقف من الحياة والناس والمجتمع والفكر والتاريخ . . . وحتى الفلاسفة الكبار في العالم لم يصفوا أنفسهم بأنهم

فلاسفة كأفلاطون وأرسطو بل الشراح الذين درسوا أعمالهم هم الذين قالوا هذا مذهبه مثالي وهذا مذهبه واقعي ... ما يثير حيرتى هو أننا نضع الكتّاب العرب دائماً فى مرتبة أقل، وذلك راجع فى تصوّرى إلى أننا لم نعد نؤمن بأنفسنا، ونرتضى دائماً فى أحضان الآخرين !! الغربيون يصنعون فلاسفاتهم ونحن ندمر فلاسفتنا !! هيجل، كانط، شوبنهاور، سارتر، ويحمسون لهم ويعطونهم حقهم من الاهتمام والدراسة والتقدير . أما الأمة العربية فهى الأمة الوحيدة التى تحطم مفكرها . فلو ظهر العقاد فى الغرب لأصبح فيلسوفاً بالمعنى المحدد للكلمة . نحن لم نعد تحلوا لنا سوى الأسماء الغربية التى تطن وترن .. لكن الأسماء العربية مثل زكى نجيب محمود وعبد الرحمن بدوى وفؤاد زكريا وغيرهم فهى أسماء لا تطن ولا ترن كأسماء الغربيين !

◆ حتى نكون منصفين أيضاً ينبغى الاعتراف أن كثيرين من المفكرين العرب لا يوجد فى إنتاجهم ما يميزهم كمرب وكل ما يقومون به هو ترجمة وشرح نصوص الفلسفة الغربية أو تكرار شرح النصوص الكلاسيكية فى الفلسفة العربية، فليست المسألة فقط عائدة إلى عدم الاهتمام بمفكرنا !

● ليس هناك من تثريب فى الأخذ من الغرب، ففلاسفة الغرب اخذوا منا . ألم يتأثر توماس الاكوينى . بيكون، ديكارت، بابن رشد وابن سينا ولم يمنع هذا كونهم فلاسفة من الغرب .

◆ لكن الأمر بالنسبة إلينا فى العصر الحديث أننا نأخذ من الغرب مع تجاهل الأسس والمقومات الذاتية للثقافة العربية .

هذه تهمة تساق فى الغالب للتحطيم! العقاد غير معترف به كمفكر فى البلاد

العربية، وبعض الأفلام تهاجمه بصفة أنه رجعى أو يعيد الفردية والبطولة، لكن كارليل عابد البطولة، هو فيلسوف ... أعتقد إذا بدأنا دراسة العقاد كفيلسوف يمكن أن تتوالى الدراسات بعد ذلك ونجد من يدرس عبد الرحمن بدوى كفيلسوف، وزكى نجيب محمود كفيلسوف، وفؤاد زكريا كفيلسوف . هؤلاء اختلف معهم فى الآراء لكن لا أنفى أنهم فلاسفة فى نمط حياتهم وتفكيرهم، أما مسألة التأثر فهى مسألة بدئية وطبيعية ... الغريب أننا ندمر أنفسنا .. هل تتصور أن هناك فلاسفة أفارقة مهمين ولا يوجد فلاسفة عرب مهمين ! أم أن إطلاق كلمة الفيلسوف العقاد، الفيلسوف عبد الرحمن بدوى، ترعبنا ... هناك مفكرون فى الشام والعراق ومصر وربما فى اليمن وبقية البلاد العربية ولهم منهج فى الحياة وأسس ومواقف . هذه هى الفلسفة .. مواقف، سواء كانت نظرية أو سياسية أو اجتماعية .

◆ ألا نعتقد أن غياب فلاسفة عرب معاصرين - وأنا أصر على ذلك - يعود إلى وجود انقطاع بين الفلسفة العربية الإسلامية الكلاسيكية وبين الإنتاج الفلسفى المعاصر فى العالم العربى ؟

● أنا أقول - وأصر أيضاً - أن الفلاسفة العرب موجودون لكننا لم نبدأ فى اكتشافهم ولم نعترف بهم، وهذا يحدث إحباطاً وينتقل الإحباط إلى آخرين . فهل من المعقول بعد خمسين عاماً من الكتابة والتأليف أن يجد المفكر نفسه غير معترف به كمتقن، ويهزأ به ويسخر به ويحطم ويتم تدميره . نحن نضطهد فلاسفتنا ومفكرينا، نتيجة أوضاعنا وعصر التردى الرهيب الذى لم يمر على الأمة العربية مثله اليوم .

اليوم أحمد عدوية أحسن من أى فيلسوف فى العالم العربى، طبعاً هذا نتيجة

عوامل سياسية واقتصادية وحضارية وعمل دؤوب من الآخرين لتدميرنا من الداخل، بحيث أفقدونا الثقة فى أنفسنا، ولا يمكن لنا أن ننهض من جديد إلا فى مناخ من الحرية، علينا أن نعلم الطفل العربى ما تعنيه الحرية، نحن للأسف من المحيط إلى الخليج فى حاجة إلى الحرية. نحن فى الوطن العربى لا نزال نعيش تعساء فى سلوكنا وكلامنا وفكرنا وإذا عنتنا وصحفنا . . . هناك مطالب أخرى للنهضة كالعادلة الاجتماعية والوحدة والتصنيع، لكن هذا يأتى بعد الحرية وأعنى الحرية السياسية أولاً ثم الحرية الإجتماعية ثم حريتى كإنسان فى تحقيق وجودى، وبعد ذلك تزدهر الفلسفة، إذ كيف يوجد فلاسفة عرب، والمفكر يكتب وهو يفكر فى الرقيب والشرطى ! كيف يبدع وهو لا يستطيع أن يفكر ويقول رأيه . أقول: ما نحتاجه اليوم وقبل أى شىء آخر . . الحرية . . .

لویس عوض
دائماً... الغرب غرب

يشغل لويس مكانة هامة فى الحياة الثقافية فى مصر والعالم العربى، وهو منذ عقود يشكل نافذة كبرى نطل منها على جوانب من الفكر والأدب فى أوروبا، ولويس عوض مؤرخ وناقد أدبى خاض الكثير من المعارك الشائكة فى الداخل والخارج . ومنذ كتابه « المؤثرات الأجنبية فى الأدب المصرى الحديث » ثم « تاريخ الفكر المصرى الحديث »، ثم كتبه الأخرى التى تناول فيها عصر النهضة الأوروبية حتى كتابه الأخير « مقدمة فى فقه اللغة العربية » وهو يحمل معه هذا التوتر الخلائق إلى يفيض إبداعاً ومعرفة، كما ينص فى بعض الفترات معارك صراعيه تركت آثارها الواضحة على مواقف وآرائه .

التقيت لويس عوض، المرة الأخيرة، فى باريس صيف عام ١٩٨٦، وتناولنا فى مكثبات الحى اللاتينى ثم جلسنا فى مقهى وبدأنا حواراً مسجلاً اتسم بالحدة أحياناً، لكنه فى النهاية حوار عقل إلى عقل مع الاحترام والتقدير الذى نكته دائماً للدور الهام الذى نهض به لويس عوض فى ثقافتنا المعاصرة والتى كان أحد فرسانها فى دفاعه عن التعليم العام فى وجه سماسرة الانفتاح الاقتصادى وغيرها من القضايا التى تهم الوطن بأسره، وإن كان ذلك لم يمنع الخلاف معه فى قضايا أخرى كثيرة . . بدأت الحوار معه بالتساؤل التالى:

◆ كيف تفسر استعادة الحوار من جديد عن شرق فى مواجهة غرب، وعن جنوب فى مواجهة شمال ؟ هل تعتقد أن هذا حوار مفتعل أم أن هناك وعياً جديداً بمسألة العلاقة مع الغرب اليوم ؟ ماذا يعكس هذا الحوار فى رأيك، هذه الأيام ؟

● يعكس هزيمة منكرة . الملاحظة التى أستطيع أن أبديها، هى أننا فى أزمنة القوة والنهضة نحاول أن نضرب الحواجز التى بيننا وبين العالم الخارجى قدر الإمكان، والتوجه نحو الحضارات الأخرى الراقية، ليس فقط من الناحية المالية لكن أيضاً من الناحية الفكرية . وعاشت مصر هذه المراحل، مراحل القوة والنهضة، فى عهد محمد

على وعصر إسماعيل وثورة ١٩١٩ . لكن عصر عبد الناصر أحدث البلبلة الكبرى عندما أرسى دعائم الفلسفة التوفيقية بين الانغلاق على النفس وبين استيعاب وجوه من الحضارة الغربية، تصور أنها مفيدة لنظامه المؤسس على استعادة القوة . . . نظام عبد الناصر لم ينشأ من فراغ . . كان يحتوى دائما على العنصر المحافظ، وكانت ثورة عبد الناصر، فى نهاية الأمر، هى ثورة الشبان المحافظين، أى أنها كانت تجمع بين الشباب، والشباب بطبيعته يسعى للتغيير، والعقلية المحافظة التى تطالب بالانغلاق . ومن هنا أدار عبد الناصر ظهره لنظرية استيعاب الحضارة الغربية إلا من وجهها التكنولوجى . لم يكن الأمر كذلك فى عصر محمد على، لم تكن هناك حواجز موجودة، كان محمد على، إلى جانب محاولاته فى بناء الترسانة المصرية ببناء الجيش المصرى على أحدث طراز، كان يسمح بظهور مفكرين وخروج مصر الحديثة من العصور الوسطى متمثلة فى رجلين من أهم رجالها هما رفاعة الطهطاوى، بدرجة أساسية، والجبرتنى بدرجة فرعية، وأحمد فارس الشدياق . بالطبع رفاعة كان الثورة الكبيرة التى خرج منها التفكير الحديث، ولا سيما عبر الصدمة الحضارية الأولى التى تلقاها عند زيارته لأوروبا . ولم يكن الطهطاوى نفسه خارجاً من فراغ لأن أستاذه كان الشيخ حسن العطار، وكان من المؤمنين بالتحديث فى الفكر والمؤسسات القومية عن طريق استيعاب الحضارة الحديثة بجميع معانيها، والدليل على ذلك أن الشيخ حسن العطار عندما كان شيخاً للأزهر فى عهد محمد على، أراد إدخال العلوم الحديثة إلى الأزهر ودخل فى معارك مع شيوخ الأزهر، وكان يعمل على تطوير مناهج التدريس والتعلم فى الأزهر . . وعندما جاء الطهطاوى إلى (باريس) أحس بجوهر المجتمع الغربى وقد انعكس ذلك بوضوح فى كتابه الشهير تخليص إلأبريز فى تليخيص باريس . . .

◆ قلت فى بداية حديثك إن نظام عبد الناصر أدار ظهره للشقافة الغربية بينما تشهد فترة الستينيات على وجود حركة نشطة تجاه الاهتمام بالثقافة الغربية والترجمة عنها .

● فى الحقيقة الذى أتخذ نظام عبد الناصر من العودة إلى القيم التقليدية هو أنه ورث جيلاً من المثقفين، لم يكن هو الذى بناه، ورثه عن فترة أواخر عهد الملكية. هذا الجيل كان يتجه إلى اليسار، كانت قيادات هذا الجيل : فؤاد مرسى، إسماعيل صبرى عبد الله، أحمد بهاء الدين، كامل زهيرى، فتحى غانم، الذين تكونوا فى الأربعينيات وكانوا متطلعين لتطوير المجتمع المصرى باستيعاب المناهج الأوروبية المادية والفكرية، وكانوا حلقة الوصل بيننا وبين العالم الخارجى فى عهد عبد الناصر، ودخل عبد الناصر فى تناقض معهم، فى أول عهده، لكنه كان لديه فضيلة أنه دائماً مع الأحداث، ومن أجل أن يحدث التغيير، ولأنه لا يمكنه الاستغناء عنهم، بدأت المصالحة الوطنية، ونتج عنها ازدهار حركة الترجمة التى أشرت إليها فى كلامك، والتى جاءت كنتيجة طبيعية لنمو النظام الناصرى وتخلصه درجة درجة من الاتجاهات اليمينية التى كانت مهيمنة . أتذكر أن شخصاً مثل كمال الدين حسين بعقليته التقليدية المحافظة كان الكل فى الكل لمدة عشر سنوات كاملة فى الفترة من ١٩٥٢ إلى ١٩٦٢، أى فترة إعلان الميثاق الوطنى . وبعدها استطاع عبد الناصر أن يتجاوز هذه القيم التقليدية، واستطاع أن يطعم المجتمع المصرى بالأفكار الجديدة على أساس علمى جديد، وذلك فى الوقت الذى ظل فيه أقرانه كما هم (محلل سر) ولم يفهموا حركة التاريخ فى المجتمع المصرى . آنذاك حصل الانشقاق فى المجتمع المصرى، وفى داخل النظام الناصرى نفسه إلى الدرجة التى اعتقد فيها أن ذلك أدى إلى الهزيمة، وبعد ١٩٧٦ كانت هناك تيارات متعارضة، وفى كتابى «أقنعة الناصرية السبعة» وصفتها بأنها أشبه بسيارة تسيير فى اتجاهين متعارضين . هذا التناقض كان موجوداً منذ بداية الثورة، فكيف تقوم ثورة وتطالب بتصفية المصالح الأجنبية فى مصر وتبدأ بمصادرة أملاك الأجانب وتؤمّمها أو تمصرها، وتؤمّم قناة السويس، وما تلاها من تأميم البنوك والشركات الأجنبية، كيف تفعل كل هذا، وتحاول فى الوقت نفسه أن تقنع الغرب بأن يأتى للاستثمار فى مصر؟! هذا يدل على أن جرثومة هذا التناقض كانت موجودة مع نظام عبد الناصر منذ البداية . وجود هذا التناقض

من البداية كان من عورات النظام الناصري، ثم اكتشف عبد الناصر أنه لابد أن يختار فاختار طريقاً قومياً، عندما عرف أن الغرب لن يأتي برؤوس الأموال لحل مشاكله واتجه نحو الشرق مع الاتجاه أيضاً إلى تأميم رؤوس الأموال المصرية .

◆ تشير في حديثك دائماً إلى التيار المنغلق الذي يقيم الحواجز بيننا وبين الغرب، لكن المشكلة أنه ليس فقط هذا التيار هو الذي صنع هذه المسافة مع الغرب، وهناك بعض الأسماء والاتجاهات الأخرى نتحدث عن الوعي الذاتى فى مواجهة الهيمنة الغربية .

● عن أى وعى ذاتى نتحدث ؟ أين ومتى ؟

◆ أنت تعرف أن أغلب طبقة المثقفين المصريين والعرب مناهجهم ومواجههم غربية تماماً ولا يعرفون شيئاً عن تراثهم وتاريخهم إلا فيما ندر .

● لا ينبغي أن نفرق فى عموميات، أنا أتحدث عن أمثلة محددة . . عبد الناصر كان يتحدث عن الاشتراكية ويقول إنها نابعة من تجاربنا العربية، لكن قل لى منذ متى ونحن لدينا تجارب عربية فى الاشتراكية . بعض الناس يذكرون أبا ذر الغفارى ويحاولون قراءة الاشتراكية بفكر تقليدى . لكن هل الاشتراكية نوع من الشحاذة، أو نوع من الإحسان الفردى ؟ وهل يمكن حل المشاكل الاجتماعية عن طريق الإحسان، المسألة ليست مرهونة بنوايا فردية، وإنما بمؤسسات مثل التأمينات الاجتماعية، هذا ما تنبه له عبد الناصر وقام بنقله فى النظام المصرى وتحول من فكرة البر بالفقراء من الناحية الفردية التى يقوم عليها المجتمع والقيم التقليدية، إلى فكرة العدالة المتمثلة فى مؤسسات الدولة . وبعد عدة سنوات من الثورة نفذ عبد الناصر مجانية التعليم، لكن منذ سياسة الانفتاح عبرنا إلى المجتمع الطبقي، وبدأت الطبقات الجديدة الضاربة فى عدائها للعدالة الاجتماعية تحاول إلغاء مجانية التعليم، ليس فقط على مستوى التعليم الجامعى، لكن أيضاً على مستوى التعليم الثانوى والعام .

◆ هذه الطبقات الجديدة الضارية في عدائها للعدالة الاجتماعية، اليسوا أقرب إلى

الغرب ؟

● هم عملاء للغرب، وارتباطهم به ليس ارتباطا حضارياً، انظر قصة التلوث الاشعاعي الذي حدث في روسيا، ستجد أن ما كتب عنه في الصحافة المصرية أكثر مما كتب عنه في الصحافة الغربية .

◆ بماذا تخرج من هذه الملاحظة ؟!

● المسألة ببساطة أنهم يلعبون دورهم في مقاومة الشيوعية !

◆ لماذا لا ترى الوجه الآخر للصورة، أى أنهم يفعلون ذلك لأن هويتهم غابت واندرت ملامحهم الذاتية .

● ماذا تعنى بذلك ؟

◆ أعنى أن الحديث عن جنوب وشمال وشرق وغرب، فى هذه الأيام، قد يكون نتيجة طبيعية لوجود هذه الطبقات والفئات المغتربة فى مجتمعاتها، فحدثت بقلة تفتش عن الملامح الذاتية وعن الهوية الثقافية .

● هل تدلنى عليها ؟ أين هى هذه الهوية ؟

◆ هى تلك القواسم المشتركة بين الناس فى أرض معين .

● أين هى ؟!

◆ تجدها فى الواقع لأنها محصلة اتفاق الناس فى فترة تاريخية واستنادا إلى اصول

...

● السائد هو السرقة . . والاستغلال .

- ◆ لكن هذه الأمور ليست قواسم مشتركة بين الناس .
- وأنا أتكلم عن صورة المجتمع المصرى كما تجدها الآن .
- ◆ ما هو موجود على السطح ليس بالضرورة هو ما يعبر عن هوية الناس، هناك لحظات عابرة لا تعبر عن شيء .
- أنت تتحدث أين ؟ وفى أى فترة ؟
- ◆ أتحدث عن مابقى للناس من تاريخ .
- عن أى تاريخ تتحدث ؟ وفى أى فترة ؟ حدثنى عن التاريخ المصرى متى كان تاريخى؟
- ◆ اليس لنا تاريخ فرعونى، قبطى، إسلامى، ترك بصماته على المصريين ؟
- أخبرنى متى كان حق التعليم بالمجان حقاً لجميع أفراد الشعب ؟
- ◆ أنت تأخذ نموذجاً عملياً فى قضية محددة، لكنى أتحدث عن ثوابت تاريخية .
- لا، أنا أتحدث عن قضية من أخطر القضايا . العالم العربى قبل الحرب العالمية الثانية إلى فكرة التعليم بالمجان، وأعتقد أن ذلك صلب العملية الديمقراطية، بينما الآن نتراجع إلى الوراء . فالمجتمع التقليدى فى مصر لم تدخل فيه فكرة التعليم المجانى كحق للمواطنين إلا حديثاً ثم تراجع عن ذلك كما ترى الآن .
- ◆ اليس هناك لغة خاصة بهذا المجتمع،
- أرجوك . لا تتحدث معى بتلك اللغة التى يتحدث بها البعثيون .
- ◆ لا، يامسىدى، أنا أتكلم اللغة التى ينطق بها العقل السليم، أو ما أراه كذلك .
- لا، هذه هى اللغة التى يستخدمها البعثيون .

◆ فلترك البعثين جانبا .. وسأحدثك عن الغرب، ألا تقرأ فى الصحف والمجلات الغربية أنهم دائما يتحدثون عن الرسم الغربى، والنحت الغربى، والقيم الغربية، أى أنهم يحددون دائما هويتهم بمعزل عن الآخرين أو فى مواجهتهم، تقبل أن يقال، الرسم الغربى والشعر الغربى والموسيقى الغربية و... .

● نعم ...

◆ لماذا لا تقبل الامر نفسه بالنسبة للشقافة العربية من دون توجيه الاتهامات بأن هذا كلام البعثين ؟!

● لأنك لا تملك شيأ إيجابيا تشير إليه .

◆ ليست المسألة مسألة ما هو إيجابى وما هو سلبى . إنها مسألة وجود بكل ما يتضمنه . أنت، هكذا، لا تقبل أن يعترفوا بذاتيتهم وهويتهم ولا تقبل لنا بذلك لأن لدينا سلبيات كما تقول، فى حين أن الموقف السليم يفترض أولا الاعتراف بهذه الذات ومقوماتها الأساسية ثم العمل بعد ذلك على تقويم وإصلاح ما اعرج منها .

● تفضل، فلنعمل إذا كنت ترى أن المجتمع به قيم إيجابية تصلح كأساس للعمل والبناء .

◆ هذه القيم، وهذه الأسس، إذا لم تكن ظاهرة وواضحة، علينا أن نكتشفها ونعيد تجديدها، لكن المشكلة أن الوعى الذاتى غير موجود أصلا حتى نقيم البناء .

● أنت تذهب بنا إلى أمور ميتافيزيقية، أنا أحدثك فى قضايا محددة وملموسة . أنا أسألك : هل الحوار كوسيلة للتقدم الاجتماعى أفضل من الدكتاتورية أم لا ؟

◆ نعم .. هذا مؤكد .

● أين تجد ذلك فى المجتمعات الشرقية ؟

◆ غير موجود، فى أغلب هذه المجتمعات .

● ليس من الأصلى لهذه المجتمعات إذا أن تقتبس من الغرب فلسفة الحوار بدلاً من فلسفة القمع ؟ فإذا سلمت بهذا، فإن الطريق مفتوح أمام الحضارة الغربية .

◆ نعم، لكن ليس من يقول بفلسفة الحوار وحقوق الإنسان هو غريب بالضرورة .

● لا، حقوق الإنسان جزء لا يتجزأ من الحضارة الغربية منذ أيام عصر النهضة .

◆ هذا الكلام يقوله الغربيون كنوع من التمجيد الذاتى لهم، بينما لو دققنا النظر سنجد أن الصورة ليست بهذا الشكل المثالى، وسنجد أن فلسفة الحوار وحقوق الإنسان على الصعيد العملى مليئة بالثغرات . ومن جهة أخرى لدينا تراث هام فى هذا الشأن .

● لماذا تريد أن ننقل هذه الثغرات لدينا ؟

◆ لم أقل بذلك . وإنما أشرت إلى أن فلسفة الحوار الغربية وحقوق الإنسان ليست بريئة وأن تقنياتها قد لا تتواءم مع واقعى ومجتمعى، وربما يكون لدى تقنيات أخرى أكثر تجاوباً مع ثقافة هذا المجتمع . سأضرب لك مثلاً باستطلاعات الرأى أو مناهج الاحصاء، هل تعتقد أن المواطن المصرى والعربى يكشف عما لديه من آراء وأرقام ؟

● بسبب الإرهاب .

◆ لا، هناك أكثر من سبب . . لكنى أريد من خلال هذا المثل الإشارة إلى أن ما قد يكون صالح هنا قد لا يكون صالحاً هناك .

● فى كل قضية أعرضها، تذهب لتنفيذها من وجهة نظرك، تقول استطلاع الرأى غير ممكن وتنسب الأسباب التى تجعل ذلك غير ممكن . أنا أسألك سؤالاً محدداً، ما الأسباب التى تجعل الناس يخفون آراءهم، أو يقولون الشيء الذى يريده السائل وليس ما يريدون قوله حقاً .

- ◆ الاسباب كثيرة ولا يمكن حصرها في سبب واحد، منها النفس، ومنها الثقافي، ومنها التشكك في قيمة وجدوى مثل هذه الاستطلاعات، والتشكك بها .
- لماذا ؟ لأن كل مرة يستدرج فيها المواطن للحوار يكون ذلك وسيلة إلى القبض عليه ..
- ◆ إذا كان هذا هو واقعي، وأنا أعمل على تغييره، فإنه من الضروري أن اعتمد على تقنيات من هذا الواقع .
- ليس بالضرورة، أنا أتكلم عن مبادئ هامة . أتكلم عن الحوار، هل هو الوسيلة الأسلم لضمان صيانة المجتمع ؟ هل تأخذ بمبدأ الحوار، أم الصوت المنفرد؟
- ◆ نعم، لكن كيف نؤسس هذا الحوار في ظل شروط المجتمع القائمة وتاريخه ومقوماته الرئيسية، هذا هو السؤال الصعب !؟
- هم قاموا، في الغرب، بشورات وحروب أهلية إلى ان انتصروا، وكانت لديهم ديكتاتوريات فظيعة إلى أن انتصرت فكرة الحوار على أنقاض الأنظمة الإقطاعية والارستقراطية والإرهاب والظلم والحكم المطلق .
- ◆ وفقا لمنطق كلامك، الآن، فإن هناك غريبا له سماته وتاريخه، وهناك ثقافات أخرى غير ذلك .
- ثقافات أخرى ! أين هي ؟ وماذا يمكن أن تأخذ منها اليوم إذا كنت تتحدث عن الحصيلة المتبقية من هذه الحضارات والثقافات .
- ◆ أريد التأكد أولاً إذا كنت تتفق بشأن وجود ثقافات مختلفة وحضارات مختلفة .
- هناك مستويات مختلفة للحضارة . فأرقى مراحل في الحضارة الإنسانية ينتقل إلى الحضارة التالية لها، ويستوعب كل هذه الطبقات من الحضارات السابقة، فالحضارة

الغربية الآن ليست إلا الحصيلة النابعة من التجربة الإنسانية منذ أيام الفراعنة وما قبلها . وكل ما هو إيجابى فى الفنون والعلوم هو عبارة عن تركيب من كل ما هو إيجابى فى الحضارات السابقة . هذا هو رأى ، لذلك ليست لدى عقدة بالنسبة للموسيقى الغربية ، التى هى ملك الغرب كما هى ملك لى ، كذلك الفتوحات العلمية . فانا لفترة طويلة ، نظراً لظروف التخلف وأسبابها ، ليس لى نصيب فى الحضارة الحالية . هذه هى المشكلة

◆ أنت تصف غرباً متقدماً مادياً وفكرياً ، وفى الجهة الأخرى يقع الشرق فى تخلفه ، ما هى حدود التعايش والاختلاف ، فى هذه الحالة ، بين الثقافة الغربية والثقافة العربية ؟

● عندى ليس هناك فرق بين المدنية المادية (الأكسية) وبين المدنية الفكرية لأنهما جناحان لنفس الشئ ، لأنه من العبث أن تقول لى إن من يتعاطى الحشيش يمكن أن يقود طائرة ، لأن الإحساس بالزمن مختلف . ولك أن تتخيل من خلال هذا المثال حدود وإمكانات التعايش والاختلاف .

◆ إذا كنت ترى أن مجتمعات الشرق متخلفة ، وليست لديها الإمكانيات لصنع المدنية المادية كما ذكرت ، وأنها لا مفر أمامها من التعامل مع هذه المدنية ، لكن لماذا تريد سحب هذا الموقف على الجزء المتبقى لنا من التاريخ ، ومن قيمنا وأخلاقنا ؟

● أنت تتحدث عن أى قيم ؟ الآلة نفسها لها روح ، ولا يمكن أن تفهم معنى السيارة أو الطائرة إلا إذا كانت عقليتك ونفسيك يتوفر بهما إحساس : الزمن مغاير للإحساس التقليدى الموجود عندنا ، عندما يتفق شخص مع آخر ، فى بلادنا ، على تحديد موعد يقترح عليه الالتقاء «بعد الظهر» فى مقهى كذا ، وبعد الظهر يتضمن مساحة كبيرة من الزمن . انعدام الإحساس بالزمن هذا هو من العلامات التى تربطنا بالقرون الوسطى ، وتمنع عبورنا إلى المجتمع الحديث .

- ◆ كيف تنظر إلى مسألة البحث عن الهوية، النافعة الانتشار في الفترات الأخيرة .
- هذا البحث قائم على حالة من الضياع . نحن نتكلم عن الهوية كأننا أولاد سفاح، هذه حالة من يبحث له عن أصل . هذا الموضوع لا يؤرقنى لأننى أعرف من أنا .
- ◆ أنت تعلم أن الناس تبحث الآن، فى أماكن كثيرة، عن الهوية والذاتية.
- هذا هو الاستعمار، وهذا هو عصر الانتكاس .
- ◆ ولماذا لا تقول إنها حالة من اليقظة، ومحاولة لترشيد تعاملنا مع هذه الحضارة وحدود ما يبقى لنا أثناء وبعد طرق التعامل مع هذه الحضارة ؟
- ماذا يبقى لنا ؟ ماذا تريد ؟ عن ماذا تبحث ؟ أنت لا تعرف عن ماذا تبحث ؟!
- ◆ أنا أبحث عن الملامح الوطنية والذاتية التى غابت من مجتمعاتنا ؟ وأبحث عن أسباب ومبررات هذا التغييب .
- من الذى يقول هذا الكلام ؟
- ◆ أنا الذى أتحدث معك .
- لا، هذا كلام جاك بيرك وبقيّة المستشرقين .
- ◆ أنت تعلم جيداً أن جاك بيرك لا يقول هذا الكلام .
- لا، بيرك هو الذى ابتدع الحديث، فى مصر، عن الأصالة والمعاصرة، أبحث لى عن الأصالة اليوم أين تجدها فى مجتمعاتنا ؟
- ◆ أنت نفسك جزء من هذه الأصالة . ألسنت قبلياً وتحمل فى داخلك تراثاً ما؟
- لماذا تقول قبلياً ؟ هل لم تر فى غير ذلك ؟ أنت تكرر كلام اليمينيين والمحافظين فى مصر الذين كلما تكلمت عن الحضارة الغربية، قالوا إنه مسيحي .

◆ عندما وصفتك بأنك قبطى، كان ذلك رداً على سؤالك، ولم يكن وضحى يحمل صفة سلبية، وإلا لما كان هناك مصداقية لهذا الحوار منذ بدايته . عندما قلت ذلك فأنا أعنى خصائص ومقومات معينة للأقباط، أليس هناك مرحلة قبطية فى تاريخ مصر قبل أن تعمقها مرحلة إسلامية لها خصائصها ومقوماتها، وليس هذا القول من قبيل الذم وإنما من قبيل وصف ما هو موجود . ألا توجد كنيسة شرقية مختلفة عن الكنيسة الغربية ؟

● ماذا تعنى الكنيسة الشرقية ؟!

◆ يبدو لى، من خلال معلوماتى المتواضعة، أن هناك ما يسمى بالكنيسة الشرقية الأرثوذكسية وهى مختلفة إلى حد ما عن الكنيسة الغربية الكاثوليكية، وهناك تاريخ قديم لهذا الانقسام .

● أسأل أى قبطى ماذا تعرف عن الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية ؟ ماذا يعنى هذا الكلام ... فكرة الأرثوذكسية القبطية هى مفهوم لاهوتى نشأ فى القرن الثالث الميلادى عندما حصلت المجامع الدينية وحصل خلاف حول علاقة الأب بالابن بالروح القدس، وكانت هذه هى الفتنة الكبرى فى العالم المسيحى، ومن هنا نشأت الكنيسة القبطية الأرثوذكسية التى تقول بالطبيعة الواحدة للمسيح، فالغرب يعتبر أننا كفار لأننا نقول لا يوجد شيء اسمه لاهوت وشيء اسمه ناسون وإنما طبيعة واحدة للمسيح .

◆ حسناً أليست هذه ملامح ذاتية وملامح اختلاف مع الغرب .

● ليست ملامح ذاتية وإنما فكر فلسفى ... أنا لم أكتشف هذا إلا وأنا عمري ٣٥ سنة، فهذا التراث الذى تتحدث عنه ليس تراثى، بل طقوس شبيه بطقوس السحرة ... عندما تقابل بروتستانتى وتساله ماذا يعنى لك كالفن ولوثر أو كنيسة إنجلترا يجيبك كذا وكذا، وعندما تسأل قبطياً ماذا تعنى لك كلمة الأرثوذكسى والأرثوذكسية لا يعرف... إنها مسألة طقوس ...

◆ كائنك تصر على رفض الاختلاف والتمايز عن الثقافة الغربية على كل الأصعدة بما فيها الصعيد الدينى، وكائنك غير مقتنع بانقسام العالم إلى حضارات وثقافات مختلفة ؟

● أنا لا أشعر أنتى " خواجة " ، وإذا كان هناك أى إنسان يستطيع أن يقول أنا مصرى فهو أنا، ولا أشعر بهذه " العقدة " التى تعمل منها قضية البحث عن الذات . تريد أن تبحث عن الذات ... ابحث عنها وسنرى .

◆ كيف تنظر إلى المجتمعات والثقافات الغربية باتجاهاتها المتقدمة والحديثة والعلمانية والتى تبحث بدورها عن ذاتها، وتحاول حماية ثقافتها من الغزو الخارجى، وليس فقط من تصفهم بالتيار المحافظ لدينا الذى يقيم الحواجز ويخلق الحدود .

● هم يقومون بذلك عن طريق الحوار . هل تفعل ذلك أنت ؟ فى هذه البلاد الأوروبية التى تتحدث عنها، يحدث دائما فى كل فترة تاريخية حوار بين أنصار القديم والحديث، ويتنصر أنصار الحديث أو يحدث تأليف بين الاثنين بينما فى بلادك لا يحدث ذلك تعرف لماذا ؟ لأن فكرة التأليف غير واردة، ولأن النخب المتأثرة بالثقافة الغربية لا تريد ذلك وتريد طمس كل ما يتعلق بتراث هذه الأمة وتاريخها .

● هذا غير صحيح، الاتجاهات الرجعية الضارية هى التى تجهض كل محاولات الانتقال إلى الحديث والتقدم، ما نقوله محض اتهام من جانبك ؟

◆ سيدى أنت تذهب بعيداً فى تحميل التيار المحافظ المسؤولية كلها وتبرئ التيار المتغرب إلى درجة غير مسبوقة فى أى ثقافة أخرى .

● أنت سعيد بالقديم، فلتبق معه .

◆ ليس هذا ما أردت قوله، أنا غير سعيد بالقديم البالى والمتزمت، وأبحث عن التغيير للأفضل، لكن عندما يأتى فريق ويتغافل عن خصائص ومقومات المجتمع الذى يعيش فيه فأنتى أشعر بأنه مسؤول إلى حد كبير عن الحالة الراهنة .

● أنا لا أرى ذلك، أنا أرى الغلبة للفكر اليميني المحافظ، وأحملة المسؤولية كاملة .

◆ أنت لا تغضب بنفس القدر من النخب المتغربة في بلادنا رغم أنها تتحمل مسؤولية أكبر فيما وصلنا إليه من أحوال بسبب ابتعادها عن التأليف الوطني الحقيقي ...

● خلاصة الأمر . أنك في مجتمع فرنسي لن يعترف بأنك جزء منه . وهذه عقدة جميع المثقفين المصريين في الخارج، أنور عبد الملك لم يقبل تماما رغم إقامته المديدة، وأنت تستفيد من انجازات الحضارة الغربية ولا تريد العودة إلى البلاد بينما الرجل الذي يكلمك الآن عن ظروف التحديث مقيم هناك في أسوأ الظروف وليست لديه النية في مغادرة بلدة إلى أوروبا أو أمريكا رغم أنه تأتني عروض للبقاء هناك . وأنت من المستفيدين هنا ولديكم نوع من الحنين إلى مجتمع وهمي وأنتم سعداء بذلك ! ماذا أقول لكم ...

◆ قمت بإجراء حوار مع المستشرقين الفرنسيين استمر عامين، وكان من بين القضايا الجوهرية للحوار أنهم يبحثون عن الدراسات والمعلومات المتعلقة بمجتمعنا لكنهم لا يسمحون لنا بدراسة موضوعات غربية . بعضهم اعترف بذلك وبأن هذا جزء من سياسة تعليم غربية، البعض الآخر قال هذه مشكلتكم ؟ بعضهم قال لماذا لا توجد دراسات شرقية عن الغرب . هل نحن مسؤولون عن غياب هذه الدراسات ؟

● المسؤولية تقع عليهم هم . هل اهتم غربي بأعمالى عن الغرب ؟ هل حاول أن يدرس رؤية حسين فوزي للغرب ؟ كتابي "مقدمة فى فقه اللغة العربية" لم يتناوله مستشرق واحد بالتعليق قبل أن يصادر، لم يعلق واحد منهم على الكتاب بكلمة واحدة، لأنه يحتوى على نظرية من أخطر النظريات . هل هناك شيء أهم من أنك تقول له أن اللغة العربية تنتمى إلى نفس المجموعة الهندوأوروبية التي ينتمون إليها، هذا اكتشاف قارة

بأكملها ولم يحظ باهتمام أحد منهم . وفي كتيبي الأخرى عندما درست ابن خلدون وحاولت الربط بينه وبين دانتى وغيره من المفكرين الغربيين هل اهتم أحد منهم بذلك ، كتبت عن المعرى وفكرة العالم الآخر ، وحاولت أن أربط بينها وبين بعض مفكرى أوروبا هل اهتم أحد منهم بما فعلت ؟!

◆ إذا تجاوزنا الإهمال الذى تتعرض له كتاباتك وكتابات حسين فوزى عن الغرب هل تعتقد أن لدينا تراثا بحثيا عن الغرب ؟ هل هذا قصور من جانبنا أم أن ميزان القوى لا يسمح بإنجاز مثل هذه الدراسات .

● هو من البداية يريد أن تظل فى عالمك ، وتتوقع داخله ولا تخرج منه ، ويقول لك فلتبتعد عني ولتظل فى عالمك ، وفى كل مرة تحدث شرارة الاتصال بين مجموعتنا البشرية ومجموعته يقضى عليها بالفشل . هو يريد أن أبقي خادماً له ، كى أعطيه ما يريد ، هو يريد إقامة حائط أو عازل لا يسمن عبوره بينك وبينه . فى أمريكا يقسمون الناس إلى مجموعات إنتبه ، يطلبون من الجاليات الموجودة التمسك بثقافتها القومية : عرب أمريكا ، أرمن أمريكا ، زنوج أمريكا ، والغرض من ذلك فى النهاية هو أن تظل أمريكا للأوروبيين الأنجلو ساكسون . . . فعندما يشجعون كل جماعة على التمسك بثقافتها القومية الموجودة ينتهى ذلك فى نهاية الأمر إلى الابتعاد عن مجال التأثير فى الثقافة الأمريكية ، لأن هذا الأمر هو من اختصاص الأصلاء ! وفى فرنسا يقيمون من وقت لآخر مؤتمرات للمسلمين الفرنسيين . ما معنى هذا ؟ هل أنت فرنسى أم غير فرنسى ، لماذا يصرون على التمييز بين المسلم الفرنسى والمسيحى الفرنسى ، هل يريدون أن تستمر فى اطار الحديث فى افق معين وتصبح مواطناً من الدرجة الثانية . . حتى لو منحك الجنسية وحقوق المدنية العادية ، لكنه يشعر دائماً أنك غير فرنسى ، وفكرة الشرق شرق والغرب غرب ، جزء لا يتجزأ من تفكيرهم . أنا أعرف جيداً الغرب وليست لدى أوهام عن المجتمعات الأوروبية .



محمد عزيز الحبابي
لدينا الاستغراب الملائم لنا

من الشخصية الواقعية إلى الشخصية الإسلامية إلى "الغدية" (علم المستقبل) قطع محمد عزيز الحبابي مسيرة من التامل الفلسفي تعتبر من العلامات البارزة في الفكر العربي المعاصر . ومحمد عزيز لحبابي معروف أيضا بكتاباتة الادبية التي صدرت باللغتين الفرنسية والعربية .

ومحمد عزيز الحبابي مفكر جسر ، لا ينساق بسهولة وراء الموضوعات الثقافية والفكرية التي تشيع في فترة ما تم سرعان ما تخبو ، فهو في كتابه الرائد و «حرية أم تحرر» - الصادر بالفرنسية عام ١٩٥٦ - يتجاوز النظرية التي تجعل من الحرية مجرد حرية ذاتية محضة خالية من أى محتوى مجتمعي وتاريخي ، ويدعو عوضا عن ذلك إلى فكرة التحرر التي تحتوى على كل الحريات وتتجاوزها وتغيرها من حيث الكم والكيف في وقت واحد .

وعندما صارت الشخصية - كمنهج فلسفي - حديث الدنيا ، وبدأ المفكرون يتبنونها من هنا وهناك ، كان لمحمد عزيز لحبابي موقف متميز في كتابه «من الكائن إلى الشخص - دراسة في الشخصية الواقعية» ، وكتابه الشخصية الإسلامية» لم يكن مقلداً كغيره لأراء بعض المفكرين الفرنسيين وإنما صاحب وجهة نظر مبدعة وأصيلة .

ومحمد عزيز الحبابي من المفكرين العرب الذين شنوا حملات شعواء على الأفكار المسبقة بوصفها عدوة الشعوب والثقافات الوطنية وعدوة الحضارة الإنسانية وحاربها في الشرق كما في الغرب . وكان كتابه «من المغلق إلى المنفتح - عشرون حديثا عن الثقافات القومية والحضارة الإنسانية» - الصادر بالفرنسية عام ١٩٦١ - هو أقرب كتبه لموضوع كتابنا «من نقد الاستشراق إلى نقد الإستغراب» حيث يرى الحبابي أننا نتكلم عن الثقافات القديمة والثقافات الشرقية أو الغربية استجابة لمقتضيات تعبيرية بينما الواقع الذي نحياه هو أن الاختراعات والاكتشافات، مهما اختلفت، والأبحاث والتجارب بكل أنواعها ، لم تعد تحمل الطابع الإقليمي ، بل ترمى كلها إلى إغناء الذخيرة العالمية ، عن طريق إثمار الحصيلة الثقافية الوطنية، وكل قارة تسهم بقليل أو

بكثير فى هذا التيار المولد لحضارة القرن العشرين .

وكنا نود أن نبدأ حديثنا مع الحبايى من هذه النقطة لولا أنه من المرشحين العرب لجائزة نوبل - مع أدينا نجيب محفوظ - لذلك بدأنا الحديث المسجل معه بداية تتعلق بهذه المناسبة وإن لم تتعد كثيراً عن قضيتنا الرئيسية .

◆ لماذا لم يحصل أديب عربى على جائزة نوبل حتى الآن ؟ هذا السؤال طرح مراراً، وهناك قناعات لدى الكثيرين بأن منح هذه الجائزة يخضع لضغوطات واعتبارات سياسية، لكن مع الإقرار بذلك مسبقاً هل تعتقد أننا أضفنا شيئاً نستحق به الجائزة ؟! وهل أعطينا اليوم إلى ثقافات العالم وآدابه ما نستحق به هذا التقدير العالمى ؟

● أنا لا أعرف كل الذين ينتسبون فى العالم العربى فى مجالات الفكر والأدب والفلسفة ، لكننى أتذكر أن اسم طه حسين قد رشح فى الماضى لنيل هذه الجائزة، لكنه على ما يظهر إن «عميد الأدب العربى» ، وما أتى به قد أسهم فى تطور النقد العربى ، لكن بالنسبة للفكر الإنسانى فى شموليته ، فإن طه حسين فى نظر البعض لم يقدم الكثير ، وأنا إذا سألت نفسى من يستحق هذه الجائزة لقلت كامل حسين فى روايته «قريّة ظالمة» . فى الحقيقة أعطى كامل حسين بعداً إنسانياً حقيقياً كان يستحق أن يحصل به على هذه الجائزة لأن روايته كانت تلائم الاتجاه العام الذى من أجله أسست الجائزة . إنها رواية جيدة تمتلئ بمضامين عالمية شاملة عن العدل والمحبة . . . وفى اعتقادى أنها أحسن ما كتب باللغة العربية فى هذا القرن .

◆ ماذا عن ترشيحك أنت إلى هذه الجائزة ؟

● فى الواقع تقدم بترشيحى إلى الجائزة أجنب . وقد تم قبول هذا الترشيح ، وهذه هى المرة الأولى باستثناء السادات التى يفتح فيها الباب امام العربى ، وهذا هو المهم ، ليس المهم من سيأخذ هذه الجائزة مغربى أو جزائرى أم تونسى أم مصرى . . . هذا لا يهم . . . المهم أنها خطوة أولى ينبغى أن تتبعها خطوات أخرى .

◆ عندما تمنح هذه الجائزة إلى أديب فى الشرق أو الغرب فإن أول تساؤل يخطر بالبال هو تساؤل عن الامبياب أو المبررات التى بمقتضاها حصل هذا الاديب على الجائزة . فما هى الإضافة التى قدمها المرشح العربى لتل هذا التقدير خاصة أنك مرشح لها

١٩

● إذا تحدثت عن نفسى فانا أشير فقط إلى أن : الشخصية الواقعية التى دعوت إليها يوماً قد كتبت عنها اطروحات كثيرة وحدثت حولها ضجبات فكرية والآن تشكل دعوتى إلى «الغدية» - من الغد - تياراً جديداً على المستوى الإنسانى أيضاً ، هذا من الناحية الفكرية أما من الناحية الأدبية ، وبصفة خاصة أشعارى التى نشرتها بالفرنسية كان لها صدى كبير ، ولا أدرى امن أجل الشعر الذى كتبت أم القصة أم الرواية أم الفلسفة تم ترشيحى . المهم أن مجموع هذه الأعمال نال إعجاب بعض الناس هنا أو هناك . لكن ما هى الإضافة التى قدمتها أعمالى ، وما هى قيمتها ومستواها الإبداعى ، أنا لا أستطيع أن احكم على ذلك ، إنه خارج نطاقى فانا لا يمكن أن أكون حكماً ولاعباً فى الوقت نفسه ، فعندما تبدأ المباراة فإن الحكم حكم واللاعب لاعب . . . أليس كذلك ؟!

◆ بما أنك ضربت مثالا من عالم «الكرة» فانا أريد أن أسالك سؤالاً بدورى لكن بمصطلحات هذا العالم «الرياضى» أيضاً : أى رى ترتدى ؟ وهل ستمنح لك الجائزة بوصفك مفكراً عريياً ، إسلامياً ، عالمياً أم كل ذلك معا وبنفس القدر؟! باختصار أين تضع نفسك فى الساحة الثقافية الموجودة فى العالم اليوم؟!

● هذا سؤال لا أطرحه على نفسى ولم أفكر فيه يوماً أنا أنفعل بأوضاع معينه وأنفعل معها وأفكر فيها . أحيانا تكون على مستوى المغرب وأحيانا تكون على مستوى العالم العربى وأحيانا تكون على مستوى العالم . . وأينما تريد أن تضعنى ستجدنى .

◆ أنت إذا موجود فى كل مكان ؟!

● لم أقصد هذا . ما اعنيه هو : إذا كان المعيار هو الواقع المغربى فستجد عندى

جوانب تؤكد أننى مغربى صميم .

◆ لكن فى مجال الثقافة يمكن الحديث عن شخصية غالبية وليس جوانب متباعدة فى ما بينها ؟ اليس هناك من هو فرنسى الثقافة والجنسية ؟

● أنا مزدوج اللغة والثقافة فأنا أكتب بالفرنسية كما أكتب بالعربية وكل ما كتبه بالفرنسية انتقل إلى اللغة العربية وهكذا . . .

◆ فى أية لغة تجد نفسك أكثر ، العربية أم الفرنسية ؟

● هذا يعود إلى الإنطلاقة الأولى . فعندما اسمع لفظة عربية فقد توحى إلى بأن أكتب باللغة العربية وأحيانا اسمع كلمة فرنسية فتوحى لى بأن أكتب باللغة الفرنسية . ليست لدى قواعد ثابتة مسبقة فى الكتابة بهذه اللغة أو تلك . فالإبداع يكون وليد ظروف خاصة .

◆ بوصفك مرشحا لجائزة نوبل ، وبوصفك مزدوج اللغة والثقافة أيضا ، هناك تساؤل يتردد كثيرا فى الغرب عن الإسهامات والإضافات التى قدمناها إلى ثقافة العالم اليوم ، ومفاد هذا التساؤل هو أن الشرقيين والعرب يتتقدون رؤية الغرب لهم - الامتشرق - ومن دون أن يكون لديهم دراسات شرقية عن هذا الغرب . كيف تعلق على هذا التساؤل ؟

● أنا أتفق مع هذا التساؤل فى جانب واختلف معه فى جانب آخر وأقول : إذا كانت دراسات المستشرقين لا ترضيكم أيها العرب والمسلمون فلماذا لا تقومون أنتم بتحليل أوضاعكم ودراسة آثاركم وتراثكم ؟ وإذا كانت تلك الدراسات الغربية لا تتضمن رؤية موضوعية فلماذا لم تبدعوا أنتم الموسوعة الإسلامية والعربية لبلادكم . نعم نحن ننتقد الآخرين ونسئ أن نقوم بالنقد الذاتى لئلا نرى عيوبنا ونعمل على إصلاحها ، ولكى نسجل ما يستحق أن يسجل ونعارض ما يستحق أن يعارض من تاريخنا ، فمن لا يكون موضوعيا عندما يحلل أوضاعه لا يمكن أن يكون محل مصداقية عند الآخرين عندما

يتكلم عن الأشياء الإيجابية لديه ، ومن جهة أخرى فإن المستشرقين ليسوا مدرسة واحدة ، هناك مدرسة أسست لتهمى طرقاً للاستعمار وهناك مدارس أسست من أجل البحث عن المعرفة والحقيقة ، لذلك حينما نحاكم الاستشراق علينا أن نفرق بين مستشرق ومستشرق ، أما أن نطلق أحكاماً عامة على الاستشراق فهذا ليس إنصافاً وليس وسيلة إلى بلوغ الحقيقة . أما ما اختلف فيه مع هذا التساؤل هو أننا لدينا استغراب ، وهناك محاولات لدراسة الغرب ، لكننا لا ندرسه برمته بل نختار منه ما يلائمنا وما لا يمكن أن يكون استلاباً لنا ، بالطبع ليس كل الذين درسوا في الغرب واطلعوا على مجريات علوم الغرب يقومون بهذا الاستغراب لكن اعتقد أنني شخصياً أصدرت كتاباً بالفرنسية بعنوان : "عالم الغد" . . . العالم الثالث يتهم . في هذا الكتاب أظهرت الجوانب السلبية التي وجدناها في الغرب والتي عرقلت مسيرتنا التاريخية ، كذلك أصدرت في كانون الأول (ديسمبر) الماضي بالفرنسية كتاباً بعنوان : «أزمة القيم» ، وكان ينبغي أن يصدر هذا الكتاب باللغة العربية عن دار «المعارف» منذ سنوات ، لكن النص الفرنسي صدر ، ولا أعلم متى سيصدر النص العربي . وفي هذا الكتاب دراسة ونقد للأسس التي قامت عليها حضارة التصنيع المعاصرة والتي باسمها جاء الاستعمار إلى بلادنا ليحدثنا ويدفع بنا إلى طريق المدنية !! ولكن القيم التي بنى عليها الغرب حضارته أصبح هذا الغرب ينتكر لها اليوم ، وبالتالي فقد الحق في دعواه بأنه يحضر الإنسانية وأنه يقدم الحضارة مملوءة بالخير والسعادة . كيف يحق للغرب اليوم أن يقول ذلك وهو ليس سعيداً ولا متمتعاً بخيرات حضارته . إنه يتخبط في السلبيات ، في الأزمات ، وكل أزمة تجر أخرى ، وهكذا لم يعد الغرب يثق بحضارته . إنه الآن في مفترق طرق ويبحث عن البديل ، هل سيجده ؟ لا أدري ، وهو نفسه لا يدري هو يتساءل الآن : كيف الخروج من المأزق ؟ . . . عندي كتاب آخر سيصدر قريباً بعنوان : «أزمة النماذج» وهو أيضاً دراسة للنموذج الغربي وأطرح سؤالاً : هل ما زال الغرب صالحاً لأن يقتدى به كنموذج أم لا ؟! فالغرب يعيش في أزمة أخلاقية ونفسية واقتصادية ولا يجد حلاً لمشكلاته . إذاً كيف يكون الغرب ؟ ما هي القيم التي ينبغي أن نبني عليها حضارة ما بعد التصنيع أما كتابي

الذى سبلى ذلك فأعطيته عنوان : «من أجل مقولية جديدة» والمقولية كلمة مصطنعة ..
لا توجد فى القاموس الفرنسى .

♦ ولا العربى أيضاً !!

● وأريد فى هذا الكتاب أن يعاد النظر فى مقولات العقل البشرى . وفى هذا الكتاب تناولت أكبر المفكرين الغربيين أمثال ديكارت ، كانت ، لايتنيز . اسبنوزا . وأظهرت أن مقولات هؤلاء الفلاسفة مليئة بالتناقضات والعيوب التى يتهمون بها عقلية العالم الثالث . فالغرب يتهم عقلية العالم الثالث بأنها تفكر تفكيراً ناقصاً لاعتمادها على معتقدات لا عقلانية ، وأن الغرب هو صاحب العقل والعقلانية ، فأظهرت أن اللاعقلانية عنصر يستلزمه وجود العقلانية وأعطيت أمثلة عديدة على ذلك من قلب الفكر الغربى وأبدت بطريقة أخرى كيف نتصور نحن العقل ، وأننا لا يمكن أن نعتقده كمطلق لأنه لا يوجد عقل مطلق ، فالعقل محدود ويجب أن نعترف بمحدوديته . وكتبى الأخرى هى بصورة أو بأخرى دراسات حول هذا الغرب ...

♦ ألا تعتقد أن هناك عودة إلى الحديث عن الغرب والثقافة الغربية فى مقابل الشرق وثقافة الشرق أو الثقافة العربية ...

● أنا لا أظن أن هناك عودة إلى هذه القضية ، بل أقول أنه لا وجود لها أصلاً. هناك غرب غير متحالف مع نفسه ويتناقض مع نفسه وكل بلد من بلدانه يتجسس ضد الآخر . وهناك مزاحمة على الأسواق الاقتصادية ، وهناك حروب اقتصادية ، وهناك حروب اقتصادية صامتة بين بلدانه ، والمثال الدولار الذى يصعد ويهبط أبلغ دليل على ذلك . أضف إلى ذلك أن اليابان بلد متقدم صناعياً ، ومع ذلك ليس غرباً ، كذلك كوريا الجنوبية وتايوان . إذا القضية لا يمكن حصرها بشرق فى مواجهة غرب ، لكنها قضية صراع بين أمم على السيطرة واستغلال مناطق جديدة .

♦ إذا كان هذا هو الأمر يبين الدول الغربية ذاتها فما الذى يمنع فى هذه الأجواء أن

يتمد الصراع إلى بلدان الشرق الضعيفة ، ولماذا تفضل كلمة العالم الثالث على الشرق أو العالم العربي ؟

● أنا أفضل كلمة العالم الثالث لأنها تتضمن أبعاداً أكثر اتساعاً وتشمل دولاً مختلفة تجمع بينها أشياء كثيرة ، من بينها أنها كانت أرضاً مستعمرة فيما مضى .

◆ ألا تعتقد أن استخدام كلمة الشرق قد يتضمن الأبعاد الثقافية لهذا الصراع والتي قد لا تبدو واضحة عندما نستخدم تعبير العالم الثالث ؟

● لا أفضل كلمة الشرق لأنها كلمة غامضة ولأن اليابان شرق كما قلت وكوريا الجنوبية شرق لكن ، العالم الثالث ينطوي على آمال وآلام مشتركة ، فالتناقض هو بيننا كعالم ثالث وبين الغرب المهيمن والذي يريد موادنا الأولية وخيراتنا ليأخذها ثم يبيعها لنا بثمان أعلى لا تقدر عليه في ما بعد .

◆ ما زلت ألح في السؤال على موقع الثقافة في هذه العملية ، إذ لم يعد يفيد كثيراً أن يقاوم المشفقون مشروعات الاستغلال والهيمنة طالما أن أبعاد هذه الثقافة التي تقاوم غير محددة المعالم . فآية ثقافة عربية تقصد ؟ وما هي حدود افتراقها أو تعايشها مع الثقافة الغربية ؟

● في هذا الشأن أصدرت كتاباً بالفرنسية بعنوان : «من المنغلق إلى المنفتح أحاديث عن الثقافات الوطنية والحضارة الإنسانية» . وقد استخدمت ثقافات بالجمع والحضارة بالمفرد ... فكل شعب له ثقافته ، وهناك ثقافات وطنية عديدة ، لكن هناك حضارة واحدة هي التي تصب فيها كل الثقافات الوطنية ، وأنا أقول ليس من حق الغرب أن يدعى أنه الحضارة . فالشعوب التي تعطى اليوم بكثرة لهذه الحضارة ، لم تكن في ما مضى هي التي كانت في مقدمة العطاءات الإنسانية وقت أن كان هناك السومريون والفراعنة والفرس . أمريكا لم تكن موجودة في العالم عندما كان العرب يعطون الحضارة إلى العالم ... فالشعوب التي تعطى اليوم أكثر ، إنما تعطى في نطاق تراكم من

العطاءات السابقة عليها ، وبالتالي الحضارة هي مجموع هذه العطاءات وليست ملكاً للغرب وحده .

◆ الطريقة التي أدركت بها ثقافتنا الغرب منذ عصر النهضة حتى اليوم ، هل كانت صائبة وحقيقية دائماً أم أن الأوان كى نبدأ مرحلة جديدة فى إدراك الغرب وثقافته المتنوعة ؟

● قبل أن أجيب عن هذا التساؤل أريد أن أعرف عن أى نهضة نتحدث ؟ ومتى نهضنا نحن ؟ وما هي مظاهر هذه النهضة ؟ كنا مستخلفين ومارلنا ، وما زالت الأمية هي السائدة بيننا ، كانت لدينا صحافة منذ فترة طويلة لكن هل هذا الحديث عن وجود صحافة كاف للحديث عن النهضة . فإذا لم تشمل النهضة كل الشعوب فإنها ليست نهضة . فمن نهض فى هذه الحالة ؟ حفنة من البشر يقضون يومهم فى الكلامولوجيا - أى الحديث الرائع المنغم - ثم ماذا بعد ذلك ؟ ماذا بيننا؟ متى سددا ديوننا ؟! الأمية كيف حاربتها ؟ بعض دولنا قطعت بعض الخطوات لكنها لم تغلب على كل العقبات ولم تدخل عتبة التصنيع . شيدنا بعض المصانع لكننا لا نزال نستعين بالخبرة وبرؤوس أموال أجنبية .. النهضة تبدأ حينما نقضى على مدن الصفيح ، وحين نمحو الأمية ، وعندما يكون كل أطفالنا فى المدارس . وعندما تكون هناك مستشفيات فى القرى كما فى المدن وحينما تتمكن من توظيف ثرواتها لصالحنا ... هذه هي النهضة أما أن نقول جاء إلينا نابليون حاملاً معه المطبعة والعلماء فبدأت فى أعقاب ذلك النهضة ، فانا لست متأكداً من ذلك .

◆ أنت ترى أن النهضة لم تتحقق بعد وتدعو إلى تحقيقها وأنا أسألك فى هذا النطاق أيضاً عن الكيفية التي أدركنا بها الغرب منذ قرنين من الزمان . اليوم ماذا نقول عن هذه المسيرة من إدراك الغرب ؟

● البعض منا - وهم الأقلية - أدرك الغرب أحسن إدراك لكن الجماهير لا تعرف عن

الغرب إلا المظهر الذى يجعلها منبهة به .

◆ وكثير من المثقفين أيضا ؟

● نعم هناك الكثير من المثقفين يقلدون الغرب تقليدًا أعمى وأصبحوا يؤكدون ما قاله ابن خلدون من أن المغلوب يقلد الغالب فى عاداته وأعرافه ، ولدينا فعلا من يقلد الغرب ويأخذ عنه حسنه وسيئاته . بينما كان علينا أن نأخذ ما يمكن استثماره لبناء الحاضر والمستقبل وأظن أننا على عتبه الدخول إلى مرحلة الإدراك السليم حقا وليس مجرد الكلام الإنشائي العابر ...

◆ بوصفك أحد المشتغلين البارزين فى حقل الفلسفة فى العالم العربى - ثمة قضية أثرتها واستجوبنا حولها بعض المفكرين العرب تدور حول تساؤل بسيط ومزعج فى الوقت نفسه وهو : لماذا لا يوجد فلاسفة عرب اليوم ؟

● فى الواقع عندنا أستاذة كبار فى تدريس الفلسفة ، وعندنا محققون للتراث الفلسفى العربى الإسلامى وعندنا باحثون فى تاريخ الفلسفة الغربية ، أما فلاسفة عرب لهم فلسفة ونسق وطرق جديدة من البحث ، فاطن أن الجيل الحالى يبحث عن ذلك وسيصل لا محالة ، على الأقل من بين الذين تعرفت إليهم فى الجامعة المغربية وفى مصر . هناك مؤشرات تبشر بمستقبل واع لكن حاليا على ما أعلم - والمرء يعلم أشياء وتغيب أشياء أخرى - لا يوجد فلاسفة عرب معاصرون .

◆ فى لقاءات سابقة مع بعض المفكرين العرب كانت إجابات بعضهم تسم بروية دفاعية وتقول لدينا فلاسفة وتذكر بينهم اسمك وفؤاد زكريا وعبد الرحمن بدوى ... كيف تعلق على هذا ؟

● فى هذا المعنى يمكن أن أشير إلى أسماء كثيرة ، من حيث المنطق هناك زكى نجيب محمود ومن حيث التفكير الفلسفى هناك فؤاد زكريا وحسن حنيف وآخرون ،

وهناك الجابري الذي يعمل فى مجال الفكر الإسلامى من خلال منهج علمى مقتدر يسعى إلى تجديد كيفية التعامل مع التراث العربى . وهناك طه عبد الرحمن الذى يقتبس من المنطق العربى القديم ويعمل من أجل منطق جديد وكذلك على أواميل . . .

◆ هل تعتبر هؤلاء فلاسفة أم مفكرين ؟ أم ماذا ؟!

● أنهم يفكرون ويبحثون ، ولا محالة أن بعضهم سيصل إلى تحديد فلسفة جديدة ، متى وكيف ستكون ؟ هذا شئ آخر .

◆ ربما لو تساءلنا عن الأسباب العميقة التى حالت دون وجود فلاسفة عرب معاصرين أقول ربما كان ذلك بداية حقيقية لظهور ما يميزنا عن غيرنا .

● نحن الآن فى مرحلة الأخذ وبعدها ستأتى مرحلة العطاء . هذا أمر طبيعى فى تطور الفكر وتطور الثقافات .

◆ ألا تعتقد أن مرحلة الأخذ والنقل والشرح وهى مرحلة مهمة وضرورية قد طال أمدها وأن هذا قد أثر بدوره سلبيا على هؤلاء المفكرين وحال دون تمكنهم من تقديم رؤية ومنهج يعبران مباشرة عن الواقع المحيط بهم والذى يتمنون إليه ؟

● علينا أن نتذكر أن الانطلاقة الأولى كانت لأبناء الأعيان وهم الذين كانوا يذهبون إلى المدارس «المزدوجة» والبعثات إلى الخارج التى بدأت فى مصر والبلاد العربية . وبالتالي لم تكن هذه الأرستقراطية ممتازة بالشعب ولم تكن تعرف همومه وهذا ما جعل أولئك المثقفين بعيدين عن هموم شعوبهم وقضاياهم ، وعندما اشتغل بشهيم السياسة آنذاك أخذ الكفاح السياسى من وقتهم الكثير على حساب التفكير السياسى .

◆ لكن حتى فى تلك اللحظة النادرة التى يتعدون فيها عن النشاط السياسى والتوجه إلى الناحية الفكرية المحضة فإنهم يمارسون غربة مزدوجة ، إذ أن أغلب جهودهم الفكرية نابعة من رؤية ومناهج بحث غريبة كالتحليل النفسى ، المادية التاريخية اللسانية

والبنوية .. ليست هذه علامات تؤكد أننا لا يمكن أن نكون لنا فلسفة طالما لم تطور
مناهج للتحليل والروية نابعة من أعماق الثقافة العربية ومشاكلها ...

● لا أظن أن المنهج يسبق الفلسفة ، وإنما التفكير يخلق منهجه ، يجب أن لا نضع
العربة قبل الحصان ... هناك أشياء تسبق أشياء أخرى وتستلزمها ، ونحن عندما يكون
لنا فكر خاص بنا من المؤكد أنه سيخلق معه المناهج المعبرة عنه .

◆ كتابك نحو «مقولاتية جديدة» هل نشأ في إطار البحث عن مناهج ذاتية للمعرفة أم
في نطاق يتجاوز هذا الأفق ؟

● أظن أن الوحدات الإقليمية غير كافية للشمولية ، أنا أفكر "ثالثياً" أى انطلاقاً من
العالم الثالث الذى يتهم بالتخلف ، وبالفعل هو متخلف ، لكنهم فى الغرب يفسرون
ذلك خطأ ويقولون أنه متخلف لأن تفكيره لا يقوم على مقولات مقبولة عقلياً ، وأنه
يدخل فى حسابه الوجدانيات أكثر من التفكير المنطقى ويقسمون العالم إلى قسمين :
العالم الغربى الذى يعتمد المنطق ، والعالم الآخر الذى يعتمد تفكيراً سابقاً على المنطق
أى العقلانية ، لذلك أردت فى هذا الكتاب الذى لا يزال مخطوطاً إن أظهر أولاً أن
العقلانية المحضه لا توجد وأن كل تفكير يقوم على عقلانية ممزوجة بللاعقلانية . وأن
هذا ليس خاصاً بالعالم الثالث ، بل بكل تفكير فى كل مكان وزمان ، وأخذت فلسفة
كبار الفلاسفة الغربيين وأظهرت أن لديهم بعض التناقضات وبعض الانحرافات عن
العقلانية كما يتصورونها ، فالإنسان ليس عقلياً محضاً ، وإنما يفكر بحسب أو ذوق
كما يقول المتصوفة .

◆ لكن ألا تعتقد أن نسبة المعرفة " الحدسية " أو " الذوقية " لدينا أكثر مما هو
عليه الأمر فى الغرب ؟

● المسألة نسبية بطبيعة الحال ، ولا توجد لدينا وسيلة كى نقارن بها لنقول النسبة هنا

٥ بالمئة وهناك ٢ بالمئة . على سبيل المثال ، فقط أقول هذا موجود وذاك موجود، بل أقول أحيانا تغلب على الفرد ذاته في الوقت نفسه الحدسيات أكثر من العقلية ، وأحيانا العكس وفقا للأوضاع وتأثير الوسط والشروط الملازمة للتفكير والطاقة الإرادية ، ما أريد أن أصل إليه هو أن في الغرب كما في غير الغرب توجد العقلانية ويوجد فكر بدائي أيضا .

◆ أنا لا أريد أن أخذ موقف المدافع عن الغرب لكن إنصافاً للحقيقة هناك مؤشرات يمكن من خلالها إدراك أن الأطر العقلانية في الغرب أكثر مما هي عليه في بلادنا ، وذلك يعود بالطبع لأسباب تاريخية عديدة بل إنهم وصلوا في الغرب إلى مرحلة من العقلانية بدأت تزجهم إذ كل الأشياء مرتبة ، منظمة ، مبرمجة... هكذا ...

● لا ... أنماط الحياة في الغرب شيء آخر ، وهذه الأنماط جاءت مع تكيف الغرب مع مرحلة التصنيع ، كما أنهم عندما يذكرون ديكارت يذكرون أيضا باسكال وعندما يذكرون فولتير يذكرون معه روسو ولا يوجد لديهم صنف واحد من التفكير .

◆ عندما قررت أن تتبنى «الشخصانية» ما الذى ميزها عن تلك الشخصانية السائدة في فرنسا البلد المستعمر لبلادك في هذا الوقت ١٩

● أولاً: كانت الشخصانية عندى واقعية ، كانوا يفكرون من الناحية الفلسفية في الزمان كخلود ، وكنت أفكر في زمان نسبي ، كما نعيش في إهانة فرضها علينا المستعمر الذى لا اعترف له بالخلود ، وكنت أريد أن نعيد الأشياء إلى مستواها الإنسانى ، كنت أريد أن افرض شخصانيتي في مواجهة هذا المستعمر كبشر مساو له وكنت أود أن أثير فيه عقدة المجرم في حقى وأنه حينما يخاطبني وهو يتبخر بمركب الكمال كنت أريد أن أقول له أنت مخطئ ومغرور وأن لدى وعياً يماثل وعيك وأنى مساو لك .

◆ وهل فهم من محاولتك في هذا الإطار الذى شرحتة توا على أنها كانت محاولة لإثبات الذات في مواجهته أم لمحاكاته ١٩

● أية محاكاة أنا 'أتهمه فكيف أحاكبه ، هو لم يستعمل هذه اللغة . كان يظن أننا نعيش من دون وعى وأنا خلقنا كي نخدمه ، فى حين أنا أقول له عكس ذلك وأنتى لا أرضى بما فعله فى الوقت الذى كان يظن أننا راضون عما يفعله .

◆ بما أن محور حديثنا هو العلاقة مع الغرب وثقافته ، وهو محور الأحاديث التى أجريناها مع مفكرين آخرين ، أريد أن أعرف كيف تتناول " الغدية " العلاقة مع الغرب فى هذا الغد الذى تبشر به ؟ وما هو الجديد فى ذلك ؟

● الفلسفة التى مررت بها بدأت حين كانت بلادى مستعمرة وكنت اشعر بتخلف تاريخى مهين وبمضايق فى ذاتى ، حينما استقلت بلادى لم تعد قضيتى هى إثبات شخصيتى أو ذاتى أو ثقافتى بل إثبات وجودى كمشارك فى الحضارة ، فحينما تأملت حضارة التصنيع وجدت أننى مهمل فىها ، وهذا هو شعور العالم الثالث . ومن ثم نشأ وعى الآن داخل بلدان العالم الثالث بضرورة إعادة النظر فى مواقفنا من الغرب ومن أوضاعنا التاريخية وأنه ينبغى أن نفلح عربة العالم الثالث عن قطار الغرب لبنى نماذج لأنفسنا ونكون قوة يمكن أن تدخل فى حوار مستمر مع الغرب . وهذا هو السؤال الذى ينبغى أن نفكر فيه فى الغد لأن المسألة التى تفصلنا عن هذا الغرب أصبحت شاسعة ، فإذا بقينا فى مكاننا نطلق صيحات الاحتجاج والعويل ستزداد المسافة بيننا وبين الآف السنين وتتسع الهوة بين إنسانيتين : إنسانية التخلف وإنسانية ما بعد التصنيع . لهذا يجب أن نفكر فى الغد وأن نعى واقعنا من دون أن نكذب على أنفسنا ونقول أننا بلاد نامية . نحن لا ننمو ، بل التخلف هو الذى ينمو ... ينبغى أن نعيد النظر أيضا فى سلوكنا وثقافتنا ..

◆ سؤال أخير : ما الذى قلته فى هذا الحوار وتريد فى النهاية أن تضيف إليه أو تنقص منه أو تقول ما لم تقله بعد ؟

● أظن أننى قلت كل ما أؤمن به دائما إلى درجة أننى أسئ إلى نفسى أحيانا لأننى لا أأمل . وأعتقد أن ما سجلته ولم يكن مكتوبا صدر عن صدق .



مصطفى صفوان
الاستغراب يؤدي إلى التحرر الوطني

مصطفى صفوان يعتبر من أبرز المشتغلين في مجال التحليل النفسي ، و يقيم في فرنسا منذ أكثر من نصف قرن . درس الفلسفة في كلية الآداب بجامعة الاسكندرية في فترة الحرب العالمية الثانية ، وتخرج منها عام ١٩٤٣ وفيها تتلمذ على أيدي ثلاثة من كبار الاساتذة آنذاك : يوسف كرم ، أبو العلا عفيفي ومصطفى زيور ، ويعود لهذا الأخير الفضل في توجيهه نحو دراسة التحليل النفسي في باريس . ولأنه كما يقول أراد أن يتفلسف من خلال علم مرتبط بالواقع . حيث كان يشعر بأن هناك مشاكل بلا حل كأنها أبواب مغلقة ، كالشعور بالذنب بسبب وبدون سبب والاستعداد للعقاب الذاتي ...

وفي باريس تعرف على جاك لاكان ، وتابع محاضراته ثم في فترة لاحقة طور أفكاره وعمقها خاصة في مسألة العمليات الأولية في الحلم والتي يبنى عليها تكوينه ، والأعراض النفسية المصاحبة له مثل النقل والتكثيف التي وجد جاك لاكان أنها في صميمها ذات طبيعة لغوية شأنها شأن المجاز ، وكتب كتاباً في هذا الشأن وله أيضاً إضافات في مسألة التمييزات الأبوية والأب المثالي كقدوة . وصدر له بالفرنسية : دراسات في الأدوب ، اللاشعور وكتابه ، الكلمة أو الموت ، ونظم وجمعيات التحليل النفسي ، لاكان ومشكلة تكوين المحللين ، ويعد حالياً كتاباً يتضمن تقديم المشكلات التي طرحها جاك لاكان في السيمينار الذي استمر ثلاثين عاماً . وفي هذا الكتاب يحاول صفوان تقسيم إنتاج جاك لاكان وحصر ما تبقى منه . وفي مجال الترجمة إلى العربية قدم ترجمة فريد لكتاب فرويد تفسير الأحلام . ومقال في العبودية المختارة لإيتين دي لا بوسيه .

أما فيما يتعلق بقضايا كتابنا فمصطفى صفوان ، يرى أن الغرب هو الأقوى ، والأقوى يستخدم دائماً قوته في استغلال الضعيف ، وأتينا نعيش في عصر صليبية بروتستانتية أمريكية أشد قسوة من صليبية العصور الوسطى . لكنه في الوقت ذاته يتقصد دائماً عدم إدراكنا للغرب بصورة دقيقة . ويتقصد ضعف وعشوائية ونذرة ترجماتنا عن الغرب مقارنة بالأمم الأخرى .

ويحكم معاشاته للثقافة الغربية ، ومن واقع معاملاته اليومية مع كثير من مرضاه ،
أجربنا معه هذا الحوار لمعرفة حدود وإمكانات التعايش مع الثقافة الغربية ، وإمكانات
الخروج من مأزق العلاقة السائدة مع الغرب .

◆ طرح بعض المستشرقين سؤالاً محدداً : لماذا لا يوجد استغراب كما يوجد
استشراق فماذا تقول :

● لا توجد مدينة إلا وقامت على ما تركته مدينة أخرى .. فلا يمكن تصور حضارة
اليونان من دون خبرات المصريين في البناء ومسح الأراضي ومن دون علم الفلك ونظام
العدد عند الآشوريين والبابليين ، والعرب أنفسهم لا يمكن تصور حضارتهم من غير
حركة الأخذ عن اليونان خاصة في ميادين العلوم والفلسفة ولكن كل مدينة تأخذ تركة
غيرها برغبتها وبوحى من حركتها التلقائية الخاصة ، بينما المقهور ليس لديه وقت لبناء
مدينة وحضارة وأخذ ما تركته الحضارات السابقة عليه . ونتيجة تفوق الغرب منذ بداية
عصر النهضة الأوروبية والحركة الصناعية وغزو أسواق العالم الثالث . أخذت علاقتنا
بالغرب مع الأسف شكل علاقة الغالب والمغلوب . في البداية كانت الغلبة للغرب لها
شكل الوجود العسكرى في بلادنا ، وهو الشكل المألوف للاستعمار منذ أيام الرومان
وحتى نهاية الامبراطورية ، حالياً تطورت غلبة الغرب ولم يعد هناك الوجود العسكرى
المباشر بل شمة استعمار جديد ، فلا وجود للثكنات العسكرية التي كنا نجرى ونقذفها
بالحجارة في فترات شباننا ، نحن نعيش اليوم في ظل استعمار جديد مكانه شاشات
التلفزيون والسينما والعقول ، وهكذا تبدل شكل الاستعمار لكن بقيت المسألة هي مسألة
علاقة الغالب بالمغلوب ، ومن هنا أجد من الصعب في هذه الأوضاع أن يطلب أحد من
مواطنينا أن يقبلوا في مختلف المجالات على الغرب بشبهة ، وأن ينقلوا عنه كما فعل
أسلافنا . يصح أن يحتاج الغالب إلى فهم ومعرفة المغلوب ، ويقال أن المعرفة قوة
وتحكم بينما المغلوب لا يهيمه أن يفهم الغالب فإن مسألة فهم الآخر وعدم فهمه تعتبر
التكافؤ في التعامل معه أولاً ، ومن ثم فلا عجب إذا لم يكن هناك استغراب - بمعنى
رؤى ودراسات علمية من الشرق إزاء الغرب - يواجه الاستشراق ، ولا أنتظر هذا

الاستغراب والنقل الحاد عن الغرب - وهو بصراحة شيء ضروري الآن إذا أردنا لأنفسنا الاستمرار - إلا بعد انتصار حركات استقلال وتحرر وطني من سلطة الغالب ومنطق علاقة الغالب بالمغلوب ، وبعدها يمكن أن يبدأ الاستغراب .

◆ هل تعتقد أن ضعف «الاستغراب» وعدم إدراكنا للغرب بصورة جيدة ودقيقة يعود - إضافة لما ذكرته عن نتائج علاقة الغالب والمغلوب - إلى أننا لم نعد نرى فيه الآخر الذي ينبغي أن ندرسه ونأخذ عنه .

● هو موجود عندنا بيضائه بشركاته ، بتمثيله السياسي ، لكن علمه يبقى في جامعاته ، وآدابه تبقى في بلاده ، ومقولاته العقلية تبقى في قوانينه المكتوبة وغير المكتوبة في عاداته ، كل هذا لا ينتقل إلينا ، أما الاستهلاك الغربي فهو موجود بالشكل الذي يحرك الحديد في الجرح وليس بالشكل الذي يحقق الفهم والتعقل والمحبة . وهذه النزعة الاستهلاكية لا تخلف فهماً وإنما انبهاراً ورغبة في المماثلة السطحية كما تساعد من ناحية ثانية على بروز المعارضة الدفينة التي تبدو في التوكيد الأجوف للشخصية ، فتأكيد الشخصية بدون إنجاز عمل تحقق فيه هذه الشخصية هو من قبيل الكلام الفارغ . ولهذا أقول إذا كان هناك أمل في ظهور استغراب بالمعنى الذي أشرت إليه فإنه لن يأتي إلا بعد معركة تحرر تعيد للناس كراماتهم المسلوقة وثقتهم في أنفسهم بما يجعلهم يقبلون على من كان عدوهم في السابق ، لن يأتي استغراب إلا من خلال تعامل الند للند وبهذا تحقق الحد الأدنى من الكرامة المسلوقة .

◆ هل تعتقد أن الغرب مسؤول بصورة ما عن انتشار النزعات الاستهلاكية في بلادنا ، والادراك غير الجيد من جانبنا لصورته ؟ هل الغرب مسؤول - أو يشجع - ظاهرة الاستشراق العربي ؟

● الحديث عن المسؤوليات ، حتى لو كان وجيهاً ، فإنه لا يغني ، ومن الأفضل الإقرار بالواقع أولاً . وهذا الواقع يشير إلى تفوق الغرب في وسائل الإنتاج التي قضت على ما يسمى بالبيئة المختارة لكل مجتمع ، فنحن نصنع السجاجيد لأنها جزء من نعيم

مجتمعاتنا ، ونصلى عليها ، حاليا الغرب قضى تماماً على البيئة المختارة لمجتمعاتنا . يرسل لنا الغرب مقصات مزخرفة مصنوعة خصيصاً للعالم العربى ، فانتهدت الحرف ونضبت البيئة الطبيعية الناتجة من رغبة ذاتية وخاصة لمجتمع ما ، ما أقوله لا يعنى أننا أمام الوضع الحاضر ينبغي أن نعود إلى مجتمع حرفى لأن هذا من قبيل الأوهام . ومن جهة ثانية فإن التاريخ لا يخضع فقط لوسائل الإنتاج بل لوسائل التدمير أيضاً ، فالغرب قد سيطر على الكرة الأرضية بامتلاكه مجال وسائل الإنتاج ووسائل التدمير معاً .

◆ إذا هناك مسؤولية واضحة تقع على هذا الغرب الذى يتج ويهدم فى نفس الوقت .

● أعتقد أن أكبر غلطة ارتكبها الغرب هى عمله على إفشال حركات التحرر الوطنى فى العالم الثالث فى سنوات الستينات . ولو كان الغرب قد ترك لهذه الحركات - لومومبا ، ناصر ، سوكارتو - فرصة الوصول لأهدافها - وهو الاستقلال والاعتماد وعلى الذات - ربما كانت براكين الغضب فى العالم الثالث الآن غير ما هى عليه ولكن الغرب بفضل الاحتفاظ بهيئته بأى شكل . إنه كان يخلق حومات خيانة تساعد على استمرار هيئته لكن النتيجة النهائية إن ذلك قد عمق من احتدام علاقة الغالب والمغلوب ، واعتقد انه إذا كان هناك مجال للتكلم عن المسؤوليات فأنا لا أرى للغرب مسؤوليته أكبر من مسؤوليته فى القضاء على حركات التحرر الوطنى فى الستينات .

◆ حالياً هل يوجد دوافع واضحة لدى الغربيين تجعلهم يحاولون تغيير صورتهم عن «الآخرين» ومساعدة بلدان العالم الثالث فى الخروج من مأزقها ؟

● لا يوجد دافع وبالتالي لن يحدث هذا .

◆ لا توجد دوافع أخلاقية ، إنسانية ؟

● نعم يوجد خطاب أخلاقى ، لكن لكى يطمئن فقط ضمير الغربيين بما يزيدهم أمعناً فى نفس الطريق . وكى يستمر تفوق الغرب فى مجال الإنتاج ومجال التدمير معاً . والخطورة إن الغرب متفوق فى المجالين واستفحلت سيطرته بحيث بدأ أفراد المجتمع المغلوب يشككون فى إنسانية الغرب وقيمه .

◆ هناك من يرفض الحديث عن صراع بين شرق وغرب ماذا تقول فى هذا الشأن؟

● أفضل بحث طبيعة الصراع القائم من خلال مصطلحات الشمال والجنوب ، كما أن الحديث عن هذه العلاقة ينبغى أن يكون فى مستوى مختلف من مستوى العلاقة بين المجتمعات ، أى مستوى البشر باعتبارهم كائنات ناطقة . فمن هذه الناحية لا يوجد فرق ، فالإنسان سيطرح نفس الأسئلة الوجودية التى تتعلق بالحياة والموت والمصير ، لا يوجد اختلاف بين البشر بوصفهم كائنات ناطقة ، والثقافة باعتبارها مظهراً للإنسان بوصفه حيواناً ناطقاً موجودة للفهم ، لكن حركة المجتمعات بما هى عليه من صراع شئ آخر لا يجعل من الثقافة أداة للفهم . . فالثقافة الغربية ذات الأبعاد الإنسانية جديرة بالاحترام فى عمقها وخلفيتها ابتداء من حضارة اليونان حتى افكار هايدغر من الوجود والزمان ، ولكن هذا شئ وثقافة سينما رامبو وروكى شئ آخر .

◆ فى هذه الحال لماذا لا نتفق على أن الصراع يدور بين شرق وغرب طالما أن الأبعاد وطالما أن الثقافة - بوصفها بعداً إنسانياً - لم تعد كذلك بل أداة فى صراع الغالب والمغلوب ؟

● الثقافة وفقاً لمنطق صدورها عن الإنسان بوصفه حيواناً ناطقاً هى للأخذ والعطاء ، والقوى يقضى على هذه الطبيعة الخاصة بالثقافة ويزهد النفوس فى التواصل الثقافى ويشجع العزلة والانكفاء الذاتى ، فلماذا أقراً بروست وبلزاك إذا كان العسكرى الفرنسى رابض فى أرضى ؟

◆ كيف الخروج إذ من مأرق ثقافة غريبة المفروض أنها ذات بعد إنسانى كونى وبين واقع أنها مستخدمة فى نطاق الهيمنة الغربية على الآخرين ؟

● نحن نعيش حال تصدع وتنافر بين القيم الثقافية التى أخذناها عن الغرب والقيم الثقافية الخاصة بنا . ولا شك فى أن اتصال الشرق بالغرب قد أدى إلى تفجير مقولات قديمة وإدخال مقولات جديدة من دون أن يكون هناك أى مرشد نحو طرق واضحة للخروج من هذا الصراع بين المقولات . فوظيفة الكلمة لدينا تختلف أحياناً عن وظيفة

الكلمة فى الثقافة الغربية . بالنسبة لنا الكلمة قد تكون أحياناً نوعاً من الشرق بينما وظيفة الكلمة فى الثقافة الغربية ليست بعيدة عن الحاسب الآلى ، إذا نزلت فى الفندق فى أميركا مثلاً وأردت أن تطلب خدمة من الإدارة فلا بد أن تسير وفقاً لبرنامج ويبدأ من ذكر الاسم أولاً ثم رقم الغرفة التى تقيم فيها ثم نوع الخدمة التى تبحث عنها كما لو أنك تمول عقلاً الكترونسيا ... وهكذا تمر مجتمعاتنا - بجانب ما يتولد فى النفوس من قهر - بنوع من «الخطبة» فى المقولات والتصورات العقلية التى انبنى عليها كيانها ، وليس هناك من طريق للخروج من هذا المأزق سوى عن طريق نجاح حركات التحرر بحيث يتكون أفق تظهر من خلاله الحلول الصحيحة .

◆ إلى حين أن تنجح حركات تحرر وطنى هل تستمر العلاقة مع الثقافة الغربية على ما هى عليه الآن من «الخطبة» ؟

● أننا فى مأزق وعلينا أن نعيد إدراكنا لثقافة الغرب وإن نقبل برغبة حقيقة فى التعرف على ما فى هذه الثقافة من أبعاد إنسانية مع احترام لثقافة السلف فى الوقت نفسه . ليس من المعقول مثلاً أن تتحول أقسام الآداب الأجنبية فى جامعاتنا إلى أقسام لتعليم اللغات الأجنبية كى يذهب الطلاب بعد ذلك للعمل فى شركات سياحة ومطاعم غربية ...

أقول ذلك وأنا أعلم أن الدعوة للإقبال على ثقافة الغرب الإنسانية والوصل بينها وبين تراثنا وحاضرنا ليست بالمسألة السهلة لكن مازال الأمل قائماً بانتصار حركات تحرر وطنى يفتح بعدها الطريق نحو هذه المعادلة المفقودة

◆ واصلنا الحديث مع مصطفى صفوان فى لقاء آخر وسألناه إذا كان يرى مبرراً للحديث اليوم عن شمال وجنوب ، أو شرق وغرب فى ظل امتداد وانتشار واقع وخطاب العولمة المتزايد يوماً بعد يوم ؟

● نعم هناك مبرر للحديث عن ذلك فى زمن العولمة . فنحن لأول مرة فى التاريخ نشاهد حرباً قائمة على أسباب تسمى إنسانية أو أخلاقية . والسؤال هنا : هل هذا تقدم

فى الوعى الإنسانى كما يدعى البعض أم هو رجوع إلى ما كان يسمى فى القرن التاسع عشر بسياسة المدفع . وأيا كان اختيارك بين الأمرين فالواقع أننا نعيش سياسة القذائف .

● والحقيقة المؤكدة أن العولمة تصطدم أمام أعيننا بالنزعات القومية . والعولمة تصطدم بالقومية الصربية الأرثوذكسية ، ولا يوجد مانع من أن تصطدم بالإسلام وبهويات أخرى ، فالمشاهد أن النزعات القومية تتزايد فى كورسيكا والباسك والكتالان أمثلة عديدة فى أوروبا وفى أيرلندا . . وحتى داخل المجتمعات ذات الهوية الوطنية الثابتة وغير المهتدة مثل الأمة الفرنسية تجد خصائص جديدة تظهر لجماعات وطوائف من اليمين إلى اليسار . . وتوجد تعريفات جديدة لمجاميع وطوائف دينية جديدة . فالعولمة تسير إذاً مع تزايد النزعات القومية ومع تزايد الطوائف والمجاميع القائمة على أسس دينية وطائفية أخرى . وليس هذا بجديد أو مفاجئ ، فماركس منذ أوائل القرن التاسع عشر قال أن المضى نحو مدننة تشمل العالم كله سيفاقم من حدة الشعور بالخصوصيات والهويات - وهذا شيد طبيعى - فانت فجأة تجد يبتك الخاصة والمكونة بطريقة معبرة عن احتياجاتك ورغباتك من سجادة الصلاة إلى التمهرندى . . وقد بدأت تنهار تحت وقع محلات المكدونالد والكوكاكولا و . . . تشابه العالم يفقد الإنسان شخصيته إلا فى المقومات غير المادية وغير المصنوعة ، أى عنصرتك أو دينك أو وطنك . . الخ .

◆ البعض من الذين ينظرون نظرة تفاولية للعولمة الزاحفة يعتبرون أن مسألة الصراع مع الغرب لم تعد ذات قيمة ، وأن علينا العمل من أجل تجاوز تخلفنا فى السياق الراهن حتى نستعيد مشاركتنا الحضارية التى فقدناها ، كيف ننظر إلى ذلك؟

● بالنسبة للشرق والغرب ثمة حاجتان : مسألة الصراع ومسألة تخلف الشرق أو العالم العربى بالتحديد عن ما كان له من المشاركة الحضارية فى المدنية . بالنسبة للشرق الأول هناك صراع قطعاً . فواقع الأمر أن هناك أنظمة تابعة للقوى الغربية الكبرى لا ينفى وجود الصراع لأن التبعية ذاتها تعنى أن القوى أنتصر وأنتك أصبحت تابعة له . . ويمكن

القول أن الصراع فى فترة ما قد أخذ شكل حرب صليبية شنتها الكنيسة الكاثوليكية ، ولاحظ المفارقة أن الكنيسة الكاثوليكية كان لها ادعاءات إنسانية . . ثم جاءت الحر فى وقت أن الاتصال بين العرب والغرب على أشده . فمن المعروف أن الغرب اكتشف قارات العالم بما اكتسبه من فن الملاحة عند العرب كالبوصلة وغيرها . وتم له ذلك بمساعدة العرب أنفسهم . مناجلان لم يعبر إلا بمساعدة الملاحين العرب الذين تركوا أنفسهم فريسة سهلة للتطويق دون أن يشعروا والآن نعيش فى أجواء صليبية بروتستانية ليس بها رجعة والدليل على ذلك أنظر صورة العرب فى أمريكا . . . هذا من ناحية الوضع الحالى بين الشرق والغرب . أما الشق الثانى من القضية والخاص بانتهاء وانمحاء مشاركة البلاد الناطقة بالضاد فى الحضارة بينما عرفت أوروبا وثبة لا مثيل لها ليس فقط فى مجالات العلم وإنما فى كل المجالات . . . من أين أتى هذا التقدم لديهم ؟ اختلاف اللغات الدارجة لم يمنع التقدم . لم يتحدثوا لغة واحدة ، على النقيض اللغة الواحدة كانت تعطلهم . . . هنا الآراء تتنازع . وفى تقديرى أن توكفيل فى كتابه عن الديمقراطية كان قد كشف عن السر مبكراً . لقد تنبأ منذ منتصف القرن التاسع عشر بأن مستقبل العالم سيتوقف على الصراع بين أمريكا وروسيا ، وأشعر القارئ تماماً بأن رأيه أن أمريكا ستنتصر بسبب نظمها ومؤسساتها وقوانينها . . وهذا ما حدث هزمت روسيا بسبب تمسكها غير المعقول بمجتمع موحد لا يقبل الخلاف داخله ، وإنما يتكون من طبقة واحدة لديها كل الحق والتاريخ يفتح لها أبواب المستقبل وهى طبقة العمال . هنا التمسك بفكرة الجماعة المتجانسة بصورة تامة ولا تقبل أى خلاف فى داخلها هى فكرة لا صلة لها بالواقع لأنه لا يوجد مجتمع فى الدنيا إلا وبه بذور للحرب الأهلية .

ومن هنا كانت ضرورة الرجوع للكلمة والحوار لتجنب هذا الخطر الموجود باستمرار . وتاريخ أوروبا هو تاريخ توزيع القوة منذ اليوم الذى جعل فيه قسطنطين الأمبراطورية الرومانية تتحول إلى المسيحية . كان الأباطرة يترأسون المجابهة وحصل صراع بينهم وبين البابوات ثم بين الملوك والأباطرة وبين الملوك وبعضهم البعض ، وبين الملوك والنبلاء ، وبين النبلاء والفلاحين . . . تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى

هو ثورات الفلاحين وتوزيع القوة بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية
 الأمريكان استولوا على هذا التراث . . . وبحيث أن فكرة اللولبي (جماعات الضغط) التي
 نعتبرها نحن فكرة حقيرة هم يفتخرون بها لأنها في نظرهم الدليل الأمثل على القدرة
 على حل المشاكل بالتفاوض ، بينما المجمع المتجانس لا يقبل إلا حاكماً واحداً لا
 يحكمه قانون إلا الكتاب المقدس ، والذي يملك وحده حق تفسيره مثل ستالين عندما
 احتكر حق تفسير ماركس ، ولا يصح للطرف الثاني أى حقوق أمام هذا الحاكم . أما
 تاريخ الغرب فكان من شأنه أن يؤدي إلى وجود دولة القانون أى الدولة التي تخضع
 للقانون وسيادة القانون على نفسها . . . العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، فى أمريكا مبنية
 على دستور ، وعلى أحسن ما وجد فى أوروبا بحيث أن لكل فرد مشاركة فى الحكم ،
 وأمريكا هنا لديها ميزة عن أوروبا لأن أفراد الشعب الفرنسى ، أو الإنجليزى ، وإن كان
 لديهم شعور بأهم يضعون السلطة فى الحكم إلا أن علاقتهم بالسلطة التنفيذية دائماً
 مشتملة على صراع لذلك عندهم عدم ثقة فى السلطة التنفيذية بينما الأمريكى تخلص
 من الشعور بالعداء للسلطة ، وتجدهم أثناء الأزمات الكبيرة يداً واحدة .

◆ تجددهم يداً واحدة فى "الصدام" مع الآخرين ١٩

● إذا كنت تقصد أطروحة "صدام الحضارات" كما عبر صموئيل هانتجتون فأنا أرى
 أن بها بعض الصديق لكنه صدق يفضى إلى نتيجة مخيفة وهى أن الغرب لا ينبغي أن
 يرفع يده عن السيطرة المطلقة وإلا حدث انفجار . . . ثم أنه جعل الصراع مؤسسا على
 فكرة ماهية الحضارات وهذا كلام خطير لأنه كلام يأخذ ملامح عنصرية ، أما أنا فأقول
 غير ذلك ، ورغم حدثى سابقا عن صراع صليبي جديد لكننى أراه غير مؤسس على
 اختلاف الماهيات والهويات وإنما اختلاف نظم الحكم بالتحديد ، الأمر الذى يسمح
 بالانقباس والتغيير بشكل إنسانى ، وهو أمر يختلف بالطبع عن مجرد الانقباس فى
 الصدام .

◆ نتحدث عن الاقتباس والترجمة من أجل التغيير فى ظل الصدام والصراع ١٩

● المؤكد أن الغرب مع تقدمه ، فى ظل الصراع يترجم عنا أكثر مما نترجم نحن عنه . العجيب فى العالم العربى أن كل شىء يجرى فيه وكان هناك رقابة غير مرئية وغير محسوبة فى موضوع الترجمة عن الغرب . بينما العرب القدامى أخذوا كل شىء من الحضارة الغربية اليونانية باستثناء المسرح والشعر ، فلنقل أن العرب آنذاك كان لهم عذرهم ... لكننا بعد قرون من الحكم التركى وقعنا تحت رقابة لازالت مستمرة . ورغم كل ما ترجم إلى اللغة العربية فإننا لا نستطيع القول أن الكتب الرائدة فى الغرب قد ترجمت . وضربت لك مثلاً بتوكفيل . وأضرب لك مثلاً بأعمال كاتب معاصر هو جرتنراجراس الذى ينظر إليه على أنه أرسطوفان العصر الحديث لم يترجم بدوره إلى العربية و ناهيك عن أنهم لا يعرفون كيف يترجمون .

◆ سؤال أخير : بوصفك محللاً نفسياً أمضى ما يقرب من نصف قرن فى العاصمة الفرنسية هل ترى أن منهج التحليل النفسى يصلح للتطبيق فى المجتمعات العربية الإسلامية أم أنه فى حاجة إلى تعديل قواعده ليتلائم مع موضوعاته العربية ؟

● الخلافات والاختلافات بين المجتمعات لا تودى إلى الاختلاف فى العلم نفسها بل العلم هو الذى يؤدى إلى تبيان الاختلافات بين المجتمعات . العلم الإحتكام فيه للعقل وهو الذى يبرر الخلافات القائمة بين المجتمعات وليس العكس . بالطبع التحليل النفسى مرتبط بوجود مجتمع ، الأسرة فيه قائمة على النظام الأبوى واكتشاف «أوديب» ، يعنى تدهور مركز الأب واضمحلال الأسرة إلى الوضع الثلاثى ، وبالتالي يمكن القول أن التحليل النفسى كتمارسه لن يسير فى الرفيف المصرى لأن الأسرة فيه قوية ومتماسكة وليست مقصورة على الأب والأم والولد ... وبالتالي تجد فى الرفيف إيدناً قوياً بالأب ، واحتراماً له يجعل الفرد ليس فى مهب الريح كما هو الأمر هنا . لكن التحليل النفسى مع خريج جامعة أو مقيم فى المدينة أو مطلع على الآداب واللغات الأوروبية ، لا سيما هذا الذى يعيش فى ظروف عائلية قريبة من الغرب ، وهى فئة كبيرة فى القاهرة والإسكندرية ، أراه مهماً جداً لهم وهم يتجهون فى أحيان كثيرة للتحليل النفسى .

وقد يكون الاختلاف فى النظريات التى يتم استخراجها من الممارسة فى مصر ، وهى تختلف باختلاف عقليات المستظرين ، لكن منهج التداعى الحر واحد ولا صلة له بالممارس ، سواء أكان فرنسيا أم عربيا ، وكلامك يكون صحيحا عندما نطبق نظرية أو منهجا فى غير مجاله عندما نفتح عيادة للتحليل النفسى فى قرية كذا بالريف المصرى ، أو عندما نطبق المنهج الماركسى فى مصر فى حين أن فكرة الأجر نفسها غير موجودة فى عقول المصريين ، فالعامل الذى يخرج فى الصباح لا يخرج بحثا عن أجر عن عمل أداه ، وإنما يخرج بحثا عن الرزق . . الفكرة الأولى عندنا هى فكرة الرزق وليس الأجر . المسألة ليست شرقا وغربا هنا ، وإنما خطأ فى التطبيق . . وأعود وأكرر إن الاختلاف ليس فى طبيعة العلوم ، وإنما العلوم تظهر لنا الاختلافات الواجب مراعاتها عند التطبيق .

سميح فرسون
الاستغراب نقد للغرب

يتجدد الحديث العربى عن «الغرب» من فترة إلى أخرى ، وذلك منذ بداية النهضة العربية الحديثة ، إلا أن هذا الحديث عن علاقاتنا بالغرب وعن الموقف الذى ينبغي علينا اتخاذه ضمن إطار هذه العلاقة ، قد شهدت تطوراً ملحوظاً منذ بداية الثمانينات .

الفترة الماضية شاركنا ، فى تنشيط وتجديد الحديث عن موقفنا من الغرب اليوم . وعن مراجعة قنوات اتصالنا بالغرب بعد مائتى عام تقريباً على افتتاحنا لهذه القنوات ، من بعثات تعليمية إلى ترجمة إلى وسائط إعلامية . . . وكانت التساؤلات التى أثارت تدور حول إعادة تجديد فهمنا للغرب . وحول تحديد أكثر وضوحاً لحدود التعايش بين الثقافة الغربية والثقافة العربية ، وعلى التساؤل عن وجود استغراب عربى ، أو عدم وجوده ، وعن المناهج الأكثر ملاءمة لدراسة ثقافة الغرب بصورة دقيقة . . . وغير ذلك من التساؤلات . لذلك كانت سعادتنا كبيرة عندما ذهبنا فى أواخر كانون الأول (ديسمبر ١٩٨٦م) الماضى لمتابعة ندوة نظمها مكتب الجامعة العربية فى باريس تحمل توجهاً رئيسياً بعنوان : كيف نفهم الغرب . وعلى الرغم من أن بعض أبحاث الندوة قد نشرت ، إلا أنه لم يكشف بعد النقاب كاملاً عن «أسرار» ما دار فيها من نقاشات .

هنا حوار مع سميح فرسون . أحد المشاركين فى الندوة ، والذى التقت اطروحاته حول ضرورة وجود استغراب عربى مع ما كنا قد نشرناه سابقاً .

وسميح فرسون يعمل أستاذاً فى علم الاجتماع بالجامعة الأمريكية فى واشنطن . ولد فى فلسطين ودرس فى لبنان وأكمل دراسته الجامعية والدكتوراه فى أمريكا . وتدور اهتماماته الأساسية حول مسوئولوجيا العالم العربى السياسية وعلاقة أميركا بالعالم العربى . كما ساهم فى إنشاء رابطة الخريجين العرب التى ستحتفل بذكرى مرور ٢٠ سنة على إنشائها فى العالم المقبل . ويترأس تحرير المجلة الفصلية للدراسات العربية التى تصدر عن الرابطة . وله مؤلفات عديدة أهمها «المجتمع العربى» و «العلاقة بين السود والبيض فى أمريكا» فضلاً عن عشرات المقالات فى المجلات الدولية والعربية . . وهنا نص الحوار معه .

◆ كيف تفسر أولاً تزايد الحديث فى الفترة الأخيرة عن موقفنا من «الغرب» .

● ينبغى القول ، أولاً ، أن المؤسسات الحاكمة فى العالم العربى كانت منمنمة دائماً فى معالجة المشاكل اليومية الناتجة عن الأوضاع الاقتصادية المتدهورة . وبالتالى لم يكن هناك وقت كاف للتفكير فى معنى علاقاتنا بالغرب . لكن مع انخفاض عائدات البترول وتراكم الديون على بعض الدول العربية ، بدأ العرب يفكرون فى معنى علاقاتهم بالغرب ، وبدأوا يتساءلون عن نوعية هذا الغرب الذى استطاع ، فى سنوات قليلة ، أن يحبط آمالنا ومشاريعنا ، وأن يقلب رأساً على عقب ما كنا نسعى إليه ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن أوضاع العالم العربى بدأت تتأزم أيضاً ، ليس فقط على الصعيد الاقتصادى بل السياسى والاجتماعى والفكرى أيضاً . وصارت تطرح بالحاح قضية الليبرالية والديمقراطية والنموذج الغربى ، ومن هنا انطرح أيضاً قضية علاقتنا بالغرب .

◆ ألا تعتقد أن انتشار التيارات السياسية الجديدة فى العالم العربى قد ساعدت بشكل مباشر ، أو غير مباشر على إعادة التفكير فى موقفنا من «الغرب» وعلاقتنا به من جديد ؟

● بالطبع هذه التيارات أجبرت الناس على إعادة التفكير فى علاقة الحاضر بالماضى والشرق بالغرب . وعن علاقة الحاضر بالحاضر الآخر ، والذات مع الآخر . وأعتقد أن بعض هذه التيارات لا يسمح بنمو فرض التفكير والإبداع ، لأنها ترجع باستمرار إلى السابق وتؤكد فقط على ماسبق أن حدث . لكن من جهة أخرى هناك بعض النخب والفعاليات السياسية والفكرية فى العالم العربى ، والتى لها مصالح من وراء تبعية العالم العربى للغرب . فالتبعية لها جذور اقتصادية وثقافية أيضاً . وهذه النخب العربية تريد أن تجعل من العالم العربى صورة طبق الأصل عن الغرب ، وتميل إلى استمرارية العلاقة معه كما هى الآن . كما تستمد هذه النخب العربية المهيمنة شرعيتها من العلاقة مع المصالح والأفكار الغربية ، فالواقع هذه النخب داخل الحكومات العربية ، وداخل القوى السياسية ، تسمح لها بأن تبذى رأيها بحرية وتفرض نفسها من منطلق العلاقة مع هذا الغرب . والأخطر من هذا كله هو أن هذه النخب تعتقد أن توجيهها الثقافى والفكرى والتنموى هو الصواب ، وغيره هو الخطأ .

◆ ما هو تأثير هذه النخب العربية الحاكمة على نشاطكم فى أمريكا ؟

● بصراحة إننا فى أمريكا نعانى كثيراً من هذه النخب العربية الحاكمة ، لأننا عندما ننشط من منطلق وطنى ونجابه الأمريكيين على الصعيد السياسى والإعلامى نجد أن بعض النخب العربية الحاكمة تخذلنا أمامهم ، ولا تجعل لنشاطنا أى مصداقية . فكيف يقبلون بكلامنا فى أمريكا وحكامنا العرب أكثر ميلاً إلى الأمريكيين؟ وهكذا فإن المسؤولين العرب يسحبون شرعية ما نقوله ونفعله فى أمريكا ضد الهجمة الأمريكية على العالم العربى والثقافة العربية . بالنسبة إلى الأمريكيين نحن منتقدون ولا تقبلنا المؤسسات المهيمنة لأننا ننتقدها .

◆ أعود إلى موضوع حوارنا وأسالك لماذا لا يوجد من جانبنا دراسات دقيقة ومسوحات شاملة عن بلدان الغرب فى شتى الميادين . لماذا لا يوجد «استغراب»؟ وهل تتفق مع وجهة النظر التى ترى أننا نعانى من كثرة الاستغراب وليس ندرته؟

● فى ما يتعلق بى ، فأنا أعتقد أنه لا يوجد لدينا استغراب حقيقى بمعنى دراسات عربية عن المجتمع السوفياتى والبريطانى والفرنسى مثلاً .

◆ لماذا لا توجد مثل هذه الدراسات فى تصورك ؟

● القضية تعود . فى اعتقادى ، إلى القرار السياسى العربى فى المقام الأول ، فمنذ الحرب العالمية الأولى لم يكن القرار السياسى مرتبطاً بمؤسسات فكرية جامعية أو معاهد أبحاث . والتى لا يزال وجودها نادراً حتى الآن . بينما الأمريكيون ، خاصة بعد الحرب العالمية الثانية ، استجلبوا فرنسيين وإنجليزاً كى يعاونوهم فى إنشاء مراكز أبحاث ودراسات عن الشرق الأوسط ، كى يفهموا بلدان العالم العربى ، وكى يحققوا أفضل الطرق فى السيطرة عليها ، وهنا الاستشراق طور نفسه وطور تصوره للعالم العربى من أجل أن يستجيب لاحتياجات السياسة الخارجية الأمريكية إزاء العالم العربى . أما فى ما يتعلق ببلادنا فلا نجد معاهد ومراكز أبحاث للاستغراب ، ولارساء تقاليد دراسية عن الغرب . وعدم وجود هذه المراكز نابع من حالة التخلف الفكرى والتنافر ، وقليل من

الحكام العرب يقبلون بأن تكون هناك ثقافة مستنيرة مساعدة للحكم . إنهم يفكرون فقط في وجود ثقافة مضادة لهم وينبغي ضربها . وما هو موجود لدينا من استغراب لا يتعدى دراسة علاقات دولية عن سياسة أمريكا ، مثلاً بالعالم العربى . وفى هذا يوجد إنتاج استغرابى جيد ، لكنه لا يتعدى ذلك أبداً إلى التساؤل عما هى العلاقة العضوية بين السياسة الخارجية للدول الغربية والبنية الاجتماعية والسياسية والفكرية داخل هذه الدول ، فمثلاً التمييز بين الشيوعى والليبرالى والمحافظة لا يظهر فى أوروبا بالصورة نفسها التى يظهر بها فى أمريكا ، فالليبرالى فى أمريكا يتميز بعدواة أكثر إزاء العرب وبدعم أكثر تجاه الصهيونية وإسرائيل . أريد أن أصل من هذا المثل إلى إبراز أن العلاقة بين السياسة الخارجية وطبيعة المجتمع الذى يفرضها لم يتطرق إليها الاستغراب العربى بعد .

◆ هل يكون الغرب ذاته هو المسؤول عن تأخر الاستغراب العربى وندرته ؟ وهل يكون الغرب ذاته مسؤولاً ، بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، عن الصورة التى ندرکہ بها الآن ؟

● هذا صحيح ، فالطالب العربى الذى يريد أن يدرس بعض ظواهر المجتمع الأمريكى ، مثلاً ، يقال له من أساتذته أن هذه موضوعات أشيعت بحثاً ، ومن الأفضل له بدلاً من أن يعد دراسة عن السود فى أمريكا ، أن يقوم بدراسة هذا الموضوع أو ذاك عن العالم العربى ، وأنه من الممكن أن توفر له الجامعة الغربية منحاً دراسية ، أو ما شابه هذه الأمور والتسهيلات ، بغرض الحصول على دراسات محددة مطلوبة أساساً فى الغرب . وهذه الطريقة تعود ، فى جوهرها إلى فترة الإستعمار الغربى لبلادنا ، حيث كان إعداد الكوادر فى مجال التربية والتعليم ينطلق من نظرة وظيفية ضيقة جداً ، بمعنى أن تأسيس المدارس والمعاهد كان لتخريج بيروقراطية تخدم المستعمرين ، باختصار ، كان الهدف ولا يزال خلق كوادر عربية داخل العالم العربى تعمل على مساعدة الغرب من الداخل .

◆ هل تعتقد أن هؤلاء «المستشرقين العرب» مازالوا فى مواقع السيطرة والهيمنة داخل العالم العربى ؟!

● مازالت لهم السيطرة على الرغم من أننا في حالة استقلال . وما زلنا نطبق الأهداف الاستعمارية الوظيفية ، أى إنتاج موظفين وليس مفكرين أو باحثين ، لأن المنطلق السائد كان منطلق الخبرة الاستعمارية ومن دون تجاوز حقيقى لها حتى فى الدول العربية التى افتتحت جامعات مؤخراً فى الخليج والأردن وغيرها ، لا تزال لا تخرج أعداداً هائلة من الطلبة من ذوى الثقافة المحدودة ، ولا تصل إلى مستوى ثقافة تسأل سؤالا وتبحث عن جوابه ، بل ثقافة ترد ما صدر . إنها تنتج ثقافة شبه سلفية ، لكن عن أشياء حديثة وبمضمون غربى ذى طبيعة وظيفية فقط فلا توجد جامعة من هذه الجامعات ، منذ الحرب العالمية الثانية ، نجحت فى تأسيس جامعات ومعاهد بحث ودراسة . ربما كان هناك مؤخراً معهد دراسات عربية فى الأردن ، ومعهد الدراسات الفلسطينية ، لكن بشكل عام لا توجد كوادرات منتجة لدراسات تسمع عنها وتتعرف إليها فى الغرب أو الشرق .

◆ البعض يقول ، طالما أوضاعكم هكذا ، فلماذا تنتقدون إنتاج الاستشراق ، أو أين إنتاجكم أيها الشرقيون ؟

● الحقيقة ، بكل أسف ، تقول أن انعدام المعاهد والدراسات العليا فى الجامعات العربية عن أنفسنا هى السبب الأكبر الذى يدعم الاستشراق ، وغالبية الشباب العربى الذى يأتى للدراسة فى الغرب يأسسون دراساتهم انطلاقاً من خبرة المستشرقين ، لكن وانصافاً للحقيقة أيضاً ينبغي أن نشير إلى وجود الباحثين العرب فى الغرب ممن أنتجوا ثقافة مضادة للاستشراق ، ورابطة الخريجين العرب فى الولايات المتحدة الأمريكية أكبر نموذج عملى لهذا الجيل من الباحثين الذى خرج منه ادوارد سعيد وكتابه الشهير عن الاستشراق ، وقد كنا جميعاً أبناء هذا الجيل نناقش هذه القضايا كل فى مجاله سواء فى علم الاجتماع أو الاقتصاد أو السياسية ، وكانت المجلة الفصلية للدراسات العربية التى أشرف عليها ، تساهم بدورها ، وعلى طريقتها فى خلق ثقافة إن لم تكن مضادة فهى بديلة ومتفهمة أكثر لقضايا وهموم الشعب العربى .

◆ كيف بدأ اهتمامك وتفكيرك بقضية الاستغراب ؟

● يعدو ذلك إلى ما لاحظته من انقسام حاد في وجهة نظرنا إزاء الغرب فمن جهة تجد هناك من يعطى للغرب صورة جذابة إلى أبعد درجات الجاذبية والإبهار استناداً إلى تقدم الغرب التكنولوجي، استناداً إلى سيادة الديمقراطية السياسية والحريات والحقوق المدنية لمواطنيه، ومن جهة ثانية تجد من يقدم صورة سلبية وسوداوية عن الغرب وسياساته القمعية خارجة حدوده ومسؤوليته خارج عن استمرار اقتصاد الفقر والجوع والبطالة والتمييز العنصري . وهكذا نجد صوراً جادة ومتناقضة عن الغرب . . . الصور الإيجابية ارتكزت على النماذج المثالية للغرب بينما الصور السلبية ركزت على الحقائق الاجتماعية . وربما تكون هذه الصور المتناقضة انعكاساً لطبيعة تناقضات الغرب ذاته وليس فقط علاقتنا نحن به ، وفي تقديري أن المدخل الناجع لفهم المجتمع الغربى هو فى إلقاء الضوء على التناقضات الجوهرية فيه وإظهار قواه المحركة للتغيير والتحول .

◆ هل يشكل هذا المدخل نموذجاً وحيداً لثقافة الاستغراب ؟

● ليس هدفى فقط مراجعة فى إطار القوى المحركة سياسياً واجتماعياً فى الغرب وإيضاح ارتباطها بالمستقبل العربى وإنما أيضاً إبراز دور نخبة المفكرين وإنتاجهم من نماذج وصور للمجتمعات العربية . ومن الواضح ، كما تعلم ، فى الغرب فإن كلا الصورتين عن المجتمع الغربى ومستقبله هما صيغ عقائدية نظرية تم وضعها منذ أمد بعيد لخدمة الآراء والمواقف السياسية لصالح الغرب بينما النظرة الغربية للغرب نفسه تجدها متعمقة وتتناول الظواهر فى أبعادها التاريخية حين نجد الصور والآراء العربية تفتقد مثل هذه الدقة والشمولية فى نظرتها للغرب ، وذلك لأنه مناط لها أن تلعب دوراً محدداً فى السياسة العربية ، وكذلك كنتيجة للطبيعة الاجتماعية للنخبة العربية المنتجة والمستفيدة من نشر تلك الصور أى دور الصحفيين والتقنوقراط والمستشارين ، وبعبارة أخرى إن تلك الصور المتناقضة والحادة والمجردة عن الغرب هى نتاج الصحافة والإيديولوجيات والسياسات المتفجرة من هذا الجدل فى العالم العربى ، وليست نتيجة لعمل مراكز أبحاث علمية عن ما يدور فى الغرب . لقد صارت هذه الصور عن الغرب جوهرأ أساسياً فى الحوار العقائدى السياسى العربى .

◆ هل يدهشك تزايد الحديث في الفترة الأخيرة عن الغرب بصفة عامة بعد أن كانت هناك فترة يتم فيها التمييز بين أنواع من الغرب ؟!

● ليس مستغرباً تزايد الحديث السياسي والثقافي العربي عن الغرب من حيث التنوع أو التكرار ، وسواء من خلال استعمال الصورة المجردة أو من خلال الانطباعات الجزئية والمنتقاه والمنحازة ، وإن كان يعكس الانقسام السياسي العربي والصراع الإجتماعى المحلى المتصاعد . من المؤكد أن صورة «الغرب» واستعمالها، شهدت قفزة كمية خلال السبعينات ، كما ذكرت في بداية الحديث ، عندما شجعت فوائد النفط المالية الحكومات والأنظمة العربية على إعادة صياغة خطط التطوير الاقتصادي ، حيث ظلت نماذج المجتمع الغربى تستعمل في خطط التنمية علناً أو ضمناً كى تستر المصير الاقتصادي والاجتماعى للدول العربية . وما يجدر ملاحظته هنا ، أن هذه النماذج الغربية تمتص الموارد العربية الضخمة وتؤثر في حياة الاغلبية الكبير من الشعب دون أن يخضعها أحد للتحليل الدقيق وعن كيفية تأثيرها على المجتمع العربى .

◆ لذلك تدعو إلى ثقافة الاستغراب؟

● نعم ... ما أجده غير قابل للتصديق هو عدم قيام أى حكومة عربية بإنشاء دوائر جامعية أو مؤسسات أبحاث لدراسة المجتمع الغربى . وفى حدود معرفتى ليس هناك أى دراسة عربية عن الاقتصاد أو التاريخ أو السياسة الأمريكية أو البريطانية أو الفرنسية أو السوفياتية . وكل ما شاهدته فى المكتبات ومخازن الكتب العربية هو عبارة عن ترجمات عربية للتاريخ والسياسة أو الاقتصاد الغربى بأقلام كتاب ومفكرين غربيين . نحن فى أشد الحاجة لتكوين مجموعات من الباحثين العرب ذوى الخبرة والمهارة العالية كى تعمل فى معاهد ومراكز عربية للدراسات الغربية .

◆ تقول لا توجد أى دراسات علمية من الباحثين العرب عن الغرب ؟!

● بالطبع لقد درس الباحثون العرب ، السياسات الخارجية لبعض الدول الغربية تجاه العالم العربى لاسمياً فيما يتعلق بالمسألة الفلسطينية ، وعدا ذلك ، لم يصدر سوى

القليل جداً من الدراسات العربية عن عملية صناعة قرارات السياسة الخارجية الغربية أو عن أى ناحية من نواحي المجتمع الغربى التاريخية، الإقتصادية، السياسية ، الاجتماعية أو الثقافية الخ . . . وينطبق هذا أيضاً على الباحثين العرب المغتربين ، وقلة قليلة منهم توصلت فى دراساتها إلى موضوع الدراسات الغربية أو التغيرات العالمية الفعالة . بل تجد معظم الباحثين العرب المغتربين تخصصوا فى الدراسات الشرق - أوسطية ، أو فى الثقافة والدين والمجتمع العربى ولا سيما فى الصراع العربى الإسرائيلى بالإضافة إلى ذلك ، وكما برهن ادوار سعيد ، فإن معظم الباحثين العرب الذين تدربوا فى الغرب ، المغتربين منهم أو العائدين لمجتمعاتهم ، يدرسون المجتمع العربى والثقافة والتاريخ العربيين والعلاقات العالمية من وجهة نظر استشراقية كما وضعها وطبعها المستشرقون الغربيون .

◆ نحن نذكر الغرب وندرسه ليس من مواقفنا ومصالحنا وإنما كما يريد لنا الغرب أن نراه . . !

● نعم لقد أنتج المفكرون والمثقفون وصانعو السياسة الغربيين ، النماذج والصور المغترية عن التطور المجتمعى الغربى وعملوا على توزيعها وتصديرها إلى دول العالم الثالث بما فيها الدول العربية . وفى الحقيقة تكمن فعالية الغرب ليس فقط فى إنتاج وتصدير السلع والتكنولوجيا بل فى إنتاج وتصدير الأفكار والنماذج والمناهج التى تخدم المصالح الغربية . وقد أدى اعتماد هذه المناهج ، والعمل على أساسها ووصفها بأنها عقلانية وعملية وحتى أخلاقية من قبل قادة العالم الثالث ونخبه المفكرة ، إلى اندماج أكثر فى اقتصاديات السوق الغربية وإلى وضع أكثر اتكالية ومديونية من ذى قبل . وبهذه الطريقة يخدم المثقفون وصانعو السياسة إبان الحكم الاستعمارى المباشر وهى دمج المصير العربى دمجا مباشراً فى الاقتصاديات الغربية . هذا يعنى بكلمات أخرى ، أن التحول الإجماعى الاقتصادى العربى لا يتولد أو يسير ذاتياً بل يعتمد على التغيرات فى اقتصاديات السوق الغربية .

◆ الدعوة إلى الاستغراب يمكن أن تكون المخرج من هذا المأزق أم أن التحرر

الوطني - كما قال لنا الدكتور مصطفى صفوان - هو الذى يفضى إلى تأسيس مثل هذا الاستغراب الذى تدعو له ؟

● فى اعتقادى أن ما يحتاجه العرب لمواجهة هذا الإنتشار الغربى فى المجتمع العربى لا يتمثل فقط فى الأيدولوجيات المناهضة للإمبريالية - كما أن هذه المواجهة لا ينبغي أن تقتصر على الحركات الرجعية السياسية - الاجتماعية أو فى العودة إلى الإيدولوجية والرؤية الدينية وإنما فى الترويج الواعى للاستغراب ولثقافة الاستغراب وخلق دراسة واقية عن الغرب (وحتى عن الشرق) .

◆ البعض يخاف من استخدام مصطلح الاستغراب لأنه ربما يفهمه أنه مماثل للاستشراق .

● الاستشراق كما أوضح إدوارد سعيد هو خطاب مغلق على ذاته وهو رهينة للسلطات الفكرية والسياسية التى أوجدته كى يخدم بانتهازية صناع القرار الغربيين ويعبر عن اهتمامات الحكومات الغربية لذلك فالاستشراق يحمل فى مضمونه السيطرة والتحكم وحتى الاضطهاد للشعوب التى يدرسها ، أما ثقافة الاستغراب التى أطرحها فيجب أن لا تكون الصورة المعكوسة . ولا نهج معرفة من أجل التحكم بشعوب الغرب بل هى ثقافة هدفها تحديد المشرق العربى والغرب على حد سواء . من هنا ستكون ثقافة الاستغراب نقداً للغرب (والشرق) لا مدحا له . وتشكيكا فيه لا تقليداً له ، وتفهما للمشاكل الوجودية لشعوبه وليس عدائية تجاهه ، وثقافة الاستغراب ضرورية ليس فقط لأنها تؤدى إلى تفهم أفضل للغرب بل لأنها تعطينا المنظور الصحيح لفهم مستقبل المجتمعات العربية

◆ من الذى يمكنه تأسيس ثقافة الاستغراب والانطلاق بها نحو الأهداف المرجوة منها فى تقديرى ، دراسة الغرب يجب أن لا تترك للصدفة أو تتم عشوائيا ، بل لابد أن تكون قراراً واعياً ومقصوداً من قبل الدول العربية . أو من قبل جامعة الدول العربية . ويجب أن يشمل هذا القرار إنشاء وتجهيز مراكز ومعاهد ومكتبات للدراسات الغربية ، وأن يتم تكوين جيل جديد من المستغربين العرب كى يساهموا فى دراسة المجتمعات والتاريخ والثقافات الغربية ... لقد حان الوقت الآن لذلك .

كرم خله
حذار من المركزية الشرقية

كرم نظير خله غادر مصر فى عام ١٩٥٨ إلى ألمانيا وظل يعمل فيها حتى الآن وهو يقوم حالياً بالتدريس فى جامعة هامبورج ، كما صدر له العديد من الكتب بالألمانية فضلاً عن نشاطه السياسى والإعلامى فى ألمانيا الغربية دفاعاً عن القضايا العربية فى وسط معاد للعرب . وكانت السلطات الألمانية قد قررت إبعاده فى عام ١٩٨٢ بعد مساهمته فى النشاط ضد غزو إسرائيل للبنان ومذبحة صبرا وشاتيلا ، لكن دعم القوى الديمقراطية فى ألمانيا منع السلطات الألمانية من تنفيذ قرارها بإبعاده خارج ألمانيا . . ومن هنا بدأ الحوار معه . .

♦ من خلال معاشتك عن قرب ، لأجواء الحياة السياسية والثقافية والإعلامية فى الغرب نريد أن نستمتع إلى تصوراتك حول الطريقة التى ينظرون بها إلى الثقافة العربية وممثلها وإلى العرب بصفة عامة ؟

● يمكننى أن أتحدث فقط عن غرب أوروبا وعن ألمانيا الغربية على وجه التحديد ، لأن هذه المنطقة هى التى أعاشها يوماً . منذ البداية أقول - وهذا ليس اكتشافاً من جانبى بل ممارسة يشاهدها الجميع - إن منطقة أوروبا الغربية منحازة فى التناقضات العالمية وهى لا تتبنى قضايا العرب ولا تنظر إليهم إلا كمصدر للاستغلال والربح ، فالعرض العام للثقافة العربية فى ألمانيا هو عرض مجحف ومعاد خاصة فى وسائل الإعلام الرسمية . ويمكن أن أضرب العديد من الأمثلة على ذلك وآخرها عرض أوبرا عابذة فى مصر وهو حدث فى رائع لكن كافة أجهزة الإعلام قد سكنت عنه تماماً أو تكاد لأنه لا توجد لديهم الرغبة فى إظهار أن هناك أحداثاً ثقافية ذات تأثير كبير تقام فى بلد عربى مثل مصر ، هذا من جهة بينما من جهة أخرى تجد ترويجاً واسعاً للأعمال الروائية التى تعرض العرب فى صورة سلبية . فأعمال الروائى الألمانى كارل مابن فى القرن التاسع عشر (وهى قصص مغامرات تعرض العرب بصورة سيئة) لا زالت تطبع حتى اليوم ولا تزال تباع بكميات كبيرة فى الأكشاك . وأساطير لورانس العرب تجد من يأخذها على محمل الجد ، بل الأغرب من ذلك أنك تجد أساتذة جامعات يصدقون هذه الأساطير ويؤمنون فعلاً أن لورانس العرب هو الذى خلق القومية العربية ، وهذه

النماذج التي نواجهها يومياً تثير لدينا الاستفزاز فأنا صراحة ناقم على الثقافة الغربية في طريقة تقديمها للعرب وللثقافة العربية . برأى أن هذا الموقف لا ينم عن جهل أو عدم معرفة وإنما بناء على هدف سياسى معين . وأنا بصدد كتابة مقال عن صورة العرب في ألمانيا وغرب أوروبا ، لتوضيح كيف نشأت هذه الصورة السلبية للعرب وكيف نمت وتطورت .

◆ هناك انتباه واضح لدى كثير من المثقفين العرب إلى صورة العرب السلبية في أجهزة الإعلام الغربية بصفه عامة لكن بوصفك أستاذاً جامعياً في أحد الجامعات الغربية نريد أن نستمع إلى تصوراتك عن هذه الصورة السلبية للعرب وتاريخهم وثقافتهم داخل المقررات التعليمية في مدارس وجامعات الغرب ذات الصلة الرسمية كيف يتلقى في تصورك ، الطالب الأوروبي صورة العربى ثقافة وتاريخاً ؟

● أنا لا أود أن أشير إلى المقررات التي تحتل تفسيرات مختلفة بل أشير إلى تلك التي تعبر عن وقائع أو حقائق ، فمثلاً في أطلس الجغرافيا تجد الجغرافيا الاقتصادية لالمانيا مليئة بالمصانع ، الثروات ، الإنتاج والحضارة وعندما يأتى الطالب إلى منطقة العرب يجد صورة بدوى يجزر جملاً أو راع يسير خلف أغنامه أو راكب حمار ، أو أكواخ متناثرة في صحراء شاسعة ، بحيث ينشأ وعى لدى الطالب منذ الصغر أن العرب هم مجموعة بدو يرتدون جلابيب ولا يفهمون شيئاً فى الدنيا . وفى كتابى الجديد - باللغة الألمانية - عن تاريخ الشعوب العربية أشرت إلى فقرات كثيرة من هذه المقررات التي تهزأ بالعرب تاريخاً وحضارة ، فالطالب فى ألمانيا يقرأ مثلاً فى أحد المقررات وصفاً عن العرب عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد ثم يقولون إن العرب فى ما بعد لا يختلفون عن العرب فى ذلك الوقت . أيضاً فى المقررات التعليمية التي تتناول تاريخ العلم وتاريخ التطور العلمى فى العالم لا تجد غير التركيز على العلماء الغربيين ، أما من سبقهم من العرب فلا أحد يتحدث عنه . . . وهكذا يقدم للأوروبيين ثقافة الصمت عما هو إيجابى لدى العرب والترويج فى الوقت نفسه لما يسئ إليهم .

◆ إذا كيف تفسر هذا الحديث الممل فى الغرب عن أهمية الحوار مع العالم العربى ؟

● إنهم يقصدون بالحوار العربى - الأوروبى شيئاً مختلفاً عما نقصده نحن . فى ألمانيا ، على سبيل المثال ، توجد لجنة مشتركة مع كل دولة عربية يصل عددها إلى مائة . وتضم اللجنة المصرية الألمانية وزيرى الاقتصاد والمالية ووزيرى الخارجية ورجال الأعمال والبنوك والمستثمرين والمصدرين من البلدين . . . وهذا هو الذى يسمونه الحوار العربى - الأوروبى . وهى مسألة تلاعب بالالفاظ ، إذ أن مبدأ الحوار غير موجود . . . قد يكون حكمى قاسياً لكن هذا نابع من خبرتى اليومية . ولو سألتنى منذ ثلاثين عاماً لسمعت منى مديحاً للغرب ، لكن مع طول مدة إقامتى ومع تكشف الحقيقة ومع متابعة الإعلام الألمانى يزداد استيائى يوماً بعد يوم . نعم أنا ملء بالعواطف ولا أستطيع أن أنكر ذلك لكن نقدى مبنى على معرفة موضوعية علمية وعلى معرفة دقيقة بأجهزة الإعلام وبالمقررات التعليمية هنا . . . لكن نقدى أيضاً لا يقتصر على وسائل الإعلام الألمانية بل يشمل وسائل الإعلام العربية . ففى «بون» وحدها توجد ٢٠ سفارة عربية وأغلبها لديها قنصليات فى عديد من المدن الألمانية فضلاً عن مكتب الجامعة العربية . ومع الأسف كل هؤلاء لا يقومون بدورهم على الوجه الأكمل .

◆ بوصفك أستاذاً جامعياً فى إحدى جامعات ألمانيا نريد أن نسمع وجهة نظرك فى هذا التناقض السائد فى معظم العواصم الغربية ما بين حديث يتغنى بالبحث عن الحقيقة والموضوعية واحترام حقوق الإنسان وما بين ممارسة مناقضة لذلك . كيف تفسر هذه المفارقة بين حديث لا ينتهى عن احترام الحقيقة وحقوق الإنسان بينما عندما يكون الأمر متعلقاً بالعرب فإننا نجد هذا الحديث يتوارى تدريجياً . كيف تفسر اشتباه الوعى الغربى هذا ؟

● أنا متفق معك فى ما تقول وأرى فعلاً أن هذا تناقضاً حقيقياً فى أوروبا الغربية . وهو تناقض يعكس انهياراً واضحاً للقيم . أنا لا أريد أن أمجد العالم العربى لأن فيه نقاط ضعف كثيرة . ولو أن الموضوع هو نقد المجتمع العربى لسمعت منى الكثير . لكن حسب رأى إن البعد القيمى موجود فى العالم العربى ، على الرغم من كل المأسى ونقاط الضعف التى يعيشها . الإنسان العربى لديه قيم ثابتة يحترمها بينما الأمر فى أوروبا

مختلف تماماً، لكننى فى الوقت ذاته أريد أن أكون حذراً عندما أتحدث عن أوروبا الغربية لأنه توجد فيها قوى تناضل من أجل السلام وحركة ديمقراطية ، من دون شك لكن للأسف الصوت المسموع فيها هو صوت الإعلام الذى لا يحترم القيم الذى ليست لديه قيم يحرص على احترامها . والأمثلة على ذلك عديدة . ففى ألمانيا يوجد العديد من الصحافيين «النجوم» الذين ينشرون عن البلاد العربية من دون أن يعرفوا أى كلمة عن العربية، ولا أعرف كيف يأتون بهذه الأخبار التى يتحدثون عنها . هناك صحافى ألمانى مشهور يدعى «شول لاتور» ألف كتاباً عن البلاد العربية واعطاه عنوان : «الله مع الصابرين» ويريد أن يعطى للقراء بدءاً من العنوان صورة عن العرب تثير النفور منهم وتصفهم بأنهم لا يفعلون شيئاً ، بينما هذا المؤلف لا يعرف فى الواقع كلمة عربية واحدة . فكيف يستقى معلوماته ، وكيف يثق فى من نقل له الكلام الذى يرويه . والغريب أن هذا الكتاب ثم ترويجه بصورة خيالية ، ولا يغيب اسم مؤلفه عن أجهزة التليفزيون أو الصحف أسبوعياً . وأخطر ما فى هذا الكتاب الذى يعلم الألمان كيف ينظرون إلى العرب هو أنه ينشر «نظرية جديدة» تقول إن الذى يهدد السلام فى العالم ليس حسب رايه القنبلة الذرية أو الصواريخ المنتشرة فى أوروبا أو التسابق على التسليح والجوع بل الذى يهدد سلام العالم ، أولاً هى المقاومة الفلسطينية وحركات التحرر الوطنى فى العالم . وأنه قد يأتى يوم يغلق فيه العرب حنفية البترول على أوروبا الغربية . . وللأسف فإن كثيراً من الصحافيين فقدوا الإحساس بالحقيقة وأن ما يكتبونه عن البلاد العربية لا يتفق مع مبدأ احترام الحقيقة .

◆ ألا تعتقد أن هذه الأحكام المسبقة فى أوروبا عن العرب قد لا تشجع على وجود تفاعل وتواصل بيننا وبين هذا «العالم الحر» ؟

● نعم الأحكام المسبقة عقبة كأداء ، لكن لا ينبغي أن نستسلم .

◆ أريد أن أقول ، إذا كانوا لا يريدون أن يفهمونا ويصرون على سوء فهم متعمد ، فلماذا نسعى نحن للحوار معهم ؟ لماذا لا نترك مسألة الحوار جانباً حتى يعيد الغرب تصحيح وعيه بنا من جديد ؟

فى الغرب هناك القوى الرسمية السائدة وهناك أيضاً قوى ديمقراطية . لا بد أن نعرف أن هناك قوى كثيرة فى أوروبا مهتمة بالتفاهم معنا .

◆ كيف تتعامل إذاً مع عالم تغلب فيه بالاحكام المسبقة ؟!

● هذه عملية صعبة للغاية ، فإظهار الحقائق بشكل إيجابى ومقنع هى عملية بالغة الأهمية . فى البداية فكرت أن على الطلاب العرب أن يقاطعوا جامعات الغرب لكننى توصلت إلى أن هذا رد غير حكيم . ففى أوروبا تراكم علمى لم يأت بالصدفة بل جاء نتيجة استغلال إمبريالى لعدة قرون . وبالتالي علينا أن نستفيد من هذا التراكم العلمى حتى نرفع من مستوى العلوم عندنا بدرجة تغنيانا عن جامعاتهم وتجعلنا عند مستوى التبادل العلمى . عندى أمل وتفاؤل ، لكن المشكلة لا زالت قائمة ، أى كيف تحمى الكادر العربى فى أوروبا الغربية من التشويه وتغييب الملامح وأن يظل محتفظاً بثقافته وقيمه ...

◆ كتابك الأخير عن تاريخ الشعوب العربية - باللغة الألمانية - هل هو موجه إلى القارئ الألمانى من أجل تغيير الصورة المرسومة عن العرب وتاريخهم ، أم أن له أهدافاً أخرى ؟

● هناك عدة أسباب دفعتنى إلى كتابة هذا الكتاب . أولاً هناك سبب مباشر هو أنه لا يوجد فى الوقت الحاضر كتاب شامل عن العرب باللغة الألمانية . هنا كتابان فقط وقد نفدا وبالتالي لا يجد الشخص الألمانى الذى يريد أن يتعرف إلى العرب وتاريخهم كتاباً كى يقرأه . وهناك أيضاً طموح علمى بغض النظر عن أن الشعوب الغربية قريبة من قلبى وارتباطى العاطفى بها فعندما تسمع آراء خاطئة يتكون لديك الحافز أن تكتب الأشياء الصحيحة عن هذا الموضوع . وهذا ما دفعنى إلى تقديم وجهة نظر أخرى عن تاريخ العرب . وأبدأ كتابى بالتأريخ للعرب منذ الـ ١٠٠٠٠ سنة فمن الإجحاف أن يتم تصوير تاريخ العرب انطلاقاً من الـ ١٣٠٠ سنة الأخيرة ، وأنا بصدد اكتشاف مسائل عظيمة فى تاريخ العرب قبل الإسلام . مثلاً ظاهرة المثنى هى ظاهرة فى منتهى الأهمية ، إنها ظاهرة لا تختلط فقط من الناحية العددية بين المفرد والجمع ، بل هى تعبير عن

إحساس جدلى قوى، فالعدد لدى العرب فى منتهى الأهمية أيضاً فى الفلسفة المادية عند قدامى العرب . وقد أعطيت مساحة كبيرة فى كتابى لهذا المجتمع العربى القديم . فى تعاملى مع التاريخ العربى تجمعت لدى اكتشافات وتراكم علمى وأصبحت عندى نظرية واضحة وهذا ما دفعنى لتدوين هذه الملاحظات بشكل منهجى بالنسبة لفترة الإسلام فى تاريخ العرب فقد كشفت الافتراءات على العرب خاصة أن هناك اتجاهاً فى أوروبا الغربية يميل إلى إظهار العرب بصورة متخلفة ومتأخرة وأن سبب ذلك يعود إلى الإسلام . لكن هذا غير صحيح ولا بد أن نثبت لهم نقض ذلك .

◆ هناك بعض المستشرقين يساءلون : لماذا لا توجد دراسات شرقية عن الغرب مثلما هناك دراسات غربية عن الشرق . ماذا تقول عن هذا التساؤل ؟

● ما هو الاستشراق أولاً ؟ اليس هو علم أنتجه الاستعمار والإمبريالية . جامعة هامبورج ذاتها والتي أعمل فيها كان اسمها الأصلى عندما تأسست منذ ٧٠ سنة هو «المعهد الكولونيالى» فالمسألة واضحة تماماً إذ ثمة ارتباط بين تاريخ الاستشراق وتاريخ الاستعمار . لكن كون بعض المستشرقين اليوم لا يخدمون الاستعمار ، فإن هذه مسألة أخرى لم تغير من الاتجاه العام للاستشراق . فالاستشراق يخدم إلى اليوم الأهداف الإمبريالية بوسائل مختلفة، فإذا زرت أحد هذه الأقسام الاستشراقية ستجدهم يقسمون العالم العربى إلى طوائف وفئات ، فمع الاستشراق لا تجد شيئاً اسمه اليمن بل الزيديين ، ولا تجد شيئاً اسمه لبنان بل السنة الشيعة الموارنة ، وعشرين طائفة وطائفة . وهكذا يظهر هدف الاستشراق وهو تفتيت القومية العربية وتدعيم الطائفية ، الغرب أنهم عندما يدرسون بلادنا يسمون ذلك استشراقاً وعندما ندرس نحن الغرب يسمون ذلك دراسة العالم والمدنية والحضارة .

◆ ومع ذلك دعنى أسألك ، هل هناك فعلاً دراسات شرقية لإزاء الغرب، هل تعتقد أننا قمنا بهذا الاستغراب ؟

● توجد دراسة الآداب واللغات الغربية فى جامعاتنا .

◆ لا .. أقصد دراستها من خلال وجهة نظر شرقية وليس كما هي

● لا ، لدينا وجهة نظر إنسانية . نحن لا نملك هذا التفكير العنصرى الموجود فى الغرب . العنصرية فى رأى مرتبطة بالإمبريالية ، مرتبطة بالنظرة من أعلى إلى أسفل ، وإذا كان لدينا من ينظر إلى الغرب نظرة بدائية مرتبطة بالجهل وليس بالاستغلال كما هو الشأن مع الإمبريالية العالمية ... فى بلادنا ندرس الهند والسودان وفرنسا وألمانيا وفى إحساس كل منا أن بلداننا تكون أجزاء من حضارة إنسانية ، أما الباحث الغربى عندما يدرس مصر أو السعودية فإنه يشعر أنه أمام مجتمع بدائى ويدرس هذا المجتمع من أعلى إلى أسفل وهذه النظرة العنصرية لم تمت بعد .

◆ فى هذه الحالة هل تعتقد أن موقفنا هذا سليم ، أى أننا ندرسهم بروح إنسانية فى الوقت الذى لم تمت فيه نظرتهم العنصرية إلينا؟!

● أجيب بنعم ولا . نعم من ناحية أن فرنسا ليست فقط نابليون والاستعمار والإمبريالية بل فيها أيضاً تراث ديمقراطى وثورى ، ومن أجل هذا لا بد أن تستمر نظرتنا . وأجيب فى الوقت نفسه بـ «لا» عندما أتذكر دور فرنسا الاستعماري . لذلك أدعو دائما إلى أن يكون هناك تعليم وتدریس فى مدارسنا وجامعاتنا لا يتغاضى عن الدور الاستعماري للدول الأوروبية . وأن يكون تعاملنا واعياً ، وقد أشرت فى كتابى «تاريخ الشعوب العربية» إلى أمثلة من كتب التاريخ التى تصور اعتداءات الدول الأوروبية على شعوب أخرى بأنه «حملة استكشافية» ، بينما عندما يكون الأمر متعلقاً بالعرب فإنهم يستخدمون أسوأ الصفات . لكننى ذكرت هذه الأشياء لأقول إن العنصرية ما زالت موجودة فى الغرب لكننى لا أدعو إلى مجابقتها بعنصرية مضادة بل موقف إنسانى . نحن مثلاً ندين الظلم والتعذيب والهمجية والتشكيل بنا ولكن لا ندين الفرنسى كفرنسى أو الألمانى كألمانى .

◆ أنا متفق معك فى أنه لا ينبغي أن نواجه العنصرية بعنصرية مضادة ، لكن من جهة أخرى فإن الدعوة إلى وجود دراسات شرقية عن الغرب تنطلق من واقع أن العالم

منقسم فعلاً إلى حضارات وثقافات مختلفة وبالتالي - بغض النظر عن المدلول المباشر للكلمات الاستشراق والاستغراب - من الطبيعي أن تكون هناك وجهة نظر تقابل الاستشراق أى دراسات من الشرق إزاء الغرب . فلماذا لا تقبل المسألة في هذا النطاق وليس في نطاق أنها دعوة عنصرية لمواجهة عنصرية الغرب . لماذا أدرس الثقافة الغربية كغربي وأنا شرقي عربي . ألم تقل في بداية الحديث إن القيم ما والت تلعب دوراً رئيسياً في المجتمع العربي . لماذا لا تظهر إذاً هذه القيم في نظرتنا للغرب ؟

● أولاً فأتى أن أعلق على قول بعض المستشرقين الذين يقولون - كما ذكرت لى - لماذا لا يوجد استغراب كما أن هناك استشراقاً . وفي الواقع اعترف بأنني متحاز ولست محايداً في هذه القضية . ففي أوروبا الغربية تركيز للثروة العالمية عبر قرون من النهب والاستغلال ، ولديهم أيضاً تراكم هائل للمعلومات وهذا لم يأت صدفة ، وعندهم إمكانيات للمعرفة أكثر منا ، وثانياً أنا أعذر المقهور ولا أعذر القاهر ومع ذلك أجرؤ على القول بأن لدينا كثيراً من العلماء والمفكرين والصحافيين يتوخون الدقة تماماً في حديثهم عن الغرب أكثر من «الموضوعية» المتوفرة لدى أقرانهم الغربيين . فالعالم مقسم حالياً إلى دول غنية بصورة فاحشة ودول فقيرة بصورة لا تصدق . وهناك واحد من اثنين ، إما أن يقصر الفرق بين الغنى في الشمال والفقر في الجنوب ، وإما أن يستمر طمس هذه المعادلة والترويج لنظرية عنصرية تقول إن الإنسان الغربي إنسان ذكي ، مثقف ويعرف كيف يستفيد من الطاقة ، بينما العرب كسالى وغير أذكاء ولا يعرفون كيف يستفيدون من الطاقات المخزنة لديهم ، وذلك سبب فقرهم ومآسيتهم ، الأمر الذي ينقل إلى المواطن الأوروبي مقومات العنصرية منذ الطفولة ، أما بالنسبة إلى الدعوة إلى دراسات شرقية إزاء الغرب فانا متفق مع هذا لكن أريد أن أشدد على التقسيم والاستغلال بين دول غنية ودول فقيرة قبل التشديد على التقسيم الجغرافي بين شرق وغرب .

◆ الدعوة إلى دراسات شرقية لا تخفي استغلال الدول الغنية الدول الفقيرة بل هي دعوة لإظهار إن لهذا الاستغلال الاقتصادي وجهاً ثقافياً أيضاً ، وأرى أن الدعوة إلى دراسات شرقية (استغراب) هي توضيح أكثر قوة وعمقاً لمسألة الاستغلال وذلك من دون الوقوع في فخاخ العنصرية أو التشويه .

● أنا متفق معك فى أنه لا ينبغي علينا أن نفع فى (الفخ) الذى وقعوا فيه وأن نقول كما تعودنا فى الاستشراق علينا أن نعاديتهم فى الاستغراب (دراسات شرقية)، وأن لا نفع فى فتح رؤية التاريخ الغربى على مقاييس خاصة بنا من خلال مركزية شرقية أو عربية كما يفعل الغربى الذى يقترب منا كلما تحدثنا مثله أو لبسنا مثله . . .

◆ نعم الدعوة إلى دراسات شرقية عن الغرب (استغراب) ليس طموحها أن تكرر أخطاء الغربيين أو عنصريتهم . إنها دعوة إلى الوعى الذاتى والانطلاق من أطر ذاتية للمعرفة وليس من أطر عامة مطلقة، أناه دعوة إلى إعادة تأكيد الأسس والمراجع الذاتية للثقافة العربية فعندما أدرس المجتمع الفرنسى أو غيره هل أدرسه كفرنسى أم كشرقى عربى . هل هذا سؤال خاطئ أم صحيح ؟

● ليس خاطئاً ، وأضيف أن التجرد عن هذه الأسس الذاتية هو اغتراب ، كما أن الإنسان برغم أنه لا يستطيع أن يقفز على ظله إلا أن هذا يحدث أحياناً فى بلادنا .

◆ فى هذه الحالة أنت تكتب التاريخ انطلاقاً من أهداف معينة تريد تحقيقها، وبالتالي . . هل يمكن أن نقول إنك تخلصت من وهم الكتابة العلمية المحايدة ؟

● منذ بداية تكوينى العلمى ونحن ندرس أن العلم محايد لكن مع تطورى العلمى والمعرفى بدأت أرفض هذه النظرية . والغريب أن غالبية الأساتذة فى الجامعات الألمانية يرفعون شعار الحياد العلمى بينما إذا نظرنا إلى حياتهم العلمية وإنتاجهم سنجد أن كلمة حياد لا معنى لها . فهم محايدون طالما تتفق معهم فى الحكم السائد . والطالب الذى ينتقد الأوضاع يرسل لأنه غير محايد رغم أن الحقيقة تقول إن الأستاذ ذاته هو المنحاز وليس الطالب . وفى تصورى أن المدرسة التى كانت تجرى وراء الحياد فى العلم قد سقطت نهائياً وذلك على الرغم من أن ٩٠٪ أكثر أساتذة الجامعات الألمانية لايزالون يؤمنون بالحياد العلمى حتى اليوم . وأرى أن هناك فرقاً بين أحادية الجانب والإنحياز . أحادية الجانب عمل غير علمى لا يرى الجانب الآخر من الصورة بينما المنحاز علمياً يشاهد هذا الجانب الآخر ويرى التطور نتيجة الصراع ما بين الطرفين .

◆ هل وجهة نظرك بضرورة الانحياز تنطبق أيضاً على مناهج الكتابة التاريخية؟ بمعنى

هل تقول إنك تخلصت أيضاً من وهم عالمية المناهج في مجال العلوم الإنسانية ؛ وأطرح هكذا التساؤل ، لأن هناك كثيراً من المثقفين العرب لا يزالون يؤمنون بهذا الوهم ويتعاملون مع المناهج كمناهج عامة واحدة تصلح في كل زمان ومكان ؟ ما شأننا وممرض - ولا أقول منهج - التحليل النفسي المنتشر في الغرب ؟

● أنا متفق معك في أن طريقة تفكير هذا البعض الذي تقصده هي خطيرة فعلاً بل أقول إنها مأساة كبيرة عندما نعيد إنتاج الفكر الإمبريالي ليس عن طريق غزو من الخارج والذي يعيد إنتاج الفكر الإمبريالي ، ولا بد أن نقاوم هذا ، وموضوع المنهج يحتاج إلى منهج . وإحدى الظواهر الهامة للعلم في المجتمع الرأسمالي في الفترة الأخيرة هي أن كل النظرية المعرفية قد ألغيت . جامعة هامبورج مثلاً بها خمسة آلاف محاضرة في الأسبوع الواحد ولا توجد محاضرة واحدة منها عن النظرية المعرفية . وأنا لا أرى في المستقبل القريب إمكانية تعويض هذه الناحية لأننا نفكر ونكتب عن ضرورة إصلاح المقررات ونلفت النظر لكن بدون أي تجاوب معنا . لكن أقول وأشد وأشد باستمرار على ضرورة أن يعود العلم إلى وضعه في إطار نظرية معرفية معينة بناء على منهج ولا بد أن تكون هناك نظرية عامة للعلم الذي يدرس . . .

◆ هل تستطيع القول إن جامعاتنا العربية تلك مناهج عربية في البحث والتفكير في نطاق العلوم الإنسانية أم أنها جامعات مازالت بدورها غارقة في خرافة المناهج العلمية الحديثة الوافدة من هنا أو هناك ؟

● فلنكن صرحاء مع أنفسنا ، فرغم الثراء العلمي الكبير لأجيال عربية إشنغلت في البحث ورغم التراكم العلمي الهائل لعلماء عرب في أوروبا . لكن مع الأسف الشديد فإن جامعاتنا لا تزال تقوم بدور عملية إعادة إنتاج التفكير الغربي . واعتقد أن تعبير "المركزية الأوروبية" ليس وهماً بل حقيقة واقعة . نحن هنا في جامعاتنا العربية نردد ما يقال في الغرب ، والمنهج هو العربية والثقافة هي العربية والحضارة هي العربية . لكن أريد أن أؤكد ، رغم دفاعي المستميت عن العرب إلا أنني إنسان يشترك في صفة الإنسان

مع كثير من البشر فى أنحاء المعمورة فأنا فى شخصية واحدة مثل: الوطنى المصرى والقومى العربى والإنسان العالمى وليست هذه أشياء متعارضة بل هى أشياء تكمل بعضها ، ليس لدى اتجاه أنى عربى مميز عن الأفارقة أو عن البشر عامة . نحن نتميز فقط عنهم لأننا أصحاب قضية ومقهورون وأرضنا مملوكة . أننا نتميز عن الآخرين بحكم أننا ضحايا . لكن عندما ينتهى هذا الاضطهاد ينتهى التمييز . نعم هناك إثماء عربى . . هذا موجود ، إنما نحن أيضاً جزء من البشر لسنا أعلى منهم ولا أقل منهم كذلك .

أنطوان المقدسى

للغرب دائما وجهان

أنطوان المقدسى أحد أبرز المثقفين السوريين والعرب اطلاعاً على الثقافة الغربية ، وإسهامه فى مجال التأليف والترجمة ترك ثماره الواضحة فى إنجازات وزارة الثقافة والإرشاد القومى بسوريا ، وكان من أوائل الذين قاموا بالتعريف بالتيارات والاتجاهات الفكرية والسياسية فى عواصم الغرب الكبرى .

شارك أنطوان المقدسى فى الكثير من الندوات الهامة وألقى عدداً من البحوث المتميزة ، من أشهرها دراسته عن " الصورة العربية للحضارة الغربية والاستجابة لها " عام ١٩٨٣ ، وهى دراسة رائدة فى ميدانها ، وتعتبر أقرب أعماله إلى موضوع كتابنا الباحث ، من خلال الحوار مع مفكرينا العرب ، عن تجديد موقفنا من الغرب اليوم .

التقينا أنطوان المقدسى فى العاصمة التونسية عام ١٩٨٨ أثناء انعقاد ندوة «العقلانية العربية» ، وقبل أن نحاوره بصدد دراسته الشهيرة عن صورتنا للغرب ، طرحنا عليه أولاً السؤال الذى يتردد من وقت لآخر على ألسنة بعض المستشرقين :

◆ بعض المستشرقين ، والإعلاميين الغربيين ، يقولون إن لدينا - نحن العرب - سوء فهم وعدم دقة فى إدراك وتصور الغرب ، وأتينا لا نملك دراسات وأبحاث عن الغرب توافى ما أنتجوه من دراسات وأبحاث عن الشرق ، ماذا تقول عن هذا الكلام ؟

● نحن صورتنا عن الغرب أصح وأدق من صورتهم لنا . انظر إلى كتب التاريخ فى المدارس الغربية غالباً ما تجدها تشوه صورة العرب . بينما كُتبت أكثر إنصافاً بكثير من كتبهم . لذلك أنا أعتبر هذا السؤال الذى يطرحه بعضهم سؤالاً لا معنى له ، لأننا - نحن العرب - نعتبر أن الغرب أكثر تقدماً منا . ونذهب إليه لكى نفتبس عنه أصول الحضارة الحديثة ، ونقول دوماً : إن الغربيين اقتبسوا فى الماضى عنا ، ومن حقنا أن نأخذ عنهم . كما نقول إن الحضارة الغربية ظاهرة عالمية وليست ملكاً لأحد ، ومن المؤكد أننا نعرف عن الغرب ، أو عن أوروبا بشكل عام ، أكثر بكثير مما يعرفه الأوروبيون عنا . إلا أن الغربيين درسوا تاريخهم بعناية ، أما تاريخنا فقد بقى مجهولاً لنا

بسبب قرون الانحطاط التي أوقفت مفكرينا وأدباءنا عن الكتابة ...

بالطبع قد نجد بعض النماذج الهامة في كتب كبار المستشرقين مثل : استشهاد الحلاج لماسينيون ، وكتاب ليفي بروفنسال عن الأندلس ، أو كتاب بروكلمان عن تاريخ الأدب العربي . . وقد يجوز السؤال هل كتبنا نحن مثل هذه الكتب عن شكيبيرو وهوجو وغيرهم من أدباء ومفكرى الغرب . ربما تكون الإجابة فى اللحظة الراهنة بالنفى لكننا مع ذلك فى طريقنا للنهوض ، وبدأنا بمعالجة أمور أساسية عن الغرب ذاته ، فمثلاً وضع أحد مفكرينا كتاباً عن " المرأة العربية فى الملاحم الأوربية فى القرون الوسطى " . مما يدل على أنه درس بعناية فائقة اللغة اللاتينية ولغة القرون الوسطى . كما أن وهيب عطا الله قد وضع كتاباً مرجعياً عن « أدونيس فى الأدب اليونانى » ، وهو اليوم من المراجع العلمية ، ومع تقدمنا فى هذا الاتجاه يمكن أن نكتب أشياء كثيرة عن الغرب وعن أنفسنا وتكون مفيدة لنا ولهم . لكننى أكرر ، مرة أخرى ، أننا نعرف عن الغرب أكثر بكثير مما يعرفه عنا ، لأن أغلب المثقفين العرب يجيدون لغة أو أكثر من هذه اللغات الأوربية ، قراءة وكتابة ، فى حين لا نعرف إلا قلة قليلة من المستشرقين ، منهم أندريه ميكيل مثلاً ، من الذين يكتبون باللغة العربية . وهذا الجهل باللغة العربية هو الذى يجعل المستشرق يخطئ ، ويدفعنا إلى انتقاده عن حق . فهناك أمور دقيقة فى كل ثقافة لا يدركها ابن الثقافة الأخرى إلا من عاش زمننا طويلاً مع عالم هذه الثقافة وأجاد الكتابة بلغتها . ومن ثم ، فإن مدارسنا كلها وبكل درجاتها ، أى من الصفوف الابتدائية إلى الجامعة ، تدرس تاريخ أوروبا ولغاتها ، فى حين أن اللغة العربية وآدابها لا يدرسها من الأوربيين إلا المتخصصين .

◆ يقولون إنه لا يوجد نظام من البحث العلمى المنهجى والمنظم فيما يتعلق بدراسة الغرب من جانبنا ، وأن ما هو موجود ، محاولات فردية متناثرة هنا وهناك ؟

● لقد بدأت تتكون الآن هذه التقاليد البحثية العلمية . فى العام (١٩٨٨) اشتركت فى مناقشة ثلاثة رسائل جامعية ، بجامعة دمشق بقسم الفلسفة ، الأولى عن برجسون ،

والثانية عن سارتر ، والثالثة عن البنيويين الفرنسيين (ليفي شتروس ، ميشيل فوكو ، لوى التوسير) ، وعدد الرسائل التي تكتب عن قضايا غربية أو أوربية فى جامعتنا أضعاف ما يكتبه الأوروبيون عنا . وهذه بداية ، ولا تنس أن أغلب الجامعات العربية تعود فى نشأتها إلى نصف قرن ، فى حين أن معظم الجامعات الغربية تأسست فى القرن الثالث عشر أو بعد ذلك . ولهذا فاعتراض السيد المستشرق ساقط ، ولا معنى له ، وليعذرني إذا كنت قاسيا . وأنا لا أنكر أنه يوجد بين المستشرقين عدد ممن اتسموا بنزاهة كاملة ، ولكن يوجد بينهم مع الأسف من يكره العرب ، ويحقد عليهم ، ويحاول رغم علمه الوفير ، أن يبرز فقط مثالبهم ، وأنا أعرف بعضهم شخصيا ، ولا ألومهم ، فالناس أنواع ، فى أعلى المستويات الثقافية ، وفى أدناها ، بين العوام والنخبة ، والإنصاف يقتضى أن نقول دوماً ما لنا وما علينا . فنحن أمة فى مرحلة تعيد تكوين نفسها ، ومراحل التكوين دوماً صعبة . ونأمل فى المستقبل القريب أن نصل إلى المستوى الجيد الذى نرضاه لأنفسنا . وعلينا ، من جهة العرب والغرب ، أن نرى دوماً فى الآخر الجانب الحسن وأن لا نستمر مع المهاترات .

◆ **الا ترى أن العالم العربى والإسلامى يشهد الآن بدايات صورة جديدة عن الغرب غير تلك المألوفة عنه فى ثقافتنا الحديثة ؟**

● لا أعتقد أولاً أنه توجد صورة واحدة عن الغرب عندنا . هناك صور كثيرة تبدلت بتبدل المراحل التاريخية . فمن الطهطاوى مثلاً وعلى مبارك إلى شبلى شميل توجد مسافة زمنية قصيرة ، ولكن المسافة فى فهم الآخر كبيرة جداً . والمواطن الجزائرى العادى كانت له قبل الاستقلال صورة عن فرنسا . واليوم تجد مع الأجيال الجديدة صورة أخرى . وبالجملة لقد اعتبرنا نحن العرب ، فى بداية هذا القرن ، الغرب نموذجاً للحضارة وللأخلاق الرفيعة ، ولكن مع الأسف أسرع الغرب بتكذيب ذاته بعد سنوات قليلة فى عام ١٩١٦ وهو عام اتفاق الشريف حسين مع مكماهون وهو عام إتفاقية سايكس بيكو ، التى اقتسمت المنطقة العربية بين إنجلترا وفرنسا وبعدها بقليل معركة

ميسلون ... الخ . إن للغرب وجهين ، وجه استعماري ، وآخر ثقافى إنسانى ، ويمكن تصنيف الغربيين بين هاتين السفتين . . فلا يمكن إلقاء حكم واحد أو صورة واحدة . فضلا عن أن كل إنسان يكون صورة ما عن الآخر وفقاً لمزاجه ووضعه . فالأديب غير الدارس ، يطلب الخيال الذى يذهب أبعد من الواقع ، وستبقى علاقتنا مع الغرب علاقة مد وجزر ، صعود وهبوط ، حتى تستقر البلاد العربية وتحصل على حقوقها .

◆ قلت إن صورة الغرب عندنا ليست واحدة . وأعددت دراسة عن «الصورة العربية للحضارة الغربية والاستجابة لها» . فما هى هذه الصورة ، بالنسبة لك وكيف تتكون : وما هى المراحل التى تمر بها ؟

● الصورة بشكل عام ، كما أوضحت فى دراستى ، ليست كيانا ثابتا ، كما أنها ليست مجموعة أشكال واللوان وحسب ، بل هى وجه من أوجه رد فعلنا على فعل الآخر ، وقد تكون فعل الإبصار ، الذى به ندرك الآخر ونجسده ، والصورة هى رؤية أيضا نحقق عبرها لأنفسنا مثالا للآخر ، تبرز فيه مواطن القوة ومواطن الضعف أو بالأحرى ما نعتقده كذلك . والرؤية ، كما أراها ، هى فعل جماعى ، عفوئى ، سابق على التحليل ، تتألف من مجموعة الصور والتصورات والأفكار والأحكام والمعتقدات والأعراف والعواطف والانفعالات والأساطير ، التى تلخص فى ذهن شعب ما شعباً آخر : وترجمها هذا الشعب عمليا فى مواقف وحركات . . . وسلوكات جماعية ، حتى لو قام بها فرد واحد . وهى ذات مستويات متعددة وتتكون أول ما تتكون فى الشعور ، وعندما تزول الملابس التى استدعتها ، تنوارى مخلفات ورائها ترسبات ، هى مركبات انفعالية تتراكم فى اللاشعور حيث تتحول إلى قوة متفجرة مكتوبة تعود إلى العمل عندما تستدعيها الأحداث ، فتتأججها فتأجج العالم كله ، لأنها لا تدخل فى أى إطار من أطر فلسفات التاريخ ولا أى إطار تفسيرى آخر . . .

● والصورة تمر أثناء تطورها بمراحل ثلاث ، فى تصورى ، هى أيضاً من مستويات

وجودها : الأولى جماعية تتكون معها الصورة عفوياً إثر الاتصال الأول بين شعب وشعب وتعتبر الجماعة عن هذه الصورة ، بالأجناس الأدبية الخاصة بها ومنها الحكم الشعبية والكلمات المأثورة والأساطير والحكايات . . . والثانية فردية تتألف مما يكتبه كُتّاب شعب عن شعب آخر ، وبهذا يتأثرون ويؤثرون في الرؤية الشعبية . فيعبرون عنها وفي الوقت ذاته يعبر كل منهم عن وجهة نظره . . والمرحلة الثالثة تبدأ في زمن النقد الذي يأتي متأخراً ، عندما يتناول التحليل المنهجي صور فترة زمنية مضت وانقضت ، فيضع كل صورة في إطارها ليبين أنها فقدت مسوغات وجودها ، وبهذا يخلع عنها هالتها السحرية ويفرغها من شحنتها الانفعالية . . .

◆ دراستك عن « الصورة العربية للحضارة الغربية » . هل يمكن أن نقول إنها تمهد ، في ثقافتنا ، إلى هذه المرحلة الثالثة التي نتحدث عنها تحت عنوان « زمن النقد » ؟

● في الحقيقة مرت الصورة العربية للغرب بثلاث مراحل ، هي مفاصل تاريخنا السياسي في عصر النهضة ، أي منذ غزو نابليون لمصر (١٧٩٨-١٨٠١) إلى أيامنا . الأولى وتمتد حتى نهاية الحرب العالمية الأولى ، وقد رافقت بدايات الاستعمار والتحديث ، والثانية هي مرحلة ما بين الحربين ورافقت توطد الاستعمار وحروب التحرير . والثالثة مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية ، أي مرحلة الاستقلال والثورة العلمية - التقنية التي حلت محل الثورة الصناعية وواكبت تبدلات كثيرة في العالم كله تناولت القيم والبنى والأيدولوجيات الموروثة . . في المرحلة الأولى والثانية كانت علاقتنا مع الغرب وحده ، أي بالدرجة الأولى مع الدولتين العظميين إذ ذاك ، أما المرحلة الثالثة فارتد الغرب إلى المرتبة الثانية وحلت محله دول أخرى أكثر قوة منه بكثير ، واتسع العالم ، إذ شمل أقطاراً كانت مستعمرة فاستقلت ، وكانت تعيش على هامش التاريخ فصارت من قواه . وتعددت مراكز القوى . فشمة الآن انقسام أوروبا إلى شطرين : الشرق والغرب ، والعالم إلى جنوب فقير وشمال غني ، إلى دول منحازة وأخرى غير منحازة . . وتساير صورة العرب للغرب تطور العلائق بيننا وبينه ، فتبدل بتبدلها . .

◆ ماذا عن المرحلة الأولى التى أشرت فيها إلى الطهطاوى وتلخيص باريز ، ثم

الصورة - البرنامج ، والصورة - المحاكاة ١٢

● من المعروف أن البواكير الثقافية الأولى قد ظهرت إثر عودة أول بعثة دراسية أوفدها محمد على باشا إلى باريس ، ومن يومها إلى اليوم ما برح الغرب حاضراً بشكل أو بآخر فى أغلب الكتابات العربية ، حيث قدم لنا الطهطاوى (١٨٠١-١٨٧٣) كتاب "تخليص الإبريز فى تلخيص باريز" ، الذى ظهر عام ١٨٣١ وأعيد نشره ثلاث مرات فى القرن التاسع عشر ، والذى يعتبر أول - وربما أكمل - صورة عربية للحضارة الغربية كما تبدى فى باريس ، التى كانت إذ ذاك أكمل نماذجها . فالكتاب يتضمن وصفاً غنياً بالتفاصيل لحياة الباريسيين فى جوانبها الأهم ، أولاً السكن واللباس والغذاء . . . ومن ثم التنظيمات الإدارية والدستورية . ويشدد الطهطاوى على الخدمات العامة التى لا مثيل لها فى بلاده كالمدارس والجامعات والمعاهد العلمية ، أو كالحدايق الواسعة المفتوحة للجميع ومراكز العناية بالصحة ومكافحة الحرائق . . . إلى ذلك عرض مفصل للدستور والمؤسسات الدستورية التى تضمن للجميع حرية الرأى والكلام والتجمع والاعتقاد . . . وكان الطهطاوى يحرص باستمرار على أن يقيم بينه وبين الحضارة الغربية التى يعجب بها ، فاصلاً يحميه شر الاندماج ، فيكثر لهذا الغرض من ترداد الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة والشواهد الشعرية وأخبار العرب . . . ليؤكد هويته الإسلامية - المصرية - العربية . . . كما أنه يستخدم المعايير الإسلامية للكشف عن ثغرات الحضارة الفرنسية ، وأهمها الربا ، واستهتار الفرد بالقيم الأخلاقية والدينية وسهولة المرأة وتزلف الرجل لها . . . ويطلق على الفرنسيين أحياناً اسم "نصارى" ، وهو يعلم أن قيمهم ومؤسساتهم لا علاقة لها بالمسيحية إذ ذاك . وكانت استجابة الطهطاوى لصورة باريس هذه سريعة المفعول ، فهو يشرع بالعمل من أجل تحقيق ما يمكن تحقيقه منه إثر عودته من العاصمة الفرنسية ، فيترجم ويؤلف ، وفى الوقت ذاته يشغل مناصب عليا فى الإدارات الثقافية . ويؤسس "دار الألسن" التى ما تزال قائمة حتى الآن . ويبدو أنه كان يعدّها لتكون بمثابة جامعة متخصصة فى تعليم اللغات والتعريف بالحضارة الغربية .

◆ هذا من "تلخيص باريز" . وماذا عن الصورة - البرنامج ؟

● بوسعنا أن نستخلص من كتابات مفكرى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين برنامجاً للإصلاح الاجتماعى مشتركاً بين أكثرهم ، وهو برنامج - صورة ، شكّل مجال اللقاء بيننا وبين الحضارة الغربية . أما الصورة بالمعنى الذى حددته فعلينا أن نبحث عنها فى الحساسية العميقة التى تكونت لدينا عفواً لدى جماهير ومثقفين نتيجة اصطدامنا بالغرب وحضارته ، وتآلف هذه الصورة من قطبين متعارضين : الواحد نابذ والأخر جائب ، فنحن كنا وما نزال نرفض بكل جوارحنا ، بكل كياناتنا ، المستعمر ، وفى الوقت ذاته نشعر بشعور لا يقاوم أننا مشدودون إليه .

◆ ما هى عناصر هذه الصورة - البرنامج ، الذى تحدثت عنه فى دراستك ؟

● يمكن تجميع عناصر هذه الصورة - البرنامج حول أربعة محاور هى : محور الدولة المتمثل فى تنظيم سلطاتها وتحديد صلاحياتها ، وكان أول من اقترح نموذجاً إسلامياً للدولة الحديثة هو خير الدين التونسي (١٨١٠-١٨٩٩) . . وبالطبع لم يقبل إلداى الذى كان خير الدين وزيراً له طوال أربع سنوات بأرائه فى هذا الشأن لأنها تحد من سلطاته ، وسلطة السلطان ، وكل منهما يريدان سلطة لا محدودة ، أما المحور الثانى ، فى هذه الصورة - البرنامج ، هو محور التصنيع ولم يصطدم بعقبات كالتى كان متوقفاً أن يصطدم بها تبديل بنية الدولة الموروثة عن قرون من الممارسة . ولكن كانت له صعوبات أخرى ، تجاوزها يحتاج إلى مشاريع طويلة الأمد . أما المحور الثالث فيتعلق بالبنى الذهنية ، وغايته إحلال العقلية العلمية محل العقلية الخرافية الأسطورية السائدة ، واحتلت المدرسة المقام الأول بين اهتمامات رجال النهضة كلهم . . أما المحور الأخير فى برنامجنا فهو تحرر المرأة ، الذى اهتم به أيضاً رجال النهضة والمسلمون منهم بصورة خاصة لأنه كان يستلزم منهم التمييز بين ما يقبل به الشرح وبين ما يرفضه من أوجه التحرر الأربعة التى أخذ بها الغرب ودفع بها إلى حدودها القصوى على اعتبار أنها من مستلزمات الحضارة الحديثة وهى الحجاب والطلاق وتعدد الزوجات وتعليم المرأة . .

◆ تحدثت أيضاً عن الصورة - المحاكاة ؟

● نتيجة التطور الطبيعي الذى بدأ يتجاوز منجزات القرن التاسع عشر أخذنا نلمس طريقاً إلى تصور جديد لذاتنا ، وللآخر وعلاقتنا به . فى هذا السياق استبدل الخط التقدّمى (شبلى شمىل ، فرج أنطون) الصورة - البرنامج ، بالصورة - المحاكاة . وهذا ما سيفعله سلامة موسى بدون لبس ، علينا أن نحتذى الغرب كى نواجهه فتساوى معه .

◆ هناك أيضاً الصورة - التحدى ؟

● فى الحقيقة كان المثقفون العرب ، على الخصوص الذين درسوا فى الغرب ، يريدون ، على اختلاف اتجاهاتهم السياسية ، التفاهم مع الغرب لاعتقادهم أنه بموقعه الجغرافى والحضارى والتاريخى هو المحاور الطبيعى لنا ، وأن علينا أن تأخذ عنه ، بشكل أو بآخر ، ما يسعفنا فى نهضتنا . والغرب هو الذى أصر على الرفض ، حتى اقتلع من أرضنا بالقوة . وما يرفضه على الضبط نقطة واحدة لا غير : الاعتراف بنا كذات ، والذات لها الحق بالاستقلال والسيادة على أرضها . فالصورة - التحدى لها وجهان : الوجه الأول هو تصورنا لذاتنا ، أن نكون بمستوى العروبة أو لا نكون ، والوجه الثانى هو تصورنا لحضارة الغرب . أن نكون من مقياسها أو لا نكون ...

◆ هناك من يتحدث عن شرق فى مواجهة غرب ، وجنوب فى مواجهة شمال ، ما مدى انطباق هذه التعبيرات فى نظرك على واقع اليوم وصراعاته ؟

● ظهرت بين أواسط الثلاثينيات وأوائل السبعينيات مجموعة من المؤلفات الروائية (حوالى أربعين قصة قصيرة وخمسة أو ست روايات ، على ما أعلم) وعدد ضئيل من الدراسات التحليلية يمكن جمعها - وقد جمعها بعض النقاد - تحت اسم الشرق والغرب ، وربما رجحت كفة شرق على كلمة غرب لأن الروائيين استخدموها بهذا المعنى ، أو لشيوعها بين الناس كمترادف لكلمة غرب ... كما نجد موضوع الشرق والغرب فى

السيد ياسين

فهمنا للتبعية مصدره الغرب!

كيف ندرس الآراء الغربية عن الشخصية العربية والتراث العربى؟ وأى مسافة نضعها بيننا وبين دراستنا لهذه الصور الغربية، أو بتعبير آخر . كيف يوفق الباحث العربى بين متطلبات الدراسة «العلمية» وبين التزامه الوطنى والقومى، وبصفة خاصة عندما يدرس صوراً وآراء معادية؟ ثم ما هو موقع الباحث بصفة عامة من الموضوع الذى يدرسه فى نطاق ما يسمى العلوم الإجتماعية أو العلوم الإنسانية؟

كانت هذه التساؤلات، وغيرها، محوراً رئيسياً فى الحوار مع السيد ياسين مدير مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية فى الأهرام، والحوار مع السيد ياسين له دلالاته الخاصة، فنحن نتحاور مع باحث مارس هذه التساؤلات عملياً فى كتابه الذى صدر للمرة الأولى تحت عنوان «الشخصية العربية بين المفهوم الإسرائيلى والمفهوم العربى فى عام ١٩٧٣»، ثم فى كتبه الأخرى التى توالى فى الصدور وصولاً إلى أعماله الأخيرة عن «الوعى التاريخى والثورة الكونية» و «الزمن العربى والمستقبل العالمى» .

والسيد ياسين فى كتبه الأولى والأخيرة، فضلاً عن محاضراته ومقالاته، يكشف عن متابعة ورؤية لما يصدر فى الغرب، وقدرة على رصد التغيرات والتحليلات الجديدة لكبار المنظرين فى العالم، وهو عندما يقرأ ويرصد ويحلل لا يغيب عنه الواقع الذى يعيش فيه، وبالتالي كان الحوار معه ضرورياً فى إطار تحديد وتجديد موقفنا اليوم من الغرب .

بدأنا الحوار مع السيد ياسين انطلاقاً من مفهوم الآخر لنا، وهو الرؤية الغربية السائدة فى مراكز البحث الأكاديمى وأجهزة الإعلام الغربية عن مجتمعات الشرق فأبدى السيد ياسين فى بادية الحوار الملاحظة التالية :

● ينبغى التمييز أولاً بين أعمال رصينة نجحت فعلاً فى فهم مجتمعاتنا بعناصرها السياسية والثقافة والإجتماعية وبين أبحاث أخرى فشلت فى تحقيق ذلك . أو أرادت عن وعى تقديم صورة مشوهة لهذه المجتمعات . فى إطار التراث الغربى فى دراسة مجتمعات العالم الثالث وعلى وجه الخصوص الدراسات المكرسة للعالم العربى .

نستطيع التمييز ببساطة بين نوعين من الأعمال، أعمال علمية أكاديمية، الغرض منها الدراسة الموضوعية لهذه المجتمعات تاريخياً واقتصاداً وسياسة. وأعمال علمية، طابعها دعائي والغرض الصريح أو الكامن منها هو تشويه صورة هذه المجتمعات العربية. وأرى أن هذه التفرقة أساسية منذ البداية، وفي كتابي: «الشخصية العربية بين الذات ومفهوم الآخر» مارست هذا التمييز في التراث الغربي والإسرائيلي المكتوب عن العالم العربي بعد هزيمة ٦٧. ومثال بارز على هذه الأعمال الدعائية دراسة هركابي الذي كان مديراً سابقاً للمخابرات الإسرائيلية وهو الآن أستاذ علم النفس الاجتماعي في جامعة تل أبيب وله دراسة شهيرة انتقدتها في كتابي المذكور، وهي دراسة تعتبر مثلاً بارزاً على ما يطلق عليه دراسات علمية دعائية الغرض هدفها أساساً هو تشويه صورة المجتمع المصري والعربي. وأريد أن أحتفظ بهذا التمييز بين العلمي والدعائي بالنسبة للدراسات الاستشراقية بصفة عامة، هناك دراسات لمستشرقين ممتازة وتعلمنا الكثير منها عن مجتمعاتنا، وهناك دراسات أخرى الغرض منها هو التشويه. في الدراسات العلمية الموضوعية قد نختلف أو نتفق مع الباحث في قراءته لتراثنا وواقعنا، لكن هذا لا يعنى بالضرورة أنه مغرض أو متحيز، بينما نختلف صراحة مع أصحاب الدراسات الدعائية.

◆ لكن لو سلمنا بوجود مثل هذه الدراسات العلمية الموضوعية، ألا نضع في الحسبان الإطار السياسي الذي تدور فيه هذه الدراسة أو التوظيف السياسي لنتائجها ؟

● أي بحث علمي سواء قام به باحث وطني أم باحث أجنبي يمكن أن يوظف سياسياً لا شك في هذا .

◆ لكن هناك اختلاف بين السياق الذين يوظف أعمال باحث عربي وبين التوظيف الأجنبي لباحث غربي،

● هذا تقصد بهذا السياق ؟

◆ أقصد أنني أتمنى لثقافة معينة ودائرة حضارية معينة، فأنا لا أبحث في فراغ محايد

بل فى إطار سياسى وثقافى أتنمى إليه، فالدراسة العلمية الموضوعية تقع فى دائرة تعطيلها معناها وملامحها، أما الدراسة العلمية الصالحة لكل زمان ومكان فلا أعتقد بوجودها .

● لم يقل أحد إن الدراسة العلمية صالحة لكل زمان ومكان، أنا أتحدث فى إطار تفرقة مبدئية بين دراسات علمية موضوعية ودراسات علمية دعائية . فى النوع الأول من الدراسات قد نجد قراءة معينة لباحث معين وقد نختلف معه فيها، هذا أمر وارد كما هو وارد أيضاً بالنسبة للقراءات المحلية لباحثين عرب، بعبارة أخرى لست من أنصار الإدانة المطلقة للبحوث الاستشراقية، فكل باحث له قراءته الخاصة، مثلاً أليست هناك قراءات متعددة للحركة الإسلامية المعاصرة بين الباحثين العرب ؛ الإدانة أمر سهل لكن البحث الموضوعى لكل كتاب أو دراسة يحتاج إلى جهد يتحلى بروح الإنصاف . وفى اعتقادى أن الدراسات الاستشراقية قدمت للباحثين الوطنيين مناهج للدراسة لم تكن معروفة لديهم من قبل حتى فى دراساتهم للإسلام، لأنه قد حدثت قطيعة فكرية بين تقاليدنا البحثية القديمة وبين العصر الحديث، وهذا فى الوقت الذى حدث فيه تقدم نظرى ومنهجى فى العلوم الاجتماعية فى الغرب، نعم المستشرقون درسوا مجتمعاتنا بمنهجية ونحن تعلمنا هذه المنهجية منهم، قد نختلف مع بعض نتائجهم، لكن هذا الاختلاف معهم لا يختلف عن الاختلافات القائمة بين الباحثين الوطنيين .

◆ أتنفق معك فى ضرورة التمييز بين أعمال علمية وأعمال دعائية، لكن أشدد على أنه حتى فى فئة الأبحاث العلمية الغربية لا يمكن النظر إليها على أنها نابعة من فراغ أو بدون وسط وسياق يعطيها مغزاها، لا أعتقد أنها دراسات تدور فى فضاء عالمى مطلق، فعندما يدرس مستشرق ظاهرة من ظواهر العالم العربى فى هذا المجال أو ذاك فإنه يفعل ذلك من خلال دائرته الثقافية ومعاييره فى النظر والرؤية، وهى منطقية بالنسبة له لكن قد لا تكون كذلك بالنسبة لى وقد لا تؤدي إلى فهم حقيقى للظواهر المدروسة فى أحيان كثيرة، حتى فى " المناهج العلمية " فأنا لا أرى لها صفة الشمولية والعالمية كما يتوهم بعض باحثينا خاصة أولئك الذين يحفظون بعض هذه المناهج عن ظهر قلب وكأنها شئ مقدس ومعيار نهائى لإدراك الظواهر، دون أن تكون هناك مسافة نقدية بين هذا الباحث

وبين المنهج الذى يطبقه، وكأنه منهج عابر للقارات يطبق على الريف الفرنسى أو الإنجليزى أو المصرى، بنفس القدر من المساواة، وكأنه لا توجد ثقافات مختلفة فى العالم يفترض اختلافها، اختلاف المناهج ومعايير النظر والحكم على الأشياء، أريد أن أخلص من ذلك أن هناك أبعاداً أيديولوجية للمنهج وأن الأبحاث العلمية التى تقصدها تنتمى إلى دائرة ما وليست نابعة من فراغ أو موجهة إلى فراغ .

● أنا أتخفظ هذا الكلام على أساس أن هناك عمومية فى المنهج وخصوصية، هناك فى المناهج العلمية ما هو عام وما هو خاص . بالطبع الباحث فى العالم الثالث ينبغي أن يكون باحثاً نقدياً، ليست مهمته التطبيق الميكانيكى الفج لمنهج تبلور فى الخارج، فالمنهج له علاقة بالنظرية وبالتالي لو أخذت كلامك على إطلاقه فهذا معناه أن المناهج التى تبلورت فى الخارج قد لا تصلح إطلاقاً للتطبيق فى الداخل .

◆ فقط أقول أن الأبعاد الأيديولوجية للمنهج تجعل من الضرورى وجود مسافة نقدية بين باحثينا الوطنيين وبين هذا المنهج .

● وجود مسافة نقدية أمر لا غبار عليه ومعترف به، الباحث فى العالم الثالث لابد أن يتسلح بنظرة نقدية حيال النظرية الغربية السوسيولوجية والسياسية والاقتصادية، وبالتالي للمناهج.. هذا مؤكد .

◆ بل أذهب إلى انطباق نفس الأمر على تطبيق القواعد التقنية والإجرائية للمناهج، فلنأخذ نموذج الإحصاء وجمع البيانات، هل أتعامل مع الإحصاء بنفس الصورة التى تم التعامل بها فى الغرب، أنا شخصياً فى بعض الفترات عندما تعرض أمامى امتحانة كى أملأها لم أكن أسجل إجابات حقيقية عن الأسئلة المطروحة، واعتقد أن هذا الأسلوب ليس حالة خاصة بل هو موقف الكثيرين .

● نعم هناك أبعاد ثقافية فى طريقة جمع البيانات، لكن قضية المنهج أعقد من هذا بكثير، وتغير قضايا وإشكاليات قد لا يبدو لها إجابات واضحة ومحددة حتى الآن . لو تحدثنا على سبيل المثال عن المنهج الماركسى وهو منهج نما فى الغرب هل يمكن

تطبيقه أم لا على مجتمعاتنا العربية، حتى لو أخذت حيطتك النقدية، هذا منهج نما في إطار سياق معين ورؤية معينة، هل يمكن تطبيقه أم لا في دراسة المجتمعات العربية المعاصرة ؟

◆ أحد المفاهيم الأساسية التي تشكل طبيعة هذا المنهج الماركسي في دراسة المجتمعات هو مفهوم الطبقات . . . ولو تكلمنا عن طبقات في المجتمعات العربية وتكوينها وتباينها أو مرونتها، سنجد أنها ليست بنفس الوضوح والتبلور الذي ميز تشكل الطبقات في المجتمعات الغربية . . . الطبقات غير متبلورة لدينا بالصورة المتعارف عليها والتي نشأ المنهج الماركسي كقراءة لها .

● لكن هذه الطبقات موجودة أم لا ؟ هل المجتمع مكون من أفراد أم من طبقات أم من فئات ؟

◆ هذا يرجع لتحديدنا لمفهوم الطبقة أيضاً !!

● أنا أتحدث عن التعريف الكلاسيكي للطبقة، والطبقات هي الجماعات الكبيرة من الناس التي تمتاز عن بعضها البعض طبقاً لعلاقاتها بأدوات الإنتاج .

◆ هل تعتقد أنك تستطيع كباحث اجتماعي أن تدرس ظواهر المجتمع العربي انطلاقاً أو اقتصاداً على هذا المفهوم الضيق للطبقات الاجتماعية .

● بالطبع أستطيع .

◆ أليست الأبعاد الأيديولوجية والثقافية يمكن أن تساعد بصورة كبيرة في فهم الظواهر الاجتماعية للمجتمعات العربية ؟

● ومن الذي قال إن هذه الأبعاد غير متضمنة في المنهج الماركسي ؟

◆ لا ليست لها المكانة التي تسمح بفهم دقيق للظواهر الاجتماعية .

● هذا الكلام غير صحيح، فأين تضع كل الكلام الماركسي عن البناء الفوقي . ما

هو البناء الفوقى ؟ إنه القيم والعادات والتقاليد والقانون السائد والأيدولوجية السائدة .
الأبعاد الثقافية موجودة فى المنهج الماركسى .

◆ ما أريد أن أقوله إن الأبعاد الثقافية والأيدولوجية فى المجتمع العربى لها مساحة أكبر، ولا يمكن النظر إليها على أنها "بناء فوقى" ناشئ عن "بناء تحتى"، لأنها تكتسب فى أحيان كثيرة وزن البناء التحتى ذاته .

● أعتقد أن المساحة المخصصة للبناء الفوقى موجودة وكافية، لكن هذا يتوقف على قراءة الباحث للمنهج، هناك بعض الباحثين يقيمون نوعاً من الاختزال للمنهج فى دراسة الأبعاد الثقافية، فهذه قضية هذا النفر من الباحثين وليست قضية المنهج ذاته، فالدراسة التكاملية فى إطار المنهج الماركسى تتحدث عن التفاعل الجدلى بين البناء الفوقى والتحتى طبقاً لأصول المنهج . إذا مسألة المنهج وكونه نما فى سياق معين وله أبعاد أيدولوجية لا تمنع بالضرورة من تطبيقه على هذا المجتمع العربى، فى اعتقادى أن قضية المنهج قضية معقدة، وأنا أخشى لو قبلت ما طرحه على إطلاقه أن نصل إلى رفض المناهج لأنها نمت فى بيئات أجنبية، ما أريد أن أقوله إن موقف الباحث - وهذا ما قمنا به عملياً وليس نظرياً كباحثين فى «المركز القومى للعلوم الاجتماعية» منذ الخمسينيات - هو القيام ببحوث نقدية للنظرية الغربية السوسيولوجية والسياسية من وجهة نظر علم اجتماع المعرفة، لقد وعينا ذلك، ولى كتابات منذ ١٩٥٧ و ١٩٥٨ عنوانها : الأزمة الراهنة فى علم الاجتماع، منشورة فى كتابى «دراسات فى السلوك الإجرامى»، وناقشت فيها المنهج النقدى، ودرسنا النظرية الغربية فى نشأتها وتطورها وعلاقتها بالأيدولوجية ولم ننخدع بمقولة «العلم» لأن العلم الاجتماعى مخلوط اختلاطاً شديداً بالأيدولوجية، فمهمة الباحث فى العالم الثالث هى : كيف يميز بين العلمى والأيدولوجى فى النظرية الغربية السوسيولوجية والسياسية والاقتصادية . القضية الثانية كانت بحثنا عن المناهج، هناك مناهج فى دراسة الطبقات الاجتماعية رفضناها، وهناك على سبيل المثال منهج وظيفى يعتبر أن المجتمع يقوم على فئات وليس على طبقات، ولكى تدرس هذه الفئات عليك أن تنزل إلى الميدان لسؤال الأفراد . كيف تضع نفسك

على هذا السلم التدرجى، هل تنتمى إلى الطبقة الوسطى أو العليا أو الدنيا أو العليا العليا ... فكانه يعتمد فى تحديد الوضع الطبقي على إقرار ذاتى للأفراد . نحن رفضنا هذا المنهج لأنه منهج غير موضوعى فالمنهج الموضوعى لدراسة الطبقات الاجتماعية ينبغي أن يقوم على دراسة الملكية فى المجتمع . . فى يد من ؟ ومصادر الإنتاج فى يد من؟ والثروة القومية فى يد من ؟ ولا يعتمد على الإقرار الذاتى للأفراد، فهذا منهج مدان لأنه غير دقيق . لدينا إذاً مستويان : الأول خاص بالنظرية، والآخر يتعلق بالمنهج، وهذا كله لا يكفى، فالهدف النهائى هو إبداع منهج وصياغة نظرية تتفق مع التاريخ الاجتماعى للمجتمع المصرى والعربى .

◆ أنا متفق معك فى هذه النقطة الأخيرة، لكن اختلفنى فى أن الرؤية النقدية من جانبنا للنظرية الغربية ليست موجودة بالصورة التى تحدثت عنها فى الغالب، ما هو موجود لدينا هو نسخ وتكرار ممل بحيث أن الملامح الوطنية والقومية غائبة فى مجال البحث العلمى.

● أنت تظلم حركة العلوم الاجتماعية فى مصر والعالم العربى .

◆ إذا أرفع هذا الظلم وقدم لنا تلك الإنجازات التى خرجنا بها بعيداً عن أنساق العلوم الاجتماعية الغربية .

● هناك فى مصر المجلة «الاجتماعية القومية» والمجلة «الجنائية» التى أصدرها المركز القومى للبحوث الاجتماعية منذ سنوات طويلة، وهناك كتابات علماء الاجتماع المصريين فى النظرية الاجتماعية، منذ الستينيات كانت هناك مناقشة حول هذا الموضوع على صفحات مجلة «الطلعة» حول الأيديولوجية والعلم فى النظرية الاجتماعية وحول التزام الباحث الاجتماعى .

● ثمة وعى لدى علماء الاجتماع المصريين بأهمية النظرة النقدية للنظرية الغربية وبأهمية التطبيق النقدى للمناهج، ونحن مازلنا على عتبات المرحلة الثالثة التى أسميها مرحلة الإبداع فى مجال النظرية ومجال المنهج، ولم نخط بعد خطوات حاسمة فى هذا

الطريق . . . إنما من اللافت للنظر أنك تجد الآن في العالم العربي حركة نمو علم اجتماع عربي ما زالت غامضة الملامح، لكنها تشير وتوحى بأنها بدايات الانطلاق نحو المرحلة الثالثة، هناك إحساس أننا في حاجة الآن لأن نصوغ نظريتنا السوسيولوجية الخاصة التي تتفق مع تاريخنا الاجتماعي . هناك وعي بذلك لدى الطليعة المثقفة من علماء الاجتماع العرب بأننا في حاجة إلى الدخول في المرحلة الثالثة .

◆ كيف تفسر أن الاستشراق قد احتل مساحة أكبر من الاستغراب ؟

● لأن حركة الاستشراق صاحبت حركة المد الاستعماري في العالم العربي وكما يقولون في مجال الأنثروبولوجيا، كان العلم يسبق العلم، قبل الغزو الاستعماري كان هناك ارسال الرحالة الأنثروبولوجيا والعلماء لدراسة المجتمعات الآسيوية والأفريقية الغازية، فعلم الأنثروبولوجيا كما هو معروف قد نشأ نشأة استعمارية، وكان أغلب مشاهير هذا العلم يعملون في أجهزة الاستخبارات الغربية، ثم تحرر العلم بعد ذلك بحكم المد الاستعماري، فقد كانوا في حاجة إلى فهم هذه المجتمعات، مثلاً عندما احتاجت الولايات المتحدة الأمريكية بعد احتلال اليابان إلى أن تفهم المجتمع الياباني لأحكام سيطرتها عليه بعد الحرب العالمية الثانية، كلفت بعثة أنثروبولوجية بإعداد دراسة عن الشخصية القومية اليابانية وكانت مكلفة من قبل الحكومة الأمريكية، كثير من هذه الدراسات تم في إطار حركة المد الاستعماري وحاجة هذه النظم إلى فهم المجتمعات التي سيدخلون إليها، كل من شارك في هذه الدراسات قد شارك في هذا الإطار، فبعد الأصول الاستعمارية للاستشراق فإنه استمر كتقليد بحثي ولم يقتصر مع ذلك على تلك الأصول الإستعمارية.

● في هذا الإطار، أكرر: هناك مجال للتمييز بين دراسات موضوعية علمية ودراسات دعائية ومن الصعب إدانة كل الدراسات الاستشراقية، لأن القراءات تتعدد حتى بالنسبة للباحثين الوطنيين، وبالتالي لا أستطيع أن أدين مستشرقاً قرأ الإسلام قراءة خاصة باعتباره مستشرقاً لأنني قد أجد باحثاً وطنياً قد يصل إلى نفس القراءة وقد أجد قراءة ماركسية للإسلام ما هو المانع ؟ وقد يصل المستشرق والباحث الوطني إلى نفس النتائج .

◆ كأنك تقول: في العلم لا توجد اختلافات بين الثقافات ؟

● لا أقصد ذلك، أنت تدفع حديثنا إلى تعميمات قد لا أوافق عليها . أقول: احتمال كبير إذا طبق باحثان أحدهما أجنبى والآخر وطنى نفس المنهج أن يصلا إلى نفس النتيجة سواء كان منهجاً ماركسياً أو منهجاً وظيفياً . يمكن لباحث أمريكي أن يطبق المنهج الوظيفى فى دراسة المجتمع المصرى ويدعى أن المجتمع بلا طبقات بل فئات . وهناك باحث وطنى قد يطبق نفس المنهج ويصل إلى النتيجة ذاتها، هذا مقصدى، لا أقصد أن هناك مناهج عابرة للقارات أو الثقافات فقد تحدثنا عن حدود النظرة وحدود المنهج . . . الخ . أعود وأقول إننا فى النقد الأيديولوجى للاستشراق ننسى الإسهامات الإيجابية لبعض الدراسات الاستشرافية فى تطبيق مناهج معينة استفاد منها الباحثون اليونانيون فى دراسة مجتمعاتنا، كما أننى أرفض مقولة الغرب كغرب، فهذه مقولة غير علمية، وأرفض مقولة الشرق كشرق، إنها صياغة للكلمة، هناك فى الغرب تيارات مختلفة ورؤى أيديولوجية مختلفة ورؤى محافظة ورؤى ليبرالية ورؤى راديكالية، إذاً هناك ثلاث رؤى أساسية، فأى رؤى نتحدث عنها؟ هل نتحدث عن الغرب المحافظ أم الغرب الليبرالى أم الغرب الراديكالى، قد نجد أنفسنا أقرب إلى الغرب الراديكالى؟ أو الغرب الليبرالى من المحافظ فى فرنسا، مثلاً، هناك ريمون أرون هناك رودنسون، هناك بورديو من يقول أن هؤلاء جميعاً تستوى أفكارهم العلمية، حتى أدرس إذا علم الاجتماع الفرنسى، على أن أدرس الأصول الأيديولوجية لجورفيتش . ما هى الفروق بينه وبين ريمون أرون وبورديو وآلان تورين وآخرين . . . لابد من معرفة الأصول الأيديولوجية لكل عالم منهم، ما أقصده بكلامى هذا هو عدم الوقوع فى التعميم .

◆ أتفق معك أن علينا أن نميز بين مذاهب وتيارات الغرب كما ذكرت، لكن يبقى أن الأسماء التى ذكرتها تدور إسهاماتها فى نطاق دائرة ثقافية محددة، هناك دوائر ثقافية يتمنى إليها الباحث والفكر والبحث العلمى، بالتالى فلا توجد أبحاث علمية فى فراغ خاصة فى مجال العلوم الإنسانية، نعم هناك غرب محافظ وغرب ليبرالى وغرب راديكالى لكن بينهم جميعاً شئ مشترك ويخضعون لمصدر غربى واحد موحد . . .

ويظهر ذلك في أمور كثيرة يمكن الإشارة إليها .

● آسف جداً التيار الراديكالي الغربي مناصر للعالم الثالث . هذا تقويم خاطئ، هناك فروق بين هذه الاتجاهات والتيارات .. أبرز ما تعلمناه عن العالم الثالث تعلمنا من هذا التيار الراديكالي الغربي، تحليلاتنا عن أسباب التخلف، طبيعة التخلف، التبعية، تعلمناها من هذا التيار في أمريكا وأوروبا .. أليس كذلك ؟

◆ أنا أتحدث عن ظواهر عامة وليس عن إسهامات بعض المفكرين أو الكتاب ؟

● مع إيماني بأن العلم يدور في دائرة ثقافية، لكن ما هي نتيجة ذلك ؟ أنت حريص على هذه الصياغة لكن ماهي النتيجة التي تريد استخلاصها من هذه الصياغة ؟

◆ ما أريد أن أخلص إليه هو الإشارة أولاً إلى أنني أشعر كشقافة وكمجتمع غريب ملامحه تحت تأثير العلاقة مع الغرب، هناك حالة من الاختلاط بيني وبين الغرب، نتج عنها ضعف وهزال في شخصيتنا وقدرتنا على التطور والإبداع . فلكي أكون شخصاً مبدعاً، ومجتمعاً مبدعاً، وثقافة مبدعة، فإنه على أن أعرف ذاتي وأحدد هويتي أولاً .

● قلنا هذا الكلام من قبل .

◆ لم يطرح بعد هذا الموقف بصورة جذرية، نحن الآن لا نعرف في ظل هذه العلاقة المربكة مع الغرب أين رأسنا من أقدامنا ! ما هو منا وما هو من خارجنا .

● نتذكر ما قلته من دقائق عن أهمية أن نبني نحن نظرية نقدية إزاء النظرية الغربية كلحظة أولى .

◆ من نحن؟

● نحن الباحثين الاجتماعيين في العالم العربي .

◆ ماذا تعني بكلمة العربي ؟

● من يعيشون في العالم العربي هم عرب بالثقافة والانتماء والتاريخ .

♦ وهل تعتقد أن العرب الذين يعيشون في الأرض العربية هم متممون فعلاً إلى الثقافة والتاريخ العربيين ؟

● هذه قضية ثانية، أنت تدفع إلى متاهات، قلنا في البداية إن هناك أهمية في تبني نظرة نقدية للنظرية الغربية ك لحظة أولى ثم في لحظة ثانية هي تكييف هذه المناهج مع الواقع وقلت نحن على اعتاب المرحلة الثالثة من إبداع نظرية ومنهج وهذا في حد ذاته يضع المسافات بيننا وبين الغرب . أنت حريص على وجود مسافة توضع من خلال المنهج النقدي، تقول إن التيارات الثلاثة تتم في دائرة ثقافية معينة واحدة، لكن لم تقل ما هي النتيجة التي تريد استخلاصها من ذلك ؟

♦ أريد استخلاص أنني في دائرة ثقافية أخرى.

● لكن هذا معترف به .

♦ لا، غير معترف به .

● إذاً ما هو معنى المنهج النقدي الذي أتحدث عنه منذ بداية هذا الحوار، ثم غير معترف بها من قبل من ؟

♦ من قبلنا نحن ! من قبل تلك الطائفة من الباحثين الذين أسميتهم «المستشرقون العرب» .

● أختلف معك، منذ الخمسينيات ونحن على وعى بهذه المسافة النقدية .

♦ لكنك عندما ترفض منطق وجود غرب وشرق فإنك تناقض ما قلته في الحديث عن مسافة نقدية ونظرة نقدية للنظرية الغربية .

● أنا أرفض شيئاً معيناً هو التعميم عن الغرب كغرب، لا بد أن نميز في الغرب بين تيارات ثلاثة، هناك غرب متعدد ليسير إلى، محافظ، راديكالي، هذا اختلاف جوهري عن منطق الذين يقولون بشرق وغرب . . . أنا أميز بين تيارات الغرب، وجمهرة الباحثين لدينا هم أقرب إلى التيار الراديكالي وقد نتبنى مقولاته ومناهجه في دراسة مجتمعنا، ما

هو العيب في هذا؟!!

◆ العيب في هذا أنني لا أنطلق من منهجي الخاصة مع تطويرها .

● عندما نقول إننا ليس لدينا وعي بهذا، فأنا أرفض هذا الكلام وأختلف معك، فالجامعة العلمية في مصر والعالم العربي لديها هذا الوعي النقدي منذ نهاية الخمسينيات وهو مسجل في أبحاث ودراسات.

◆ ولماذا لم ينشر ويشر ما هو مسجل منذ الخمسينيات؟

● انتشر فعلاً، في الستينيات نجحنا في إثارة مناقشة واسعة على صفحات «الطلعة» وكان هناك إجماع حول ذلك وهذا أدى إلى ما تراه الآن من حملة نحو علم اجتماع عربي .

◆ بالطبع، المرء لا يستطيع أن يتغافل عن إنجازات من سبقونا، بدءاً من الخمسينيات، لكن ما هو مطروح اليوم من دعوة نحو علم اجتماع عربي ليست نتيجة الجهود التي بذلت في الخمسينيات والستينيات، بل نتيجة فشل هذه الجهود. فالتناس بدأت تكتشف أنها عاثت فترة دعاية غير عادية ومن ثم يبحثون عن أراض جديدة، فالدعوة مؤخراً إلى علم اجتماع عربي نشأت من إحساس بعقم التكرار والترديد الأجوف لما يقال في الغرب باستمرار، فإذا كان هناك وعي نقدي فعال ومؤثر لإدواء النظرية الغربية منذ الخمسينيات - كما تقول - لما كانت أوضاعنا على ما هي عليه الآن في مراكز البحث العلمي والأكاديمي، فهل تذكر لي إنجازات حقيقية أصبحت مراجع يشار إليها من الغرب أو الشرق.

● أنت تتحدث عن التنظير في العلم، وهل استطعنا أن نبدع نظريات لها صفة الشمول والعالمية بحيث يتبناها الآخرون، الطرح غير صحيح، لأن العلم الاجتماعي الفرنسي مثلاً هو نتاج تطور تاريخي طويل، وبالتالي كان هناك مجال لبروز مثل هذه النظريات . أما في العالم العربي فإن علم الاجتماع معناه الحديث داخل جامعة القاهرة في الثلاثينيات، قصر المدة لا يسمح بصياغة نظرية عامة عالمية، وهذا المسألة نتاج لتطور تاريخي طويل وتشابك المنابع والأصول الفلسفية، وحتى في البلد الواحد ذاته فإن

المنظرين قلة، وأغلب الباحثين أتباع فكر شخصى فى فرنسا مثل جورج جورفيتش أو ريمون أرون أو بورديو ...

● عملية الإبداع فى مجال النظرية محدودة حتى فى أكبر البلاد تقدماً، بالنسبة لنا هنا لم نصل بعد إلى المرحلة الثالثة وهى إبداع نظريتنا الخاصة ومنهج خاص يعبر عن الواقع العربى، ولو نجحنا فى إنجازها قد تصبح نموذجاً لدراسة مجتمعات مماثلة .

◆ فلنتأقش اذاً ما هو تصورك لشروط الإبداع فى المرحلة الثالثة ؟

● أولاً، الدراسة النقدية الشاملة للنظرية الغربية السوسولوجية والسياسية والاقتصادية ووعى دقيق بتيارات الغرب الرئيسية .

● ثانياً، المعرفة الدقيقة بالتاريخ الاجتماعى المصرى والعربى وأى نظرية سوسولوجية لا تضع التاريخ الاجتماعى العربى فى حساباتها محكوم عليها بالفشل .

● ثالثاً، إن النظرية لن تنشأ إلا من خلال جهد جماعى واع ولحسن الحظ تكونت الجمعية العربية لعلم الاجتماع العربى وتناقش مثل هذه الموضوعات وهذه بدايات صياغة نظرية عربية .

الحبيب الجنحاني
قضايانا أولاً والاستغراب ثانياً

فى وقت واحد تقريباً عقدت ندوات فى ثلاث عواصم عربية ، وكان موضوع الندوات الثلاثة هو التاريخ العربى وضرورة إعادة كتابته من جديد وفق أسس جديدة ، ندوة القاهرة كانت عن كتابة التاريخ بين الالتزام والموضوعية ، والثانية فى ليبيا عن رؤية قومية فى كتابة التاريخ العربى ، بينما عقدت الثالثة فى بغداد أواخر كانون الأول (ديسمبر) الماضى .. لماذا هذا الإلحاح اليوم على قضايا كتابة التاريخ العربى ؟ وما هى أهداف ذلك ، وكيف يمكن إعادة كتابة التاريخ العربى من جديد ؟ وما هى المناهج التى تسمح أكثر من غيرها بقراءة علمية موضوعية لهذا التاريخ ؟ وإلى أى أفق تسير هذه "الصهوة" بين المؤرخين العرب والمهتمين بحقل الدراسات التاريخية فى الوطن العربى ... عن هذه التساؤلات ، وغيرها كان حوارنا مع المؤرخ التونسى الحبيب الجنحاني فى نطاق مجموعة الحوارات التى أجريناها مع بعض المفكرين العرب حول علاقتنا وموقفنا من الثقافة الغربية ومناهجها . والحبيب الجنحاني أستاذ للتاريخ الاقتصادى والاجتماعى فى المجتمع العربى الإسلامى بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بجامعة تونس .

صدر له التاريخ الاقتصادى والاجتماعى فى بلاد المغرب (١٩٨٦) ودراسات مغربية (١٩٨٧) ، قضايا الفكر (١٩٧٦) ، وله عدد آخر من الكتب والدراسات المتصلة بالفكر المعاصر وإشكالياته .عضو فى مجموعة من المنظمات العربية والدولية ، منها منتدى الفكر العربى (مقره عمان) وعضو مؤسس فى اتحاد المؤرخين العرب . ويساهم بإبحاثه ومقالاته فى عدد من المجالات العربية مثل : شؤون عربية ، المستقبل العربى ...

◆ شاركت فى الفترة السابقة فى ندوة عقدت بليبيا تحت شعار : نحو رؤية قومية لكتابة التاريخ العربى . وكما تعلم ، عقدت ندوة أخرى فى القاهرة وثالثة فى بغداد عن إعادة كتابة التاريخ العربى ، كيف تفسر هذه الظاهرة وهذا الإلحاح على إعادة كتابة تاريخنا العربى . وفى مواجهة من ترتفع هذه الدعوة ؟!

● أريد أن أميز في مسألة كتابة التاريخ العربي بين اهتمام يتعلق بالتاريخ القطري وقضايا التاريخ القطري ، مثل تاريخ مصر ، وبين الاهتمام بهذه القضية من أبعادها القومية ، وفي حالة الاهتمام بالتاريخ القطري والتاريخ القومى أقول إننا أمام قضية تفرض نفسها فى هذه الأيام . وفى الحقيقة هذا الاهتمام ليس خاصاً بنا فقط كعرب بل نجد فى تاريخ القوميات الكبرى أنها كانت تعيش وضعاً متأزماً مثلما يعيش العالم العربى ، وكانت ، فى مواجهة التحديات ، تريد أن تطرح مشروعا حضارياً بديلاً فكانت تستنجد بالتاريخ . حدث هذا أيام بروز الوحدة فى ألمانيا ، حدث أيام الوحدة فى إيطاليا ، وفى فرنسا أثناء حركة التحرر من النازيين ، وهكذا فلإن الاهتمام بالتاريخ ينشأ فى مواجهة الأزمات والتحديات .

◆ لكن ألا تعتقد أن الأزمات والتحديات التى تواجهها الأمة العربية ليست وليدة عامين أو ثلاثة ، وإنما تقود إلى ما قبل ذلك بسنوات عديدة ، وبالتالي يظل التساؤل قائماً : لماذا هذا الاهتمام الجديد بكتابة التاريخ العربى ومراجعته ؟ وفى مواجهة من تتم هذه المراجعة ؟

● أعتقد أن هذا الاهتمام بكتابة التاريخ يعود أيضاً إلى إدراك أنه وقع إهمال للقضايا الحضارية بما فيها قضايا التاريخ ، وقد أدرك البعض أن الفكر السياسى السائد هو فكر ملئ بالشعارات ، وليس هو الفكر التحليلى النقدى ، وتبين للكثيرين أن هذا النوع من الفكر الشعائرى لم يؤد خدمة كبيرة إلى الأمة العربية . من هنا برزت الحاجة إلى تعميق التفكير والمعرفة بالقضايا العربية . كما تبين تاريخ الفترة العربية المعاصرة فى كل قطر ، أو تاريخ الوطن العربى ككل ، كانت كلها محاولات جزئية وشكل من السطحية فى كثير من الأحيان . وهو ما كان له انعكاسات سلبية على التعرف الحقيقى للوطن العربى وتاريخه ، ليس فقط فى العصر الوسيط أو الحديث ، بل فى الفترة المعاصرة أيضاً ، وظهر ذلك بصفة خاصة مع بروز ظاهرة المذكرات السياسية التى طُبعت فى الأعوام الماضية ، وهى مذكرات تضمنت أشياء إيجابية وأتت بمعلومات جديدة ، لكن ظلت

الأبحاث التاريخية متخلقة عن القضايا المعاصرة ، وعودة إلى ما سبق أقول : إن هذا الاهتمام بقضايا كتابة التاريخ هي للاستجدية من جهة ، ومن أجل المعرفة التاريخية ، وهي ضرورية . من جهة ثانية ، ومن جهة ثالثة نظراً لازدياد تحديات التجزئة والتفتت وهي تحديات ظهرت ، بصفة خاصة ، بعد محاولة أخراج مصر من الصف العربى وتوقيع كامب ديفيد واستمرار هذا المسلسل فى اجتياح بيروت . . . ومن هنا ظهر هذا الرعى بعوامل التوحيد والوحدة ، وأبرز عوامل هذا التوحيد هو التاريخ .

◆ من هنا جاءت الدعوة إلى إعادة كتابة التاريخ العربى ١٢

● نعم لأن كتابة التاريخ العربى فى شكلها القديم لم تكن مفيدة فى هذا الاتجاه ، أى توحيد الأمة العربية والتوجه بها نحو المستقبل ، بل كانت أحياناً معيقة لهذا الهدف فإذا راجعنا الكتب المدرسية فى المدارس الإبتدائية والإعدادية والثانوية فى معظم الاقطار العربية ، سنجد أن التاريخ المدون فيها هو تاريخ قطرى ضيق ولا يخدم بالتالى التوجه الحدودى العربى ، وإلى جانب ذلك هناك عشرات بل مئات الكتب التى كتبت عن الوطن العربى وتاريخه فى دول أوروبا وأمريكا الشمالية ، وهى جهود مشكورة ، لكنها كتبت من وجهة نظر غير عربية وبعضها ملئ بالتشويهاً لخصائص الهوية الحضارية العربية . وبرزت أيضاً ضرورة كتابة التاريخ العربى من جديد لمواجهة هذه الكتابات التى تكتب من خارج الوطن العربى ، والتى بعضها علمى وموضوعى ، لكن أغلبها ملئ بالأحكام المسبقة عن القضايا مجموعة من المؤرخين العرب الملتزمين بقضايا الوطن العربى بهذه القضية لكنهم فى حقيقة الأمر مازالوا عند مستوى طرح هذه الاشكالية فى إعادة كتابة التاريخ العربى - مع تقدير الجهود السابقة فليس كلها خطأ - بنظرة شمولية وجذرية وليس نظرة جزئية قطرية .

◆ ألا تعتقد ، مرة أخرى ، أن عوامل التجزئة والتفتت فى العالم العربى من جهة ، والكتابات الغربية «المعرضة» عن تاريخنا من جهة أخرى ، تعود زمنياً إلى فترات أسبق من الفترة الراهنة التى تشهد صحوة فى العودة إلى التاريخ العربى . وبالتالي ألا يكون

عامل تصحيح الوعي الحضارى العربى ، فى مجال التاريخ وعلم الاجتماع وغيره ، من
العوامل الأكثر مصداقية فى تفسير هذه الظاهرة ١٢

● نعم ، لا خلاف بشأن مسألة تصحيح الوعي ، لكن رغم ذلك فإن عوامل التجزئة قد أخذت منذ نهاية السبعينيات منعرجاً خطيراً ، وبدأ تنفيذها فى الوطن العربى بأشكال مختلفة ، بل وأصبحت السيادة الوطنية مهددة فى لبنان وغير لبنان ، وأصبح هناك شعور بأنه لا بد من مواجهة هذا الخطر فى مجالات مختلفة ، وأن الأسلوب القديم فى المواجهة ، أى أسلوب الأيديولوجيات ، لم يعد مفيداً ، وأنه لا بد من تفكير حضارى عميق لمعرفة أسباب الواقع المتردى ، وهذا التفكير الحضارى المعرفى يطرح نفسه فى قضية أخرى هى قضية الحداثة ، فهذا شعار الذى رفعتة الدولة القطرية بعد مرور ثلاثين سنة يعاد التساؤل حوله من جديد ، فهذا الشعار الذى تبنته الدولة القطرية فى معظم أنحاء الوطن العربى عندما أعلنت أنها تريد أن تلحق بركب الحضارة والمدنية ودفعت ثمناً باهظاً لهذه الحداثة فى مشروعاتها التنموية ، لكننا نكتشف بعد ذلك أن التبعية ازدادت ، وأن التخلف ازداد ، وبالتالي بدأ بعض المفكرين العرب يطرحون من جديد : ما هى الحداثة التى تريد أن نحققها .

◆ حتى لا ينقلب هذا الاهتمام الجديد إلى "موضة ثقافية" سرعان ما تتبخر إلا نعتقد أنك كمؤرخ مطالب بالتاريخ لهذا الاهتمام الجديد الذى بدأ يظهر تدريجياً ؟ وكيف ظهرت ملامح هذا الوعي الحضارى العربى اليوم ؟

● فى الحقيقة ، هذه الحالة الثقافية عمرها قصير ، وربما تمتد من حيث الزمن ، إلى ما بعد هزيمة حزيران ١٩٦٧ ، وانطلاقاً من هذا التاريخ بدأت بعض الأصوات العربية تعلن أن المعركة مع العدو الصهيونى الإمبريالى هى معركة حضارية وأنها مطالبون ، فى ضوء هذه الدعوة ، بمراجعة شاملة فى نظمنا التربوية لأنها نظم مليئة بالعيوب ، ولا يمكن أن تخلق أجيالاً جديدة قادرة ، وفى المجال التاريخى ضرورة النظر إلى التاريخ كعامل توحيد ، وفى المجال الفكرى إعادة تصحيح الوعي . والوعى بالكثير من

القضايا وطرحها بشكل جديد ونقدى ، وفى المجال السياسى لا بديل عن الوحدة العربية ، وأنها لابد أن تبنى على أسس جديدة ، لأن الأسس القديمة آلت إلى الفشل ، وكل هذه فصول من ملامح الوعي الحضارى والمعركة الحضارية ...

◆ فى نطاق المعركة الحضارية التى اكتشف فيها العرب ضرورة إعادة كتابة التاريخ وبلورة مدرسة تاريخية عربية ، بالنسبة لعلماء الاجتماع العرب ... تبرز مسألة المناهج المستخدمة فى هذه الحقول المعرفية بصورة رئيسية فهل تعتقد أنه يمكن خوض المعركة الحضارية وبلورة مدرسة عربية فى مجال العلوم الإنسانية ، ونحن لا نزال نتعامل مع قضية المناهج ، فى مجالات علمية حيادية لا تتأثر باختلاف الحضارات والثقافات ، فأنت ، على سبيل المثال - تقول فى بحثك المقدم فى ندوة ليبيا : «أين الأساليب العربية المتبعة اليوم من المدرسة التاريخية الألمانية الجديدة ؟ أين الأساليب المتبعة فى الحقل التاريخى فى الوطن العربى تدرىساً وتأليفاً من التيارات المنهجية العالمية ... وأين المناهج العربية المتبعة اليوم من المدارس التاريخية الفرنسية التى تزعمتها وما تزال مجلة الحوليات ١٩ ؟ . ولا أعرف هنا إذا كنت تطالب بإبداع مناهج عربية أم أنك تطالب بأن تقتفى أثر هذه المدارس التاريخية التى أشرت إليها ١٩ !»

● نعم ، طرحت هذه التساؤلات بصيغة أين ؟ لأننا ما زلنا فى مرحلة طرح الاشكاليات ، نحن لم نتجع بعد فى الوطن العربى فى أن نبلور وأن تبرز معالم مدرسة تاريخية عربية ، أى مدرسة لها منهجها وأسلوبها ، هذا لم نصل إليه بعد . بالطبع لدينا كتابات تاريخية هامة ولدينا مؤرخون عرب يستعملون مناهج مختلفة- وهى معروفة فى الشرق أو الغرب - فهناك من يتبع أساليب ومنهج المدرسة التاريخية الفرنسية ، وهناك من يتبع أساليب ومنهج المدرسة التاريخية الفرنسية ، وهناك من يتبع منهج المدرسة التاريخية الالمانية الجديدة ... ونحن لا نملك أن نتحدث عن مدرسة تاريخية عربية ذات خصائص ومميزات واضحة اليوم .

◆ من حيث أننا لا نملك منهجاً فى الرؤية ...

● نعم ، أنا شخصياً تقلقنى هذه القضية وحاولت منذ سنوات أن أقدم نماذج علمية لما يمكن أن تكون عليه هذه المدرسة التاريخية العربية وخاصة فى دراستى لتاريخ المجتمع العربى الإسلامى فى العصر الوسيط ، وبدلاً من أن أقول إن هذه المدرسة ينبغي أن تتميز بكذا وكذا ، حاولت ذلك عملياً من خلال تقديم نماذج حية لما يمكن أن تكون عليه المدرسة العربية التاريخية ، لكن لا تزال هذه المدرسة فى حاجة إلى أن تبلور منهجها فى الرؤية وهذا المنهج لم يتبلور بعد .

◆ هل يمكن أن تقدم أسباباً تفسر هذا التأخر ؟

● لأن الحقل التاريخى فى العالم العربى يعانى مما تعانيه بقية الحقول المعرفية الأخرى ، نحن لا نزال نعانى من مشاكل تخلف ، لن يتصور أحد إمكانية خروج مدرسة عربية تاريخية عملاقة ومميزة فى ظل نظام تربوى مهلهل وضعيف ، يؤمن أن أقول هذا ، لكن ما أقوله يعكس حقيقة ما يجرى فى مدارسنا وجامعاتنا . فطريقة تدريس التاريخ فى معظم جامعاتنا لا يمكن أن تبشر بمدرسة تاريخية عربية تقف جنباً إلى جنب مع المدارس التاريخية العالمية فلا زالت سائدة أساليب السرد التاريخى وذكر الأحداث التاريخية ..

◆ ينبغي القول أيضاً إن هناك تقليداً للمدارس تاريخية غربية منها الماركسية ومدرسة الحوليات الفرنسية ، وليس فقط ما ذكرته من أساليب السرد التاريخى التقليدى ..

● عفواً .. لكن حتى هذا التقليد لا يتم بصورة صحيحة أيضاً ... فبالتنا اتبعنا مدرسة الحوليات كمرحلة أولى ، لكن أقول للأسف حتى مرحلة التقليد لم ننجح فيها أيضاً . بالطبع هناك مجموعة من المؤرخين الكبار الذين نعتز بأعمالهم ، لكن ماذا يستطيع أن يفعل بعض الأفراد فى مناخ جامعى ملئ بالعلل والعيوب ، فكيف لاستاذ جامعى أن يخلق روحاً نقدية بين صفوف الطلاب ، ونحن نعلم أن المحاضرة يحضرها أكثر من ألفى طالب على سبيل المثال ، إنها محاضرة عامة وليست محاضرة جماعية فى هذه الحالة ... هذه الأوضاع لا يمكن أن تسمح بوجود مدرسة تاريخية عربية ، وذلك

يحدث في ميادين أخرى بطبيعة الحال ، وبالتالي أرى أننا في المرحلة الراهنة علينا أن نعمل بتواضع وان نضع اللمسات الأولى لبروز مدرسة تاريخية عربية ولا بد أن نستفيد من المناهج العالمية خاصة أن هذه المناهج قد حققت ثورة عملاقة في الغرب منذ الحرب العالمية الأولى وحتى اليوم ، فالهزة تزداد عمقاً بيننا وبين التقدم الذي تشهده هذه العلوم ومناهجها التي هي كسب للبشرية جمعاء ، ولا ينبغي تحت شعار إبراز مدرسة عربية تاريخية أن نتجاهل هذه المدارس ومناهجها .

◆ والعكس صحيح أيضاً ، أي أنه لا ينبغي تحت شعار الاستفادة من تقدم المدارس والمناهج الغربية أن نتجاهل الأسس والمقومات التي يمكن أن تُبنى عليها المدارس العربية في التاريخ والاجتماع والفلسفة ...

● هنا ينبغي تحقيق ما أسميه بالمعادلة الصعبة . ليس معنى هذا أن نتوقع على أنفسنا بل نستفيد من هذه المناهج - سواء الماركسية ، الوضعية ، الحوليات - لأن هذه المدارس تتضمن جوانب شمولية كونية ولها خصوصيات أيضاً تتعلق بالمناخ والظروف التي نشأت فيها .

◆ هل نحن في تعاملنا مع هذه المناهج نميز بين ما هو عام وما هو خاص بها في اعتقادك ؟

● لا بد أن نميز بين العام والخاص في ممارساتنا "العلمية"

◆ أنا أأسأل عما يحدث فعلاً في ممارساتنا «العلمية» ؟!

● ما يحدث هو أننا لا نراعي هذه التفرقة بين ما هو عام وما هو خاص في هذه المناهج ، يمكن أن نستفيد مثلاً من التقدم الحاصل في منهجية قراءة النصوص .

◆ ما يحدث في تصوري أننا كثيراً ما نتحدث عن شمولية المنهج في الوقت الذي يتجاهل فيه المؤرخ العربي ، أو عالم الاجتماع ، أو المفكر الرؤية الخاصة التي تجسدها الثقافة التي ينتمي إليها مؤرخونا .

● هنا المشكلة والصعوبة ، سأعطيك مثلاً نموذجياً ، هناك مدرسة تاريخية تعد حديثة جداً فى ألمانيا فى كلية التاريخ بالجامعة الجديدة فى مدينة "بيلفلد" وقد تحدثن مع ممثلها أثناء مؤتمر للتاريخ العالمى فى العام الماضى ، وكل رواد هذه المدرسة التى تحمل مشعل الريادة الآن من أبناء مدرسة "الحوليات" الفرنسية ، وطوروا بعض نقاطها الرئيسية ، أضرب هذا المثل لأقول إن هذا ممكن فى الثقافة العربية أيضاً ، بمعنى يمكن أن تستفيد من المناهج الغربية وأن نحافظ فى الوقت نفسه على خصوصيات المدرسة التاريخية العربية .

◆ عندما تقوم بمهمة التأريخ للفكر العربى الحديث والمعاصر . . أى المناهج ترى أنها أصح فى حل الغار هذه المعادلة الصعبة ١٩

● اتفقنا على أننا لا نملك مدرسة تاريخية عربية ، والحال هذه ، كيف ندرس تاريخ الأفكار العربية خلال نصف القرن الماضى ، وما أقوم به هو أنسى أعود أولاً إلى جميع النصوص الأصلية المتعلقة بهذه الأفكار وليس ما كتب عنها من ملخصات سواء من قبل عرب أو أجانب ، وذلك حتى أتخلص من أى تأثير قد لا يساعد فى فهم حقيقة هذه الأفكار ، فانا أريد أن أعرف هذه الأفكار مباشرة وبنفسى وبدون وسائط ثم أدرسها بعد ذلك من منظور شمولى وليس جزئى ، مثلاً حدث الوحدة بين مصر وسوريا عام ١٩٥٨ لا أدرس هذا الحدث فى علاقة مصر وسوريا فقط ، بل أدرسه فى محيطه العربى وفى أصدائه فى عواصم عربية أخرى ، وبالتالي أعطى للأفكار طابعها الشمولى والوحدوى ، وفى المرحلة الثالثة أفرا كل ما كتب عن هذه الأفكار فى تلك الفترة التى أدرسها لأرى إذا كان ما كتب قد تأثر برؤية ما أو نزعة ما ، وبالتالي أستطيع أن أكون لى موقفاً مستقلاً وأستطيع أن أنتقد الروى الأخرى التى أرخت لهذه الأفكار أيضاً فى نفس الفترة ، لكن طالما أننا لا نملك بعد منهجية واضحة ، تظل القضية اجتهادات شخصية . . فمؤرخ آخر قد لا يسلك هذا السبيل ، وإنما يسلك السبيل السهل ، يقول ما كتب عن هذه الأفكار هو كذا ، وربما لا يدرك أفكاراً أخرى ، نحن الآن فى هذا الوضع المؤلم فى

كتابة التاريخ فى الوطن العربى . مثال آخر من المدرسة الماركسية التى نحترمها ونقدر جهودها ، لكن عندما نطبق بعض مفاهيمها على العالم العربى نجد عدم مواءمة بينها وبين الموضوعات التى تعبر عنها . فمؤرخو المدرسة الماركسية يطبقون مفاهيم برزت وتطورت فى مناخ حضارى وواقع اقتصادى واجتماعى معين ، ويريدون تطبيقه على واقع اجتماعى عربى يختلف عنه تماماً . هذا ما يحدث ، نحن نريد أن نتجاوز هذه المرحلة .

◆ وما الذى يحول دون ذلك ؟

● حاولت فى دراسة سابقة وضع أسس منهج مدرسة تاريخية عربية ، تبدأ بنقد دقيق للوضع المعرفى فى الحقل التاريخى العربى الحالى . ما هو هذا الوضع ؟ ما هى المدارس المؤثرة فيه . فأغلب المؤرخين الآخرين لا يشعرون بهذه المشكلة . يقولون : لماذا خلق مدرسة تاريخية عربية ، يكفى ما نستخدمه من مناهج ومن دون إدراك فهم لعملية الوعى وإعادة تصحيح الوعى .

◆ ربما لأن هذا الأمر يكشف عن الاغتراب الذى يعيشون فيه .

فى الحقيقة ، الذين يدركون أهمية هذه المحاولة هم قلة بين المؤرخين العرب ، لكنها قلة رائدة .

◆ نحن نسمع هذه الأيام عن مدرسة عربية فى علم الاجتماع ، وأنت تتحدث عن مدرسة تاريخية عربية لكنى أخشى أن يصير الحديث عن مدارس عربية نوعاً من "الموضة" ومن دون أن يقدم أحد إضافات جديدة وحقيقية .

● نعم هناك خطر أن يحدث مثل هذا الأمر ، لكن ما هو أكثر خطورة من ذلك هو أن يغطى على هذه المحاولات الطابع الأيديولوجى الشعائرى ، وتقتل فى المهد . أحاديث الموضة الثقافية خطرهما وارد ، لكن ما هو أخطر ، كما قلت ، أن يتم السيطرة على هذا التوجه الجديد بأيديولوجية معينة .

◆ قلت أثناء حديثك إن ما تقدمه ، فى هذا الشأن ، هو اجتهاد شخصى ، وقلت إن

العودة إلى قراءة النصوص الأصلية ، ثم قراءة ما كتب عنها ، وربطها بالسياق الشمولى ، لكنى أرى خلاف ذلك ، وأرى أن البداية لابد أن تكون أولاً بالعودة إلى المرحلة التى كانت لدينا بها مناهج ذاتية فى التاريخ ، وأن يبحث ثانياً لماذا انقطعنا عن هذه المناهج ، أو لماذا انقطعت عنا ، وأن نبحث عن إمكانية الاستفادة منها أو تجديدها ، أو هدمها إذا لزم الأمر ، وفى الوقت ذاته لا نغض الطرف عن المناهج الغربية وإنجازاتها ، أقول ذلك لأننى لم ألاحظ فى حديثك العودة إلى ما كنا نملك من مناهج ورؤى ، ربما فى العودة إلى هذا الطريق قد تكشف الوعى الحضارى المفقود .

● أتفق معك فى أننا لا ينبغي أن نبدأ من الصفر ، بالطبع لدينا تراث عربى ثرى وضخم فى مجال الحقل المعرفى التاريخى ، ولدينا أسماء لكبار المؤرخين . طبعاً هم مؤرخو حوليات ، لكن أيضاً لهم رؤيتهم وأساليبهم ، ولابد أن نتعرف على ذلك بدقة ، مثلاً المؤرخ العظيم المقرئى قام بمجهودات مهمة ، ولا يمكن أن تتصور كذلك البحث عن منهجية تاريخية تتعلق ببعض بلدان المغرب العربى والتركيبية القبلية بدون الاستفادة من تراث ابن خلدون ، إذ لا يمكن لمدرسة جديدة أن تكون منقطعة عن أصولها ، لكن حالياً القضية موجودة ومطروحة فيما يتعلق بالمناهج الحديثة العالمية ، ومع ظهور الجامعات العربية التى كانت استفادتها من هذه المناهج استفادة متواضعة والتى لم تربط هذه المناهج بأصولها التاريخية ، هذه المدرسة الجديدة من مهماتها قراءة جديدة للتراث التاريخى العربى ... وأنا أؤمن أن القضية فى الوقت الحالى ، وفى ظروف العالم العربى الذى نعيشه اليوم هى أشياء تتجاوز المجهودات الفردية ، ينبغي أن تكون عمل جامعات ومراكز بحث ، وهو ما نفتقد إليه فى الوطن العربى ، هذه هى القضية الكبرى . . . لابد أن تبرز مؤسسات جديدة علمية تبنى هذا التيار الحضارى ، وينبغى أولاً وقبل أى شئ أن تتعد عن محاولة السيطرة عليها وإيديولوجيا من هذا النظام أو ذاك .

◆ تساؤل محورى ، فى هذا الكتاب ، وسبق أن طرحته على مفكرين آخرين، يقول بعض المستشرقين : أنتم تنتقدون الاستشراق وأبحاثنا عنكم ، لكن ماذا كتبتم أنتم عنا ،

وهل قدمتم شيئاً يذكر بالنسبة إلى ما كتبناه نحن عنكم ؟ ماذا تقول أنت عن هذا الطرح ؟

● فى الحقيقة أنا أعتبر هذا الطرح يحتوى على مغالطة ، ومنطق لا يصح ، لأن هناك قضية موضوعية . . نحن لا ننكر أننا مجتمع يشكو من التخلف ، ومن الركود الذى طال سنوات عديدة ، وفترة استعمارية سادت قرونًا من الزمن ، هذا الحديث يمكن أن يوجهه أصحابه إلى بلد أوروبى ، هذا الكلام يمكن أن يتوجه به مفكر فرنسى إلى مفكر المانى أو إيطالى ، أما أن يقال هذا بالنسبة للمجتمعات النامية والمجتمع العربى بالذات فإنه يحتوى مغالطة كبيرة . لأننا نحن فى الحقيقة ، لابد أن نكون متواضعين ، وأننا لا يمكن أن نقدم شيئاً كبيراً لموضوعات عن تاريخ الغرب لأنها موضوعات قد أشبعت بحثاً من جانب الغربيين أنفسهم ، وإن كان هذا لا يمنع بعض الباحثين العرب من إعداد رسائل علمية حول موضوعات تتعلق بالغرب ، وقد تكون جيدة ، لكنها فى النهاية جزئية ومحدودة ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فإن قضايانا وموضوعاتنا فى حاجة إلى جهودنا وهى كثيرة ، فكيف أهتم بموضوع يتعلق بالغرب وأمتى وتاريخى وبلادى فى حاجة إلى جهودنا المتواضعة . ليس معنى هذا أن نتجاهل تاريخ الآخرين ، وأكرر طرح بعض المستشرقين فى هذا الشأن يتضمن مغالطة ولا يمكن المقارنة بيننا وبينهم فى هذا المجال .

◆ بعض من حاورتهم من المفكرين العرب رفضوا هذا الطرح لكن لأسباب أخرى غير تلك التى ذكرتها الآن ، يقولون إن المغالطة فى طرح هذا النفر من المستشرقين تكمن فى أننا لدينا بالفعل استغراب أكثر من اللازم . كيف تنظر أنت لمسألة الاستغراب الحضارى ؟

● إذا تحدثنا عن الاستغراب فى مجال البحث العلمى فقط ، فهنا أقول إن التعريف بالغرب والكتابة عنه ممكن ، لكنها تظل جهوداً جزئية ولا يمكن أن تقارن باهتمام الغرب بالشرق عبر الاستشراق ، ثم إن هذا الاستشراق لم يأت صدفة ، بل جاء نتيجة ظروف تاريخية واستعمارية ، ربما لو جاء يوم واستعمرنا الغرب لانتجنا استغراباً موازياً للاستشراق .

◆ هل يكون الاستغراب بالضرورة مرادفاً للهيمنة والسيطرة على الغرب أم يمكن أن يكون هناك استغراب بدون استعمار ، أعنى استغراب حضارى ؟

● أردت من كلامى أن أوضح فقط أن الاستشراق جاء فى ظروف معينة . أما الكتابة عن الغرب . فهي موجودة فى مئات الكتب المترجمة ، هذا نوع من الاستغراب . هناك كتب عربية عن الحروب الصليبية كتبها مؤرخون عرب وهى موجودة ، لكن من الطيى أن تحتل الموضوعات العربية والوطنية الدرجة الأولى ، ومن هنا حجم هذه الدراسات بالنسبة لاهتمام الغرب بالشرق قد تكون أقل فى مجال البحث العلمى ، أما إذا تحدثنا عن الاستغراب كظاهرة حضارية ، فتصبح مقولة من قال لك أننا لدينا استغراب أكثر من اللازم بمعنى الاغتراب ، وهذا أمر جلى وواضح إذا نظرنا إلى التبعية الفكرية واللغوية مثل بلدان المغرب العربى .

◆ ألا تعتقد أن وجود ثقافة عربية قوية فى نفوس أبنائها ، هو أمر يسمح بإنتاج هذا الاستغراب الحضارى ؟

● لا يمكن لهم أن ينتجوا استغراباً بطريقة موضوعية فى مجال البحث العلمى، إلا إذا تخلص الوطن العربى من عقدة التبعية للغرب حتى يستطيع أن ينتج ويبدع ويكتب عن الغرب ، وهذا لا يمكن أن يتحقق إلا إذا احتل الوطن العربى مركزاً حضارياً متقدماً . لكن أقول ، فى الحالة الراهنة ، لا بد من التفتح على الحضارات ، لكن بشرط أن يكون ذلك بمقدار ، لأننا لو اتجهنا إلى الكتابة عن الغرب والتعريف به فإن ذلك سيكون على حساب معالجة مشاكلنا . نحن نجهل قضايانا ، قل لى ما هى الأبحاث الاستراتيجية الموجودة فى الوطن العربى ونحن نواجه عدو ؟ أين أبحاثنا عن الحاضر العربى والتوجه المستقبلى ونحن نعانى يومياً من عدو يحتل أرضنا ؟ كيف يمكن أن نطالبى ونحن فى هذا الوضع المعرفى الضعيف ، وموضوعاتنا ومشاكلنا تتطلب منا أن نبذل الجهد الكبير ، أن نفضل القيام بدراسات عن الغرب .

أنور لوقا
أنا مستغرب بدون استغراب

بعد مشاركته فى ندوة معهد العالم العربى ، فى العاصمة الفرنسية ، عن «الاستشراق موضع تساؤل» ، كان لنا هذا اللقاء مع الدكتور أنور لوقا عن الاستشراق ، الاستغراب ، صورة الآخر والعوامل المتحركة فى تكوينها والمناهج فى ذلك . وأنور لوقا لا يفضل الحديث عن هذه القضايا من خلال مصطلح الاستغراب بل يرفض استخدامه ويرى أنه يعبر عن ردة ثقافية ويتحدث عن الحداثة وعلاقتها بهذه الحداثة ويميل إلى مصطلحات الحداثة كما عاشها الطهطاوى التى تفترض اضطراباً بالعلاقات التى يستوجبها التفاهم مع العالم والانفتاح على المعرفة ، من حيث هى معرفة لذلك يرى أن مصر والعالم العربى بوجه عام فى حالة عزلة عن العالم على المستوى المعرفى ، وأنتا تجهل الفكر الحديث الذى يمس وجودنا المعاصر . ويرى أن للأوضاع السياسية دوراً فى تلك العزلة وكذلك الأوضاع الاقتصادية ، ويتساءل : هل ترجعنا إلى العربية ما قدمه مبعوثونا إلى معاهد الغرب والشرق من رسائل جامعية فيها حصيلة التفاعل بين تراثنا وأحدث نظريات العلوم لمفكرين أمثال مصطفى صفوان ومحمد أركون وإدوار سعيد وجورج شحادة ، بوصفهم بعض صناع الحداثة عندنا ، رغم تعبيرهم عنها بالفرنسية أو الإنجليزية أو غيرها من لغات المراكز العلمية ولغات الفنون الجميلة .

وأنور لوقا أستاذ فى جامعة ليون - فرنسا - وعمل قبل ذلك أستاذاً فى جامعة إكسن آن برونسانس - فرنسا - ولا يزال يعمل أستاذاً فى جامعة جنيف فى معهد الترجمة ، وكان قبل ذلك أستاذاً مساعداً فى جامعة عين شمس فى قسم اللغة الفرنسية .

◆ هل تحدثنا ، أولاً ، عن مسيرتك : كيف تعرفت على الثقافة الغربية ، انطباعاتك وكتاباتك الأولى ، وبمن تأثرت ؟

● ... من الشخصيات التى لعبت دوراً بارزاً فى توجيهى وتكوينى الثقافى جان مارى كاريه الذى تعرفت إليه عندما زار مصر سنة ١٩٥٠ ، وكان أستاذ الأدب الفرنسى فى جامعة القاهرة فى سنوات ١٩٣٢-١٩٣٤ ، كما أنه ألقى محاضرات فى الجمعية الجغرافية المصرية عن الأدباء والرحالة الفرنسيين فى مصر ، صدرت فى كتابه الشهير الذى يحمل العنوان عينه . وبعد أربع سنوات أمضاها فى مصر ، عاد إلى فرنسا ليشغل منصب أستاذ فى الأدب المقارن بجامعة ليون . والغريب أننى الآن فى جامعة ليون

أشغل المنصب نفسه ، والشخصية الثانية التي لعبت دوراً مهماً في حياتي هي طه حسين وأسلوبه المميز في الترجمة ، وكنت أريد أن أعرف كيف حوّل شعر راسين إلى لغة عربية تقرأها ، فلا تشعر أنها مترجمة . ثم بدأت الترجمة قبل أن أغادر مقاعد الطلبة في كلية الآداب بجامعة القاهرة ، وظهر أول كتاب مترجم لى بعنوان : صوت لابروير ، والاحظ الآن أن كلمة صوت قد استخدمتها ، بدون وعى في هذا الوقت ، متأثراً بطه حسين الذى كان الصوت بالنسبة إليه مسألة جوهرية في الحياة وفي الكتابة مثل صوت باريس ، وصوت أبى العلاء المعري ثم ترجمت أعمالاً أخرى لراسين وفاليري الخ . . . وانضم إلى الصحافة ، كتبت في جريدة الزمان المسائية بالعربية التي كانت تصدر عن إدارة جورنال مصر بالفرنسية ، وكان عملي بها هو ترجمة بعض الأعمال الغريبة ، ونشرت سلسلة من المقالات ، ثم بعثت إلى فرنسا لتحضير رسالة الدكتوراه . وكنت أرسل أثناء وجودي فيها مجلة "الكاتب" التي كان يصدرها عادل الغضبان عن دار المعارف ، ثم كتبت في مجلة أوسع انتشاراً هي «كتابي» التي كان يصدرها حلمى مراد ، وكنت أزوّه بالكثير من المقالات التي تعرف بالمرشحات الحديثة والقصص التي تعبر عن التيارات الجديدة في فرنسا . . . كنت أفعل ذلك وفي ذهني القارئ العربي المثقف . كذلك كتبت في مجلة اسمها «كراسات التاريخ المصري» وكان يصدرها شاب نشط هو جاك داغر ، وأتذكر جيداً هذه المجلة لأنني كتبت فيها مقالاً بحسن نية تحت عنوان : " النهضة المصرية وحدود حملة بوناپرت " أشرت فيه إلى مسألة التأثير الثقافي للحملة الفرنسية وحطمت أسطورة أنها كانت إيقاظاً ثقافياً في مصر . وكنت مقتنعاً بأن النهضة الثقافية المصرية لم تكن مستوردة وإنما كانت تلبية لحاجة عميقة عندنا مثلها رفاة الطهطاوى بصورة نموذجية . . . وقد أثرت هذه المقالة في الفرنسيين بشكل لم أكن أتوقعه ، رغم أنها لم تتضمن أى مهاترة بل كانت بحثاً تاريخياً علمياً ، ورغم أن المقال ظهر عام ١٩٥٥ إلا أن ردود الفعل عليه استمرت طويلاً . وأتذكر أن جان لاکوتير تحدث عن هذا المقال في كتابه عن عبد الناصر كما حثني جاك بيرك بشأنه في إحدى الحلقات الثقافية التي شاركنا بها سوياً . . . ثم أنهيت رسالة الدكتوراه وظهرت بالفرنسية عام ١٩٧٠ تحت عنوان : أدب الرحالة المصريين في فرنسا في القرن التاسع عشر ،

وكانت بشكل ما الرد على كتاب جان ماري كاريه عن الرحالة والكتاب الفرنسيين في مصر ...

◆ هل يمكن أن نقول إن رسالتك هي دراسة في "الاستغراب" كما كان كتاب كاريه دراسة في الاستشراق ؟

● في الواقع هما وجهان لعملة واحدة . لكنني أعتقد أن كلمة «الاستغراب» فيها طاقة هجومية لذلك أريد أن أستبعدا من الحوار ، فالحوار مع الغرب موجود منذ القدم . وفي الفترة الحديثة كان رفاة الطهطاوى هو الرائد الذي جاء إلى فرنسا وورث تنوير القرن الثامن عشر ، ومكث مدة طويلة في مناخ من الحرية الثقافية والإحترام المتبادل جعله يتمكن من الحوار مع الآخر ومع نفسه . وكلنا نعلم سلامة منهج «التخليص» الذي اتهمه صاحب «تخليص الإبريز» ، لقد كان مستغربا دون أن يختل توازنه الفكري بهذا الاستغراب ، إنما الخلل مائل اليوم بمجرد إشهار هذه اللفظة «الاستغراب» التي ثم عن معنى الانمحاء والجنوح وتعبر عن تهاوى قائلها إلى جانب معين . . الأكرم لنا أن نظل مستغربين على السليقة أى مستوعبين لعلاقتنا بالغرب ونحن واثقون من أنفسنا ونسلك سلوك أنداده .

◆ إذا أنت ترى المشكلة في المصطلح الذي يحمل طاقة هجومية - موازية للطاقة الهجومية الموجودة في الاستشراق - وليس مبدأ الاستغراب في حد ذاته ، أى ضرورة دراسة الحضارة الغربية من خارجها ؟

● بالطبع هذا الاستغراب الإيجابي الطبيعي موجود لدينا بالفعل منذ أقدم عصورنا الثقافية ، غير أننا لم نكن نطلق على هذا النشاط كلمة سلبية كالاستغراب ، مثلاً في العصر العباسي أطلقوا على أكبر مركز للاستغراب اسم «دار الحكمة» حيث انبرى المترجمون لترجمة الكتب اليونانية ، أما اليوم فإن اشتقاق لفظة الاستغراب على نمط كلمة الاستشراق محاكاة لها أنكاء عليها وهو تناقض من جانب من يريد أن يتحرر من المحاكاة ويثبت أنه قوى مستقل . . يا للغرابة ! إني أنا الذي أستغرب : أى أعجب من هذا التناقض . لقد كانت لدى فكرة جيدة عن حسن حنفى كمفكر رصين ، لكن كتابه

الأخير يتضمن سطحية وغوغائية تعكس ظاهرة ردة ثقافية . كان طه حسين يتحدث عن الأخذ والعطاء بين ضفتي حوض البحر المتوسط ، فلماذا نصنع اليوم ردة ونكسة ؟ أليس من علامات التقوقع أن يظهر مصطلح «الاستغراب» في هذه الفترة من الفقر الثقافي عندنا والتي لاحظنا فيها انحسار نشاط الترجمة ؟

◆ هذا الاستغراب الإيجابي الذي نتحدث عنه ، في مواجهة الاستغراب السلبي أو الهجومى ، أين نجده الآن ؟ أين تلك الدراسات والأبحاث والروى التي تمثل الثقافة العربية المعاصرة ؟ أين إضافاتنا ؟

● أليس في جامعاتنا أقسام اللغات الأجنبية وحضاراتها ؟ أقسام اللغات الحديثة كالفرنسية أو الإنجليزية واللغات القديمة والتاريخ والفلسفة ... فيها نتعلم ونبحث ونناقش كيف يتصرف الآخرون ويعبرون عن مشروعاتهم الفكرى وبنائهم الحضارى، إننا نحلل كتبهم وعلومهم وأنظمتهم وتياراتهم الفكرية ، وهذا الاستغراب يمارسه أيضا أساتذة القانون فى كليات الحقوق وأساتذة العلوم فى مختلف المختبرات العلمية وأساتذة الفنون الجميلة ... إلخ ، باختصار : مخاطبتنا للغير عن أنفسنا ومخاطبة أنفسنا عن الغير المماثل أمامنا هى عملية واحدة ذات شقين . والقول «بالاستغراب» إهدار لنصفها وإخلال بحقنا الطبيعى فى توازن الأخذ والعطاء .

◆ كيف تفسر أن هناك بعض الباحثين الغربيين وكذلك العرب الذين لا يرون فى «الاستغراب» طاقة هجومية ، يطالبون بالحاح بأن تبدأ مرحلة جديدة فى دراسة الحضارة الغربية من خارجها ؟

● أنا أرى من الأفضل للحضارة العربية أن تدرس من خارجها بعين العرب أنفسهم . لأنه طالما نحن ملتصقون بنصوصنا وكلامنا خصوصا فى عهود الانحطاط التى نعيشها فإن النكسة ستزداد خطراً ، ولا بد أن نبتعد قليلا وننظر إلى أنفسنا فى المرآة .

◆ تحدثت عن الردة الثقافية وعن النكسة وعن الطاقة الهجومية .. لكن لدينا من يقول إن الطاقة الهجومية آتية من الجانب الآخر ، من الضفة الشمالية للبحر المتوسط ، وأن ما نفعله هو محاولة للاحتماء من هذا المدوان ؟

● لقد عشت هذه التجربة أيام عبد الناصر ، كانت نوعاً من الاحتجاج الوطنى ، كانت رغبة فى أن نعبّر عن أنفسنا بالعربية إلى درجة أنه خفض ساعات التدريس باللغات الأجنبية وكانت النتيجة أننا افتقدنا اللغات الأجنبية واللغة العربية أيضاً ، ونسينا أننا عندما نستخدم لغة العالم الخارجى فإن ذلك يعد إضافة إلى ثرواتنا . هذا الإحساس بالنقص والانطواء ، أنا كنت أدرس اللغة الإنجليزية فى المرحلة الابتدائية ، لقد انقرض هذا ، وصار لدينا ناس أميون حتى باللغة العربية . فمن الطبيعى عندما تدرس النحو الإنجليزى ستجد له قواعد معينة ستجعلك تفكر فى النحو العربى وستتقن قواعد النحو العربى عندما تقارنها بغيرها ، لكن لوحدها ربما لن تتضح العلة فى استخدام هذه القواعد ، فى تصورى أن ميزة إيجابية كبيرة فقدناها بفقدان اللغات الأجنبية .

◆ بشكل عام فإن صورة الغرب فى وعى المثقفين العرب - والعالم الثالث - لم تعد تلك الصورة التى كانت فى الفترة التى بدأت فيها ترجماتك . والصورة الآن بهامته الألوان ولا أقول انهارت تماماً ، كيف نفسر ذلك ؟ وعلى من تقع المسؤولية ؟

● يبدو لى أنه ينبغى ألا نرد على أخطاء الغرب بأخطاء من عندما وإنما نرد على الجهالة بالحكمة لكى نكسب . فعندنا يجرّدون علينا الجيوش والأساطيل لا ينبغى أن نتخلّى عن قيمنا الثقافية ، وأعتقد أن تنازلنا فى الوقت الحالى عن الترجمة وعن البحث هو تخلٍ عن قيمنا الثقافية وتفريط فى حقوقنا الخاصة جداً بل أعتقد أنه من الضرورى لنجاح المقاومة أن نفهم جيداً من الذى أماننا وما الذى يكمن وراء فكره ، وأن نخاطبه بلغته ، وهذه أمور غير جديدة فى التاريخ . . .

◆ فى الماضى القريب كان هناك إيمان عميق لدينا بقيم العقلانية والتنوير والآن هناك وعى بأن هذه القيم لا تسود بين الناس بالمقدار عينه . ولم تعد هناك معايير ثابتة ، فأى قيم ثقافية ندعى الحفاظ عليها وتنميتها الآن ؟ وهل يمكن استعادة مشروع طه حسين اليوم مرة أخرى ؟

● أبداً وأقول : طه حسين كان تعبيراً عن عصر معين . وكان دائماً يقول نحن أنادى للغرب ، وبيننا وبينه علاقة مساواة . كان يدعو للتعامل مع الغرب بدون خوف وبدون

مركب نقص ، ولا ينبغي أن ننسى أن طه حسين أثناء حرب المقاومة فى الجزائر رد نياشين فرنسية حصل عليها فى وقت سابق . فى الواقع إننا اليوم لم نعد نملك أنفسنا . . . ثم نقول إن الغرب هو الذى اعتدى علينا وجردنا من قيمنا . . . لا ، نحن الذين تخلينا عن قيمنا . تلامذة طه حسين فى كل مكان ، لكنهم شردوا عندما تناول السلطة رجال غير مثقفين . . . جاء النظام العسكرى فى مصر وأقصى طه حسين ولم يتحقق مشروعه ، لأن العالم شهد هزات وفقدنا الآن البعد الثقافى الذى مثله طه حسين فى فترة ما من تاريخنا . . . الهوة الآن عميقة.

◆ ما هى ملامح مشروع نهضة ثقافية جديدة فى العالم العربى؟ من أين نبدأ ؟

● ينبغي أن نبدأ باستعادة الشقة بالنفس ، ولن يكون ذلك عن طريق «وصفات» جزئية وإنما باستعادة تراث الأعماق الثقافية والحضارية ، فمصر والشرق أساس الحضارات كلها . علينا أن نبدأ بالخروج من الامة أولاً .

محسن مهدي
فلاسفة الإسلام تكلموا باسم الآخر

العلاقة مع الآخر لم تكن غالبة عن الحوار مع محسن مهدي الذي كرس نشاطه وأعماله لبحث قضية العلاقة بين الفلسفة الإسلامية والفلسفة اليونانية، ومن أعماله الرئيسية : فلسفة الفارابي الأفلاطونية والأرسطية (١٩٦٢) والفلسفة السياسية في العصر الوسيط (١٩٨٤) . ويشمل محسن مهدي في جامعة هارفارد، ويدير في الوقت عينه «مركز لغات وحضارات الشرق الأدنى» . وقد ألقى عدة محاضرات في معهد العالم العربي بباريس عن : الفلسفة السياسية في الإسلام - الفارابي والأفلاطونية. وعن محاضراته وأعماله ورويته للآخر الفلسفي في المصور الوسطى كان هذا الحوار :

◆ بدأت مسيرتك الفكرية بدراسة بابن خلدون، هل كان ذلك مصادفة أم أن لهذه البداية دلالات يمكن أن تطلعنا عليها ؟

● بدأت في الحقيقة، بإبن خلدون لأنني كنت أتناول عن تاريخه، عن علاقته بماضيهِ وبمستقبله، واخترت ابن خلدون لأنه كان ينظر إلى التاريخ العربي كجزء من التاريخ الإنساني، ولأنه حاول أن يركز على أسس نشأة هذا التاريخ وطبيعته وتطوره . ولأنه كان يهتم أيضاً بمشكلة الانحطاط وتغير حالة العالم العربي من حالة كان له فيها موقع الصدارة في ما يخص الإبداع الفكري والحضاري إلى حالة أخرى أصبح فيها إسهامه من الدرجة الثانية أو الثالثة، في الوقت الذي نهضت فيه أجزاء أخرى من العالم . وتجسد اهتمامي هذا في كتاب أصدرته عن ابن خلدون، ثم قادني هذا الاهتمام إلى دراسة الفلاسفة من أجل فهم الأسس الفلسفية للتاريخ وتطور المجتمعات . وكان من الطبيعي أن أُنْجِه نحو الفيلسوف السياسي الذي يمثل الفلسفة السياسية في الفكر السياسي الإسلامي . وهو الفارابي .

◆ عندما انتقلت إلى دراسة الفارابي هل كانت أعماله متوفرة ومحقة بصورة علمية دقيقة ؟

● وجدت بعض الكتب البسيطة للفارابي، في ذلك الوقت، لكنها كانت في طبعات

لا تقرأ، بينما كان كثير من مؤلفاته لا يزال مخطوطاً في أماكن مختلفة من العالم، بعضها كان في العالم العربي، والقسم الأكبر منها كان في تركيا وإيران وأفغانستان وروسيا. فأضيت مدة كبيرة في البحث عن هذه الكتب وقمت بتحقيقها ونشرها. ولحسن الحظ ما زال أغلبها يعاد نشره بصورة مستمرة، من دون علمي طبعاً، عن دار المكتبة الشرقية في بيروت.

◆ هل تُرجمت أعمالك بالإنجليزية عن الفارابي إلى العربية ؟

● مع الأسف لم يترجم منها الكثير. بعضها ترجم إلى الفرنسية، وبعضها ترجم إلى العربية، لكن أغلبها لم يترجم بعد، وما زلت أفكر في أن أجمع مجموعة منها لكي أترجم إلى العربية قريباً، غير أن اهتمامي المباشر الآن هو هذه المحاضرات التي ألقيتها في «معهد العالم العربي». وستكون بداية لكتاب سيصدر عن فلسفة الفارابي السياسية وعلاقة الفارابي بالتراث الفلسفي اليوناني، خصوصاً الأفلاطونية من جهة، وإبراز أهمية الفلسفة السياسية للعالم العربي الإسلامي في العصر الوسيط من جهة ثانية.

◆ ما هي هذه القضايا التي من خلالها برزت أهمية فلسفة الفارابي السياسية بالنسبة لك ؟

● يمكن القول إن من مزايا الفارابي أنه جاب بلدان المشرق. فقد ولد في آخر المشرق. وسافر إلى بغداد وسورية ومصر، وصارت لديه فكرة عامة عن طبيعة العالم الإسلامي، في وقت كانت الخلافة العباسية لا تزال تتمتع بشيء من الحياة والقوة، وفي هذا القرن العاشر حاول الفارابي أن يفهم طبيعة النظام السياسي في المجتمع الذي عاش فيه، وكان يُشعر الإنسان بوجود قضايا وجودية ويومية معاصرة، هي التي تدعو إلى أن يستعمل تاريخ الفكر الفلسفي، كي يفهم ما يجري حوله. وكتب الفارابي في الكثير من الموضوعات، بيد أنه ركز على مشكلة علاقة مركز الخلافة أو الإمبراطورية بالمدن والأمم المختلفة التي كانت مندمجة بها. فقد كانت الخلافة العباسية في هذا الوقت على

قدر كبير من الانتشار والاتساع، ومع ذلك، وهو الأهم، كانت هناك مدن عديدة، وأمم عديدة، ودول عديدة، مستقلة تقريباً في علاقاتها مع هذه الخلافة، بل الطريف أن الخلافة العباسية، وهي مركز الثقل في هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف، كانت هي التي تحافظ على علاقات هذه الأمم بعضها ببعض، فكانت هناك خلافة واحدة لكنها تتضمن نظاماً سياسياً مختلفاً، تجمع بينها، كأنما هي دولة غير مركزية، وكان هذا أهم شيء في نظري، حيث نجد أمماً مستقلة تساعد بعضها البعض وتساعد الخلافة المركزية . والملفت في زمن الفارابي ما جرى في الموصل وحلب، إمارتين صغيرتين يرأسهما الحمدانيون، فقد كانوا يدافعون عن الخلافة العباسية في العراق نفسه وعلى الحدود البيزنطية . ما أخلص اليه هو أن النظام غير المركزي كانت له فوائد كثيرة . فقد كانت الأمم والمدن مهتمة بالدفاع عن بعضها البعض، فمع وجود اللامركزية والاستقلال الذاتي لهذه الدول كان هناك نوع من الوحدة والتعاضد، وهذه قضية أعتقد أنها تهمنا اليوم . نحن متفرون ولا يوجد هذا النظام الشامل الذي نجد مثله في أمريكا وأوروبا مثلاً، حيث تبدأ الدول والمدن صغيرها وكبيرها . تتحد لغرض الصالح العام، وهذا الشيء كان قائماً في التاريخ العربي ثم ضاع، هذه إحدى المشكلات التي يفكر فيها الإنسان عندما يدرس الفارابي .

◆ عنوان محاضراتك الست في «معهد العالم العربي» هي «الفلسفة السياسية في الإسلام» وتحتها «الفسارابي والأفلاطونية» والمتابع للمحاضرات التي ألقيتها حتى الآن يخرج بانطباع أنك تتحدث أساساً عن مصادر الفارابي في الفكر اليوناني وليس عن الفلسفة السياسية في الإسلام ؟

● الواقع أن الطريقة التي كان يكتب بها الفارابي هي طريقة طريفة وغير معروفة بصورة عامة، لكن أصولها قائمة في الطريقة العامة التي كان يؤلف بها في ظل الإسلام، وهي أن الإنسان عندما يكتب، فإنما يكتب دائماً عن الأصول أو عن الأوائل، فعندما

يريد أن يقول شيئاً فداًئماً يتكلم باسم الأوائل، بمعنى أن يقول ما يريده باسم أفلاطون أو أرسطو. الواقع أن جميع هذه الكتب التي كتبها الفارابي هي إلى حد كبير مؤلفات شخصية، أى أن الفارابي كتبها من منظور ما ينبغي أن تكون عليه فلسفة أفلاطون أو أرسطو بدون أن يهمل بالطبع الأصول المكونة لفلسفة كل منهما. فالفارابي درس هذه الأصول وفكر فيها ليخلص إلى ما ينبغي أن تكون عليه الفلسفة، وهو عندما يتكلم عن أفلاطون، وأرسطو لا يتكلم كلاماً تاريخياً، إنما يتحدث من خلالهما، عن جذور الفكر الفلسفي، ويريد أن يقول من خلال ذلك: إذا أردتم أن تفهموا الجذور فهو هذا، وهكذا يصل إلى الشيء الذي يمكن على أساسه أن ندرس الواقع المحيط. وكما ذكرت، كان هذا الأسلوب شائعاً في التراث الإسلامي. أى أن الإنسان عندما يتكلم باسم الآخرين يعطى لكلامه نوعاً من الأصولية، وهذا هو الشيء الذي ينبغي أن يتنبه إليه الإنسان في رؤيته لكتب الفارابي.

◆ لكن ألا يفترض الحديث عن «الفلسفة السياسية في الإسلام» مصادر أخرى، أو بتعبير آخر: هل يمكن الحديث عن الفلسفة السياسية في الإسلام من خلال علاقة الفارابي بمصادره اليونانية فقط؟

● بدون شك هناك فكر سياسي ديني في الإسلام مبنى على القرآن الكريم والسنة. وهناك فكر سياسي بمعنى عام مبني على ما شاهده علماء الإسلام في النظم السياسية الجارية، وهناك فكر سياسي عند الفقهاء، حيث كانوا ينظرون إلى النظم السياسية من ناحية الفقه الإسلامي، وهناك فكر سياسي مهم لدى المتكلمين. وبدون شك أيضاً عندما يقرأ الإنسان أي كتاب جامع من كتب علماء الكلام سيجد في نهايته فصلاً عن الخلافة. إذ أن هناك في الفكر السياسي الإسلامي أشياء مختلفة، فالفقيه يختلف عن المتكلم... وهكذا، وضمن هذا العدد من الطرق التي ينظر فيها علماء الإسلام إلى مشكلة الحكم، كان هناك الفكر الفلسفي السياسي. ولكل واحد من هذه الطرق مصدره أو مصادره الخاصة، والمصدر الأساسي للفكر الفلسفي السياسي هو المصدر اليوناني بشكل عام.

◆ عندما يتحدث الإنسان عن فلسفة «إسلامية» في جوانبها السياسية أو غير السياسية، فإنها بالضرورة تمنى علاقة ما مع الأصول الإسلامية أولاً...

● عندما يقول الإنسان فلسفة إسلامية يستنتج مباشرة أن هذه الفلسفة انطلقت من القرآن الكريم أو السنة، وهى مصادر كانت تهم الفلاسفة المسلمين لأنهم دون ذلك لا يمكن أن يكونوا فلاسفة مسلمين، لكن عندما ننظر هؤلاء الفلاسفة فى القرآن والسنة كانت لهم اجتهاداتهم الخاصة .

◆ ما مدى حضور هذه الفلسفة السياسية فى واقعنا اليوم ؟

● يجب أن يفرق الإنسان بين حضورها وما يجب أن تكون عليه، حضورها قائم، وهناك الكثير من الكتب الأساسية فى تاريخ الفلسفة السياسية موجودة باللغة العربية بدءاً من جمهورية أفلاطون وحتى روح القوانين لمونتسكيو وغيرها . وهناك من يقرأ هذه الكتب . وبالتالي أرى أن حضور هذه الفلسفة السياسية فى العالم العربى سىكتمل، عندما يبدأ العلماء المسلمون بهضم هذه المصادر واستخدامها لفهم حاضرهم السياسى ومستقبله .

◆ أقصد الفلسفة السياسية فى الإسلام .

● كتب عنها الكثير، لكن مع الأسف ما كتب عنها يحتاج إلى تعمق وتدقيق، لأن ما يكتب فى الفلسفة فى العالم العربى اليوم فيه الكثير من التسرع، وهذا يجوز فى قضايا أدبية لكن القضايا الفلسفية تحتاج إلى تأمل وتفكير وإعادة تفكير وتعمق ... ومشكلة الكلام عن الفلسفة السياسية فى الإسلام لها علاقة بواقع المجتمع العربى، وتحتاج إلى تفكير فى واقعه والعالم المحيط به. ولا بد من ربط هذا الكلام بالتاريخ الإسلامى، والواقع الإسلامى القديم أولاً، ثم الحديث ... أعتقد أن قراءة الأصول الفلسفية اليوم أو الاهتمام بمختلف المدارس الفلسفية هما أكثر بكثير مما حدث فى الماضى، ولا أعتقد أن العالم الإسلامى، كان يقرأ الكتب الفلسفية بمقدار ما يقرأها اليوم . وقد لا

يفهم الإنسان المعاصر كل ما يقرأ، إنما الواقع المؤكد أن الكتابات والمدارس الفلسفية المختلفة هي على درجة كبيرة من الانتشار .

◆ هذا يؤدي بنا إلى التساؤل عن العلاقة بين الفلسفة العربية الحديثة، والمعاصرة والفلسفة الإسلامية في العصر الوسيط، هل هي علاقة استمرار أم انقطاع في تصورك ؟

● هي علاقة استمرار، وانقطاع في الوقت ذاته . فهي علاقة استمرار بمعنى أن الفلسفة الإسلامية في العصر الوسيط تدرس في عدد كبير من الجامعات في العالم العربي ثم تنتشر في ما يطبع وينشر من الأصول والدراسات عنها . لكن المشكلة الفكرية التي لم تعالج بعد هي صلة الفلسفة الأوروبية في العصر الحديث والفلسفة الأوروبية المعاصرة بالتراث الفلسفي الإسلامي، وهو أمر يتطلب معرفة مباشرة وعميقة للتراثين .

◆ في قاموس صدر بالفرنسية منذ عشرة أعوام ويحمل اسم «قاموس الفلاسفة» هناك حديث عن الفلاسفة العرب المعاصرين فنجد بعض الأسماء مثل : محمد غزالي، طه حسين، عبد الوهاب بوحدية، الجابري ... كيف تنظر إلى هذا الاختيار ؟!

● قد يكون مصدر هذا الاختيار هو جهل الذين شاركوا في كتابة مواد هذا القاموس لمعنى الفلسفة وربما سبب ذلك هو تلك الفكرة الغوغائية عن الفلسفة والنظر إليها على أنها توازي الفكر بصفة عامة، وبالتالي اعتبروا الأسماء التي ذكرتها، وهي أسماء كبار المفكرين العرب على أنها أسماء لفلاسفة عرب من دون أن يكون هناك دقة في التمييز بين الفلسفة والأدب أو بين الفلاسفة والمفكرين والأدباء . ففى الماضى، عندما كان الإنسان يتكلم عن الفلسفة، كان من المعروف عمن كان يتحدث، كان يتكلم عند الكندي : الفارابي، ابن سينا، أما اليوم فقد تغير إلى حد ما، هذا المعنى المتضمن في كلمة فلسفة، وهذا ما حدث أيضاً في الغرب .

◆ أين هي الفلسفة العربية اليوم ؟ وأين هم هؤلاء الفلاسفة العرب بالمعنى الدقيق للكلمة في نظرك؟

● قد لا يكون هناك فلاسفة عرب اليوم، إنما بدون شك هناك من يهتم بصورة جدية بمشكلة الفلسفة في العالم العربي، وهناك أشياء جيدة كتبت منذ أن دُرست الفلسفة، في جامعة القاهرة في العشرينيات من هذا القرن، وهناك من فكر سواء في تحديث موضوع الفلسفة أو في كيفية تدريسها، هناك اجتماعات جرت حول هذا الموضوع في القاهرة وعمان ونشرت أعمالها في بيروت عن واقع الفلسفة في العالم العربي اليوم .

◆ في محاضراتك حديث عن "المدينة الفاضلة"، يستدعي التساؤل عن إمكانيات تحقيقها، ومدى توافر النجاح في هذه المحاولات قديما وحديثا ؟

● هناك سوء فهم، إلى حد ما، يتعلق بتحقيق المدينة الفاضلة في التراث الأفلاطوني الفارابي، أعتقد أنه معروف عند دارسي أفلاطون أنه لم يعتقد أن الجمهورية أو المدينة الفاضلة، يمكن أن تتحقق، لذلك وضع كتاب النواميس ورسالته. ومن المعروف أن الجمهورية أو المدينة الفاضلة هي «مثال» في السماء، لذلك لا بد من أن ينظر إليه على أنه حلم، لكنه حلم لا علاقة له بالواقع، هناك أشياء كتبت، والفارابي نفسه كتب أشياء لها علاقة بالواقع السياسي، وتحسين ما هو موجود وليس تحقيق المدينة الفاضلة، لأنها عادة تستخدم كحلم يبعد الناس عن الواقع السياسي السعاش إلى حد ما، لذلك من الأفضل أن تكون للإنسان نظرة عن واقعه السياسي وكيف يمكن أن يحسن هذا الواقع خطوة خطوة. هذا هو الفكر السياسي السليم الذي يعرف أن الواقع هو الذي يجب أن يبدأ منه الإنسان ليتمكن من أن يخطو خطوة أو اثنتين في الطريق الصحيح، وهذا هو الذي نحتاجه الآن، قد يعتقد البعض بأن الحديث عن المدينة الفاضلة يعني ضرورة تحقيقها، غير أن محاولات تحقيقها في الماضي أدت إلى خراب المدينة .

◆ هل تشير إلى بعض التجارب المعاصرة ؟

● من الأمور المنتشرة في العالم الإسلامي اليوم فكرة الثورة أو «الانقلاب» على أنها الطريق الوحيد لتحسين الأمور أو السير في الطريق الصحيح، أما أنا فأرى ضرورة التمييز بين الثورة والإصلاح، أنا اليوم ضد الثورة بمعناها المعاصر في العالم العربي، ومع

الإصلاح، وهو طريق قد يكون بطيئاً وقد يسير خطوة خطوة، لكنه يؤدي في النهاية إلى نتيجة حقيقية . أما طريق الثورة الذي سار فيه العالم العربي فقد وصل به إلى باب مقفول، فعندما يفكر الإنسان في الإصلاح يمكن أن يعرف ويدافع عما هو أصح، أما الثورة فقد أصبح من الصعب معرفة معناها وغايتها ومسيرتها . . . وهذه هي مشكلة الفكر السياسي في العالم العربي اليوم، إذ عليه أن يدقق في الطريق الذي يقود إلى نتائج حقيقية . . . لا شك في أن طريق الإصلاح هو طريق بطيء ويحتاج إلى المزيد من الديمقراطية وتقبل اختلاف الرأي والنقاش في ما هو أصح، والابتعاد عن الأيديولوجيات المتحجرة، لكنه الطريق الوحيد الذي سيؤدي في نهاية المطاف إلى نتائج حقيقية وملموسة .

علا ل سینا صر
مستفرون اکثر مما نظن

العلاقة بين الغرب وثقافته علاقة محورية فى حياتنا الثقافية، وعندما نناقش قضايا الثقافة العربية نجد مسألة العلاقة مع الآخر تفرض نفسها على أكثر من صعيد، وليس هناك ما هو أدل على ذلك من قضية تكوين الفكر العربى الحديث والمعاصر، والتساؤلات التى طرحناها حول واقع الفلسفة العربية اليوم، ولماذا لا يوجد فلاسفة عرب معاصرون، وهى تساؤلات طرحناها على مفكرين عرب : على فهمى خشيم، رينيه حبشى، فؤاد زكريا، زكى نجيب محمود، وغيرهم، وهنا استكمال لهذه القضية مع علال سينا، وهو مفكر مغربى درس دراسة مزجت بين القديم والحديث، وأعد أطروحة عن فلسفة العلوم بين الفلسفة والمنطق الرياضى، فاهتمامه الرئيسى يتعلق بتاريخ الرياضيات والمنطق الرياضى، كما يقوم بتحقيق النصوص القديمة، ويعمل منذ سنوات رئيساً لدائرة الفلسفة باليونيسكو :

◆ بوصفك مديراً لدائرة الفلسفة باليونيسكو، وبوصف اليونيسكو ملتقى لفلسفات وثقافات عديدة، نريد أولاً أن نتعرف إلى اهتماماتك الثقافية؟

● الاهتمام الرئيسى عندى هو بالفلسفة أولاً وبشؤون الفكر فى العالم المعاصر، لقد نشأت فى بيئة عربية إسلامية لكنى لا أتجاهل موقعى من العالم بمشاركته وأحداثه وقضاياها، فالذى يهمنى دائماً هو العطاء الفكرى ومدى استقلاله وحرية، وأهتم بالفكر وليس بالأيديولوجيات .

◆ كيف تحدد لنا موقعك الثقافى ؟ هل نقول إنك مفكر عربى، أو إسلامى، أو عالمى ؟

● لا يمكن أن أعطى هذا التساؤل ما يتطلبه من تحديد .

◆ فلنطرح السؤال بصيغة أخرى : الفكر الذى تهتم به والفلسفة التى تتبناها، إلى أى محيط تنتمى ؟

● إذا افترضنا أن للفلسفة وجوداً فى العالم العربى أو الإسلامى أو العالم الثالث، وإذا افترضنا أنها تأتى إلى هذا العالم بعطاء أياً كان هذا العطاء، فإنه لن يكون عطاء

فلسفياً إلا إذا كان يعالج مشاكل فلسفية محددة، وفي تصوري أنه لا يمكن لفيلسوف أن ينطلق من واقع جغرافى رغم أن هذا الواقع قد يؤثر فى توجيه تساؤلات يكون قد ورثها عن التقاليد الفلسفية السابقة عليه .

◆ ومع ذلك يقال أن هناك فلسفة فرنسية ألمانية وفلسفة عربية وأن هناك فيلسوفاً فرنسياً أو ألمانياً أو عربياً، وبالتالي ألا يتمى الفيلسوف إلى جغرافيا ولغة وتراث أيضاً ؟!

● ديكارت بطبيعة الحال هو فيلسوف فرنسى، وربما أعظم فيلسوف فرنسى منذ أن تكونت فرنسا حتى الآن، ولكنه كمفكر قد وضع فكره فى إطار مجموعة من العلوم لها منطقها الخاص، وهو إذا فكر فى مشاكل تتعلق بالفيزياء أو الرياضيات أو الفلسفة، فإنما يرجع فى ذلك إلى تراث سابق عليه يتضمن تقاليد فلسفية وعلمية متنوعة، منها العلوم العربية فى البصريات، والممارسات العربية فى الجبر وغيرها . . . وقام ديكارت بتجديد ما ورثه، وذلك على الرغم مما يمكن أن نسميه القطيعة التى اعترت هذا التطور الإنسانى فى المعارف، ألا يتمى إلى محيطه الخاص، لكن أقول إن العطاء الفكرى لهذا الفيلسوف أو ذلك يتجاوز الحدود الضيقة إلى الدرجة التى يمكن أن ينسب فيها اسمه، لكن تظل أفكاره خالدة فى المنظومات العلمية، فنادر ما يذكر أن الخوارزمى قد وضع شيئاً ما فى الجبر إلا لدى الناس الذين يهتمون بالتاريخ، بينما لدى غالبية من يدرسون الرياضيات لا يعرفون أن ما يدرسونه يتعلق بمساهمة عربية، ولا نسمع أحداً يقول أن الجبر عربى رغم أنه نشأ وترعرع لأول مرة فى ميدان إسلامى صرف، وبالتالي لا يمكن أن نقول أن المفكر لا يتمى إلى بلده وثقافته لكن إبداعه إذا وصل إلى أى نتيجة فإنه ليس محدود الانتماء، والأصالة الوحيدة التى قد تكون للمفكر هو أنه يهدف إلى شمولية تتعدى حدود انتماءاته الجغرافية والتاريخية .

◆ ولماذا لا تعبر عن الفكر بصياغة أخرى فنقول مثلاً إن الفكر له حدود؟

● هذا شيء لا أتبناه لأننى لا أفهمه .

◆ ليس هناك فكر فلسفى وسياسى واجتماعى ؟ وبالتالي لا يمكن لهذا الفكر أن يخرج عن حدود محيطه وزمنه وتاريخه إلا إذا كنا نتحدث فى ميدان غير ميدان العلوم الإنسانية والاجتماعية ؟

● بالطبع العلوم الإنسانية والاجتماعية والسياسية، وما إلى ذلك من تطبيقات لكلمة علم على ميادين مختلفة، هى علوم تطبيقية منذ البداية أى أن بدايتها واقع أو مجموعة من الظواهر الاجتماعية . بالنسبة لى لست مؤرخاً، ولا عالم نفس، ولا عالم اجتماع، وإن كانت هذه الأشياء كلها تهمنى جداً . وقد أجد بعض المرات فيها فائدة قد تنقص أو تزيد وفقاً لما أقرأه مما يتنى إلى هذه الميادين، فأننا إذا تحدثت عن فكرى فأعنى بذلك الفكر الفلسفى، والفلسفة ظهرت فى ظروف خاصة وتطورت فى هذه الظروف، وكان لها أثر فى تكوين الحضارة التى نعيشها، وكان للعرب وفلاسفة الإسلام دور فيها، لأنهم كانوا حلقة مهمة فى التطور الفلسفى الذى أدى إلى ما نسميه اليوم بالحداثة عبر تجربة الفكر الأوروبى .

◆ لماذا لا يوجد إذاً فلاسفة عرب اليوم ؟

● مع كل ما عندى من احترام لما فى العالم العربى من مجهود فى سبيل انعاش الفكر العربى، ورغم ما فى العالم العربى من مدرسين للفلسفة، فأعتقد، وربما أكون مخطئاً، أن الفكر الفلسفى العربى الآن عديم الوجود، لأنه نقل عما يجرى فى الفكر الفلسفى خارج العالم العربى، وفى أغلب الأحيان يكون ذلك نقلاً مبسطاً لم يستوعب الأصول المنقول عنها .

◆ هذا يعنى أنك تمسود وتقر بمسألة المواقع الجغرافية والشفافية التى يتسمى إليها الفكر الفلسفى، ورغم أنك منذ قليل كنت تقول بغير ذلك بصورة غير مباشرة .

● لا، لأن هناك نوعاً من الغموض فى هذا الإجمال، الموقع لا يؤثر على الفكر كفكر، وإذا أثر فيه فغالباً لحدود فى مجهود الفكر، ولكنى قلت وأعيد أن هذا لا يعنى

أنه لا علاقة للمفكر بالبيئة والمحيط الثقافي الذي يعيش فيه . مثلاً لا يمكن إخضاع كل مجهود هيغل أو فتنجشتين أو هيدجر أو ابن رشد - مع تغيير الأسمكة والأمثلة - لا يمكن إخضاع هذه النماذج الفلسفية كلها إلى محيطها. ولكن هذا لا يعنى أن ابن رشد ليس هو الفيلسوف الذى عاش فى قرطبة فى فترة من الزمان، وهذا لا يعنى أن هيدجر لا ينتمى إلى ألمانيا ما بين الحربين العالميتين الأخيرتين، ولا يعنى هذا أن هيغل لا علاقة له بألمانيا فى بداية القرن التاسع عشر، كما لا يغير ذلك أيضاً أن فتنجشتين لا علاقة له بعالم اليوم ولكن هذا كله يعنى أن هؤلاء الفلاسفة، إذا ما أفادوا فكر العالم بشئ فقد فجزوا الحدود الزمانية والمكانية التى تربطهم بالبيئة، وإذا قلت اليوم إن فى هذه الجهة من عالمنا التى تسمى بمجموعة الدول العربية من المحيط إلى الخليج لا يوجد مجهود فلسفى، فإن هذا ليس نقداً وإنما تسجيل لواقع، فأتا لست أهتم بالجوانب الأدبية للفلسفة لكنى أرى المجهود الأدبى للمثقفين العرب أعلى بكثير من مجهودهم الفلسفى . وأعتقد أن هناك نوعاً من الظلم بالنسبة للمثقفين العرب إذا قيل إنه لا يوجد لديهم مجهود فكرى بصفة عامة، لكن المجهود الفكرى فى ميدان الفلسفة لم يبلغ بعد المستوى العالمى الذى يمكن أن يضع الفلسفة فى موضعها الطبيعى، أى الطرح العالمى، الشمولى، الجامع، المانع لبعض المشكلات الفلسفية، وهى كلها مشكلات جذرية وليست مجرد تأويل وشرح وإعادة لما فات، فتنجشتين لم يحل مشكلة فلسفية لكنه أثار الانتباه إلى أساليب الفلسفة وأساليب التساؤل الفلسفى نفسه، وهيدجر لم يأت بحل جديد، ولكن عبر عن إشكالات فلسفية فى أسلوب جعلها تعبر عن اهتمامات الإنسان المعاصر .

◆ هل تقبل بالتمييز بين الفلاسفة والمفكرين، بمعنى آخر، قد يكون لدينا مفكرون ولكن ليس لدينا فلاسفة ؟

● أقبل بهذا التمييز بين الفيلسوف والمفكر، لكننى أضع هذا التمييز بعد الفلسفة وليس دونها، بعد الفلسفة لأنها تقليد ثقافى يهتم بالتعريف بأساليب فلسفية، مدارس فلسفية، وتيارات فلسفية قديمة وحديثة . ولكن المفكر قد لا يكون مدرساً للفلسفة قد

لا يكون مختصاً بتاريخ الفلسفة، أو عارفاً بكل ميادينها، فمثلاً فتجنشتين ليس فيلسوفاً من النوع العارف بتاريخ الفلسفة، لكنه مفكر أقرب إلى الفكر منه إلى الفلسفة كمؤسسة تقليدية. هناك بطبيعة الحال مفكرون وكتاب ممتازون في العالم العربي، ولكن يجب أن نجد لا نغالب وتصور عندنا ما ليس موجوداً. فإذا تحدثنا عن العالم الثالث يمكن أن نجد مثلاً للتجديد وإن كان قديماً في الفكر الاجتماعي، ولكن في أمريكا اللاتينية أكثر منه في العالم العربي، فالعلوم الاجتماعية والإنسانية في العالم العربي هي تقليد أيضاً، ومتأثرة بأمريكا اللاتينية في مفاهيمها عن التأخر والتبعية. في علم النفس، المجتمع العربي ناقل في جميع الميادين التي تهتم علم النفس الحديث، بقيت لنا بعض الميادين التي تهتم المجتمع العربي والثقافة العربية، ففي التاريخ ربما كان بعض مؤرخينا بلغوا مستوى في التاريخ لثقافتنا فاق مستوى الأجانب الذين درسوا مجتمعنا وتاريخنا. وربما فهم علماء الاجتماع العرب بعض الظواهر العربية بحق أكثر من العلماء الأجانب، لكن هذا لا يعني أن كل دارس عربي للمجتمع العربي هو أعمق فكراً من غيره، هل أقل نفاذاً إلى الواقع العربي من العالم العربي، ولكن في بعض العلوم التي نكتسب صيغة شمولية وتتطلب ممارسة وخبرة طويلة ربما في هذا الميدان ظهرت أشياء جديدة وعميقة.

◆ في الحوار عن وجود أو غياب فلاسفة عرب معاصرين مع مفكرين عرب آخرين، هناك اعتراف لدى الغالبية منهم بهذا الغياب، لكن الاختلاف يبدأ في التطرق إلى الأسباب التي أدت إلى ذلك؟ هل يعود ذلك إلى الانقطاع عن المناهج والرؤى الذاتية للحضارة العربية الكلاسيكية وعدم تطويرها وتبني مناهج عالمية معاصرة بديلاً عنها؟!

● أنا لا أؤمن بالذاتية في المناهج ولكن لا أؤمن أيضاً بالنقل، فالاتجاه في الفكر لا يمكنه أن يضع لنفسه مسبقاً إطاراً محدداً، المنهج اللائق ليس هو المنهج الدخيل أو الأصيل، إنما هو المنهج الناجع الذي يعطى نتيجة، وهذا ليس من قبيل البراجماتية وإنما يتعلق بقدرة المنهج على تأدية ما يهدف إليه.

◆ هل تعتقد أن المناهج التي تطبق لدينا تحقق الغرض منها؟ هل التحليل النفسي

كمتهج فى دراسة السلوك الإنسانى يؤدى الغرض منه فى فهم الظواهر؟

● ولم لا ؟! أنا أعتقد أن النقص فى الاجتهاد، وليس فى إدخال الدخيل أو فى قلة الاعتماد على الاصيل . لأنه إذا فكر الإنسان واجتهد، فإن كل ما لديه من أصيل أو دخيل، ليس سوى وسائل للفكر، والفكر يحكم عليه بالسيطرة على موضوعه وعلى المشاكل التى يطرحها، ولهذا بالنسبة لى فإن قضية الاصله والمعاصرة هى كلام فارغ، لأن الذى يفكر هو حديث وأصيل فى الوقت نفسه . وكل إبداع اذا تم فى جامعة عربية وكان اجتهاداً حقيقياً فهو مفيد بالنسبة للخارج، لأن الحكم عليه هو فى قدرته على تنوير وإضاءة مشكلة وليس ارتباطه بهذا أو ذاك.

◆ فى هذا الإطار العام للمحاور، كيف تفسر ازدياد الحديث فى الآونة الأخيرة عن ثقافة شرقية وثقافة غربية، كيف تفسر العودة إلى هذا الحديث ؟

● هذه الظاهرة تدل على أن هناك إصراراً على إبراز الفروق أكثر من الإصرار على القواسم المشتركة بين الثقافات .

◆ كيف تفسر هذا الإصرار إذا؟

● أفسره بتفاقم المشاكل العالمية !!

◆ فى إطار هذا الإصرار على الفروق بين الثقافات، هناك تساؤل يدور فى الغرب مؤداه : أن الغرب أنتج استشراقاً، فلماذا لم ينتج الشرق استغراباً، ماذا تقول عن هذا التساؤل ؟ وهل تدهور لمثل هذا الاستغراب اليوم ؟

● من الأشياء التى لم تكن سبباً وإنما عبرت عن تدهور الثقافة العربية هو أنها فى ظروف معينة انكمشت على نفسها وأصبحت تجهل كل ما يحدث خارج حدودها، إلا لدى بعض الأشخاص، وهم قلة، من الذين استمروا فى تقاليد الحضارة العربية زمن ازدهارها، لكن المجتمع العربى كمجتمع انغلق على نفسه وقلت معرفته بما يجرى خارج حدوده، وأؤكد أننى لا أرى فى هذا سبباً يفسر مآل ذلك، ولكنى أرى فى ذلك

عنصراً من العناصر الدالة على تقلص الطلب الثقافى فى المجتمع العربى، ولهذا فكل معرفة دقيقة بالغرب قد تكون لها فائدة إلا أن الذى أراه هو أن مجهود الفكر وما يتعلق بهذا من مجهودات مختلفة فى الميدان التربوى على وجه خاص أهم بكثير، لأن معرفة الغرب ما هى ؟ هل تعنى معرفة تاريخه ؟ هل تعنى معرفة مجتمعاته ؟ هل تعنى استجلاء مقومات حضارته والحداثة التى حملها كرسالة فى العالم ؟ هذه الاشياء كلها تنتمى إلى التساؤلات التى تجعل دائماً الإجابة عنها متفاوتة الأهمية وغير حاسمة فى عالم - أحببنا أم كرهنا - لا يمكن فيه الانكماش ولا يمكن فيه الانغلاق، ونحن مستغربون من حيث لا نشعر وربما أكثر مما نظن . بمعنى أن ما يجرى فى الغرب يخرقنا ويتجاوزنا وبالتالي ليست القضية قضية استشراق واستغراب، ولكنها قضية كيان عربى ينبغى أن يفهم، هل له دور ورسالة فى العالم ليساهم فى تطوير الحضارة العالمية إلى مستوى يجعلها لائقة بالنسبة للناس جميعاً، أم لا ؟

عز الدين قلوبز
نعم للاستغراب لكن بشروط

عز الدين قلوز من الباحثين المرموقين في الساحة الثقافية الفرنسية ، فهو «مستغرب» مطلع على شؤون الغرب وثقافته وتاريخه ، وقد كان لتجربته كسفير دائم لتونس في اليونسكو لسنوات عدة أثر كبير في إثراء وتعميق خبرته بقضايا وأحداث العالم الغربي . كما ساعد في التعريف بالادب العربي ونقله إلى اللغة الفرنسية ، مترجماً رواية «السد» للمسعدى ، و «عبد الله» لانتون غطاس كرم ، كما شارك في تأليف كتب ودراسات تدور في أغلبها حول البلاد الإسلامية في الفترة الراهنة وحول المواجهات بينها وبين البلاد الأوروبية وتاريخ هذه المواجهات ، وبصفة خاصة ما يتعلق بفترة «عصر التنوير والإسلام» . وأخيراً صدرت الترجمة العربية للكتاب الذي شارك فيه مع أندريه ميكيل ودومنيك شيفالييه عن «العرب والإسلام وأوروبا» . كما صدرت له مساهمة مهمة في الكتاب الذي صدر أخيراً عن دار «فايار الفرنسية بعنوان» «الظاهرة الدينية» بإشراف جان دولومو . ومن المتوقع أن تصدر له قريباً دراسة جديدة عن قراءة القرآن ، عن دار «فلا ماريون» الفرنسية . أما وجه «استغرابه» الآخر ، فهو تدريس الأدب الفرنسي في جامعة السوربون ، وكان ذلك مدخلاً للحديث معه حول تعريفه للاستغراب وكيفية تحقيقه ، وهو ما حدثنا عنه عز الدين قلوز من خلال رؤيته ونقده لعصر التنوير الفرنسي وكشفه لتناقضات المبادئ التنويرية في ما يتعلق بالإسلام والبلاد الإسلامية .

◆ هل كل من يقوم بتدريس الأدب الفرنسي ، والغربي عموماً ، يمكن أن نطلق عليه صفة «المستغرب» ؟

● في تقديري نعم ، لكن بشرط أن يقوم المرء بدراسة هذا الأدب في إطار يتسع لجملة ظواهر هذه الثقافة ، وأن يستجوب هذه الثقافة ككل وألا يجعل منها مركز انطلاق المعرفة الأوحده ، وأن تسمح له ظروفه أن ينظر إليها من الخارج ، وبشرط ألا يقتصر في الحديث على الخارج والداخل على الحدود الجغرافية فقط ، وألا تكون بالضرورة مراكز القيادة الفكرية في العالم منحصرة في البلاد الغربية ، فالغرب تعود على دراسة غيره ، لا أن يُدرّس هو من طرف الآخرين وهذا هو الجديد في الأمر .

◆ كيف تحققت ملامح هذه النظرة في أعمالك ؟

● تخصصت ، كما تعلم ، فى فترة ما يسمى بـ " عصر التنوير " وجعلت موضوع رسالتى للدكتوراه عن «المنهج التاريخى للأب رينال» ومن خلالها أردت أن أسلط نظرة جديدة على فلاسفة عصر التنوير وأفكارهم . ومن حسن حظى كعربى أنسى وجدت ضالتي المنشودة فى هذا الفيلسوف الذى يأتى فى الدرجة الخامسة أو السادسة بعد الفلاسفة المشهورين (فولتير ، روسو ، ديدرو) . وكان هذا الأب رينال قد نشر دائرة معارف تضاهى دائرة المعارف التى أسسها ديدرو والموسوعيون وأطلق على دائرة معارفه اسم «التاريخ الفلسفى والسياسى للأوروبيين فى قارتي الهند» . وهو فى الحقيقة يسجل تاريخ استيطان الأوروبيين لمختلف بلاد ما وراء البحار . وقد وصف كتابه بأنه دائرة معارف ثانية ، وأنه يحل محل خلال رصده للظاهرة الاستعمارية الأوروبية جميع المشاكل الفلسفية المطروحة فى ذلك العهد . وكان ينظر إلى كتابه كمرجع من مراجع الفكر الفلسفى والثورى الذى كان سائداً آنذاك ، كما يستشهد به لاحقاً كمرجع من مراجع الثورة . فى الحقيقة كان عمله ، فى الظاهر فقط ، يسلط الأضواء على تاريخ أوروبا فى عوالم ما وراء البحار ، وبمنظرة فلسفية من جملة مكوناتها أنها نقد للاستعمار والسيطرة على المجموعات الإنسانية خارج أوروبا ككل ، ونقد للثروة والتجارة المؤسسة على اقتصاد ينطوى على سلب حضارات كاملة وثرواتها وطاقاتها الإنسانية (استغلال العبيد) . فكان الكتاب يندأ باستعمار أوروبا لقارة كذا ثم استعمار أوروبا لقارة كذا ، وتحت بند هذا الاستعمار يتحدث عن استعمار الهنولدين ، البرتغاليين ، الفرنسيين ، مع البلدان المستعمرة وعيوبه عندما اكتسحها المستعمر . وفى النهاية ظهر الكتاب فى صورة فلسفة تقدمية ثورية تنتقد الحكم فى الغرب ، لكن حقيقة الأمر غير ذلك ، فالكتاب يبدأ فعلاً فى كل أبوابه بهذا النقد الموجه إلى أنظمة الحكم الاستعمارية غير أنه ينتهى إلى خاتمة "واقعية" وأنه لم يكن ليحدث غير ذلك أو أفضل من ذلك .

◆ ما السر فى ذلك ؟

● من خلال بحثى التاريخى ، ومن خلال الوثائق المكتشفة حول حياة الرجل ومسيرته ، اتضح أن المقصود من الكتاب ليس النقد الفلسفى والشورى بل الدفاع عن سياسة من استأجره لكتابة ذلك . وتفسير ذلك إن الوزير الذى كلفه بهذه المهمة فى البداية لم يكن سوى الوزير المشهور (شوارول) وزير الخارجية ووزير الحرب والبحرية فى مرحلة حاسمة من التاريخ الفرنسى ، لاسيما التاريخ الاستعمارى . كان هذا الوزير مسئولاً عن سياسة فرنسا خلال حرب دامت سبع سنوات (١٧٥٦ : ١٧٦٣) وانتهت بمعاهدة باريس المشهورة التى أفضت إلى انسحاب فرنسا من القارة الهندية ومن كندا ، فصار لدى الوزير شوارول رغبة متأججة نحو تعويض ما خسرت فرنسا فى هذين المركزين بالعثور على مراكز استيطان جديدة لم تكن فى حقيقة الأمر سوى تلك البلدان التى كانت تشملها الإمبراطورية العثمانية ، والتى تدعى حركة التنوير العطف عليها والحرص على تحريرها من نير الحكم العثمانى . لكن صادف أن هذا الوزير شوارول أطيح به (يقال ذلك) سنة ١٧٧٠ قبل أشهر عدة من نشر الكتاب الذى استأجر الأب رينال لكتابته ، ومن الغريب ، أن الفكرة ذاتها أى فكرة الدفاع عن سياسة الدولة الفرنسية - تحت قناع الدفاع عن المبادئ الفلسفية وحقوق الإنسان - قد تبناها إرضاء لحركة التنوير التى كان نيكرا أحد رجالها ، وقام نيكرا بتمويل رينال مرة ثانية لاعادة نشر كتابه الموسوع . وهو ما قام به رينال فعلاً ، لكن بعد شهرين من الإطاحة بنيكرا بدوره ، فظهر الكتاب فى نشرته جاء بعد الإطاحة بالوزيرين المسؤولين عن نشره ، مما جعل الكتاب يؤخذ على ظاهره أى ككتاب معارضة ، ملتزماً بالمبادئ التحررية لأنه تعرض فى المرتين للقمع الإدارى ولم يفتن أحد إلى أن المقصود من القمع هو حكم شوارول ونيكرا وليس النزعة التحررية أو المبادئ الفلسفية المزعومة التى اشتمل عليها الكتاب .

◆ ألا يوجد أعمال أخرى للأب رينال غير موسوعته المذكورة ؟

● توصلت أثناء بحثى إلى مخطوطات أخرى لهذا الفيلسوف وهى مجموعة الفصول لم تكتمل ، فى كل فصل منها كان يقوم بوصف بلد : تونس ، مصر ،

الجزائر ، سورية ، فلسطين ، لبنان ، المغرب . إنه يصف هذه البلدان ويطالب بغزوها وباستعمار من نوع جديد يخالف الاستعمار الاستيطاني ، وأن يتم هذا الاستعمار الجديد على حساب الامبراطورية العثمانية التي كان يحلم بسقوطها في القريب العاجل . ومما يلفت النظر أن الأب الفيلسوف رينال كان موضع إعجاب شاب في مقتبل العمر آنذاك هو نابليون الذي كان يتباهى في مذكراته بأنه حظى باللقاء به كما ادعى كذباً ، كما تباهى بأنه فاز بالجزائر الأولى عن مناظرة مولها الفيلسوف رينال حول موضوع سؤال : ما أثر دور الحركة الاستعمارية في تطور أوروبا ؟ وادعى نابليون أنه هو الذي فاز بالجزائر الأولى وليس هذا صحيحاً وإنما الذي فاز بها هو "دونو" . وكانت أعمال الأب رينال تكشف عن انتقاد للإسلام من منظور فلسفي ، ثم نجد من وراء هذا الانتقاد مباشرة مشروعاً لغزو استعماري ، فالصلة عندى واضحة بين فلسفة التنوير التي يعتمد عليها الغرب اليوم كمرجع لحقوق الإنسان ، والحركة الاستعمارية الثانية التي ظهرت في القرن التاسع عشر . فإذا شئنا الدقة ، فإن الظاهرة الاستعمارية السائدة إلى يومنا هذا قد نشأت أساساً في القرن الثامن عشر . فغزو نابليون لمصر كان غزواً استعماريًا ، غير أن نابليون لم يقدم نفسه كمستعمر كلاسيكي وإنما كفيلسوف يؤدي رسالة مهمة باستعمار مصر وأنه يقوم بمشروع حضاري وإنساني إزاء شعوب تحتاج إلى هذا الاستعمار لأنها شعوب تجهل قواعد حقوق الإنسان ولأنها مؤسسة على أسس دينية وإجتماعية لا تتماشى أبداً مع هذه الحقوق .

◆ ما الذي كانت تمكسه مثل تلك النظرية آنذاك ؟

● في الحقيقة كان الاستعمار إذا حلَّ ببلد من البلدان العربية كتونس أو مصر أو الشام كان ينظر إليه على أنه مكون من ثلاث طبقات : طبقة أرسقراطية عسكرية ، وطبقة سفلى (العوام) ، وطبقة وسطى قادرة على التجارة ، وكانوا ينظرون إلى أفراد هذه الطبقة الوسطى بوصفهم ينتظرون بفرح وابتهاج الغزو الفرنسي المقبل على أنه محرر لهم وإمكاناتهم المغمورة . أما وجه الشبه بين النظرية التي ارتكز عليها هذا الاكتساح والنظرة الفلسفية التي كان يرتكز عليها نضال الفلاسفة من أجل تغيير الأوضاع السياسية

والاجتماعية فى بلدانهم ، فهو اعتقادهم بأن السبى الاجتماعى القائمة فى البلدان الخاضعة للحكم العثمانى كانت تشكو من المساوىء عىنها التى كان يشكو منها المجتمع الاوروبى وأهمها : أن المجتمع كان قائما على التمييز الطبقي بين أرستقراطية تتمتع بامتيازات ، ورعية محرومة منها . والحال أن ضمن الرعايا شريحة تنصف بالنشاط والحيوية الاقتصادية ، كما أن المجتمع الاوروبى كان يميز النبلاء عن الرعايا مهما كانت قيمتهم أو ثروتهم ، كذلك كان الفلاسفة يرون أن الحكم فى مختلف ساحات الإمبراطورية العثمانية كان يميز أرستقراطية عسكرية من أصل تركى عن جملة الرعايا ، والحال أن من بين هذه الرعية شرائع يؤهلها نشاطها الاقتصادى إلى ممارسة دور سياسى غير الذى تمارسه فى ظل الحكم السائد ، فهى كالبرجوازية التى تطمح إلى التحرر من نير المسيطر ، تتطلع بدورها إلى التحرر من الحاكم التركى .

◆ فى النهاية هل يمكننا القول إن التنوير لم يكن تنويراً ؟

● ما يمكننى قوله هو أن تحليل العقلية الغربية فى فترة ينظر إليها اليوم على أنها مرجع لحقوق الإنسان ، يكشف أن وراء موضوعيتها المزعومة تكمن مصالح سياسية . ففلاسفة التنوير لم يتوجهوا إلى الإنسان فى مجمله . وإننى عندما أجد فولتير يتحدث عن الإسلام والمسلمين لا أنظر إليه على أنه يتكلم من منطق فلسفى عام بل من منطق مصالح الناس الذين يقوم بخدمتهم . صحيح أنه كان معارضا للحكم السائد فى فرنسا ، لكنه كان متعاطفا مع مواقف كاترين الثانية الروسية وكان يتهج عندما تقدم على حساب السلطان التركى . وكما أشرت من قبل ، فالصلة عندى واضحة بين فلسفة التنوير الاوروبية والحركة الاستعمارية الثانية .

◆ إذا كانت هذه هى صورة عصر التنوير فى ما يتعلق بحضارتنا ومجتمعاتنا ، فكيف غابت هذه الصورة عن المثقفين العرب المنبهرين بمبادئ التنوير الاوروبى ؟

● لن أتحدث عن المثقفين العرب بشكل عام ، سأأخذ إليك عن تجربتى وتجربة من سبقنى من التونسيين . ولن أتحدث هنا عن "التنوير" فقط وإنما عن تجربتنا بالثقافة

الغربية ومناهجها بشكل عام . وما سأقوله يمكن أن يفسر أسباب هذا الانبهار ، ويمكن أن يفسر غياب الصورة الأخرى لهذه المبادئ والأفكار والمناهج . خذ مثلاً نموذج المسعدى الذى جاء قبلى إلى باريس بنحو عشرين عاماً . ماذا حدث له ولغيره من الباحثين والطلاب العرب ؟ فى الحقيقة عندما جاء واختلط بالأساتذة الغربيين صارت لديه قناعة بأن ما هو موجود لدى الغربيين لا يوجد لدينا مثله ، وأن التاريخ الذى يدرس بالزيتونة مثلاً ليس بتاريخ . كان الأساتذة الفرنسيون يعلمون هؤلاء العرب ، إلى جانب الحصص الرئيسية فى العلوم الطبيعية والاجتماعية ، بعض الدروس عن الأدب العربى ، فكانوا يقولون لهم عن المتنبى مثلاً : من المشكوك أنه ولد سنة كذا وأن الواقعة كذا غير مؤكدة ، أو عن دانتون أنه من المحقق أنه فعل ذلك وأن نظريته السياسية كذا بينما الأستاذ العربى المحلى كان يدرس تاريخ شخصية عمر بن الخطاب أنه سيد زمانه وأعدل عصره ، بدون التفات إلى نقد المراجع وتمحيص الواقع كان هناك إذاً عالمان مختلفان ، ويبدو لى أن الجماعات الأولى من المثقفين التونسيين والعرب ، الذين سافروا إلى الغرب ، قد تغمصوا هذه المناهج والأفكار الغربية ، ولا أظن أنهم كانوا يدركون أن هذه المناهج والأفكار قد تلونت بلون الحضارة التى نشأت بها بل اعتقدوا أنها المناهج بالمطلق . ولعل طه حسين من أبرز هؤلاء الذين تأثروا بهذه المناهج فى كتابه «الشعر الجاهلى» حيث شكك فى بعض جوانبه . ومثل هذه المناهج تفسر لنا بصورة عملية ، أسباب هذا الانبهار بكل ما هو آت من الغرب ، والتغافل عما يكمن خلف المبادئ العامة .

محمد النيرب
مع استغراب بدون استشراف

محمد النيرب فلسطيني مقيم في الولايات المتحدة الأمريكية ، أمضى دراساته الجامعية في مصر حيث حصل على ليسانس الآداب عام ١٩٥٥ ، اشتغل بعد ذلك مع منظمة اليونسكو في منطقة غزة ، كما عمل بالتدريس في أعوام ١٩٦١ ، ١٩٦٢ ، ١٩٦٣ في ليبيا .

وبدأ من هذا العام استقر في الولايات المتحدة الأمريكية حيث أعد رسالة ماجستير في العلوم السياسية ثم أطروحة دكتوراه عن " أثر البترول في العلاقات السعودية الأمريكية " كما سيصدر له قريباً إن لم يكن قد صدر بالفعل كتاب : " تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية " باللغتين العربية والانجليزية .. ويوصفه أحد الباحثين العرب المقيمين في الغرب والمهتمين بدراسة الغرب ، بل ومن الذين يدعون لإنشاء مراكز لدراسة الغرب ، كان لنا معه هذا الحوار عن قضايا وآفاق الدراسات العربية عن الغرب بصفة عامة ، ومن واقع خبرته في الولايات المتحدة بشكل خاص .

◆ من واقع خبرتك ، كباحث مقيم في الولايات المتحدة منذ سنوات عديدة ، كيف تفسر ظاهرة أن كثيراً من الباحثين العرب في الغرب يتوجهون لدراسة قضايا عربية ويجهلون أو يتجاهلون دراسة المحيط الغربي الذي يعيشون في أرجائه ؟

● بالطبع الأسباب متعددة ، وتختلف من باحث إلى آخر ، وتختلف الأسباب أيضاً وفقاً للمنطقة القادم منها الباحث . هناك باحث غير متأقلم أو يجد صعوبة في التوجه نحو دراسة الموضوعات الغربية . وهناك باحث تتغلب عليه مشاعر الخوف ولا يريد أن يقول صراحة ما بداخله حتى لا يؤخذ عليه . وقد تكون أسباب ذلك لدى باحث آخر هو الجهل بالوسط الذي يعيش فيه . وقد يكون هناك سبب رئيسي وراء ذلك وهو أن معظم الباحثين العرب في الغرب يتوجهون أساساً إلى دراسة العلوم الدقيقة (هندسة ، رياضة ، طب ، كيمياء ...) بينما الذين يهتمون بدراسة العلوم الإنسانية والاجتماعية فإنهم قلة قليلة . وكما هو معروف فإن النوع الأول من العلوم لا يعرف هذا التمييز بين موضوعات غربية وأخرى عربية ، بل هو علم وفقط ، ثم تأتي بعد ذلك مسألة

إستخدامات هذا العلم . أما فى مجال العلوم الإنسانية والإجتماعية فإن التوجهات الفكرية والحضارية لا تغيب فى هذه الميادين ، ونظراً لهذا الاختلال فى نسبة الإهتمام بدراسة العلوم الدقيقة (٩٥٪ تقريباً) والعلوم الإنسانية (٥٪) من مجموع الباحثين العرب فى الغرب) يمكن أن نفهم لماذا لا يتوجه الباحثون العرب فى الغرب نحو دراسة ظواهر وقضايا غربية .

◆ هل تدعو الباحثين العرب إلى مزيد من الاهتمام بدراسة الغرب ؟

● نعم ، وقد كتبت كتاباً عن التاريخ الأمريكى . فالمكتبة العربية لا يوجد بها كتاب واحد باللغة العربية يتناول هذا التاريخ الإستثناء كتيبات مكاتب الإعلام بالسفارات الأمريكية ...

◆ عندما تؤولف كتاباً عن التاريخ الأمريكى ماذا تريد أن تقول لمواطنيك العرب فى

البلاد العربية ١٢

● فى الواقع ، شئنا أم أبينا ، فإن لنا علاقات متوترة مع الغرب وبصفة خاصة مع الولايات المتحدة الأمريكية فى العشرين سنة الماضية . وهذه العلاقات تفرض علينا أن نفهم بدقة الحضارة الأمريكية والتاريخ الأمريكى والنظام السياسى الأمريكى وطريقة تكوين الحكومة ، حتى نستطيع أن نأخذ موقفاً صحيحاً إذ لا يمكن أن نبني موقفاً من حضارة لم نفهمها . وبالتالي الفهم الدقيق يساعد على حل مشاكلنا كما يشجع الطرف الآخر على أن يفهمنا بدقة ، ما أهدف إليه بكتابى ، هو سد حالة فراغ وإعطاء فكرة واضحة عن التاريخ الأمريكى بمفهوم عربى .

◆ مفهوم عربى عن التاريخ الأمريكى . هذا هو بيت القصيد ، كما يقولون ، لكن

كيف ١٢

● لا أعنى بذلك أننى غيرت فى وقائع التاريخ الأمريكى ، بل كتبت الكتاب بالطريقة التى يفهمها القارئ العربى . فعندما أقول للقارئ العربى إن الشخصية الأمريكية تتميز

بكذا وكذا ، فإنه سيفهمنى ، لأننى أتكلم له وأنا أعرف كيف تفهم النفسية العربية الأشياء . وسيعرف القارئ العربى أننى أريد بإخلاص أن يفهم الشخصية الأمريكية حتى يستطيع أن يحدد موقفه منها بعد الفهم الدقيق . وقد ينشأ من خلال المعرفة الدقيقة تفاعل جديد بين الطرفين .

◆ عندما تدعو إلى فهم دقيق للغرب . وعندما تؤلف كتاباً عن التاريخ الأمريكى قد يفهم البعض هذا على أنه نوع من التبعية والتغريب . ماذا تقول لهؤلاء ؟

● فى إعتقادى أن تفسير ذلك يعود أولاً إلى الكاتب ثم إلى القارئ ثانياً فإذا ألفت كتاباً عن التاريخ الأمريكى فإن هذا لا يعنى إننى أشجع التبعية أو أنسى تابع بدورى للغرب . إن موقفى مختلف تماماً عن هذا الفهم الساذج ويمكن للقارئ أن يكشف ذلك من أسلوب الكاتب ومن النتائج التى يصل إليها . وأعتقد أن القارئ الجيد سيفهم جيداً ما يقال والقارئ السيئ سيفهم ما يريد . وفى النهاية لا يستطيع أحد - مهما كان إخلاصه فى التعبير عما يراه أنه الصحيح - أن يتحكم فى طريقة تفكير الناس .

◆ دراسة الغرب من خارجه ، وبمفاهيم حضارات أخرى مارالت دعوة تنتظر التنفيذ .. فدراسة التاريخ الأمريكى ، على سبيل المثال ، بمفاهيم عربية مارالت تحتاج إلى إيضاح أكثر ...

● فى إعتقادى أن هذا الأمر له شقين ، أو هو سلاح ذو حدين ، كما يقولون . فأننا نشأت فى بيئة عربية وتشبعت بثقافتها ولغتها وحضاراتها ، ومن ناحية ثانية درست التاريخ الأمريكى من أهله . وبالتالي لا شك فى أن طريقة التفكير التى نشأت عليها كشرقى يمكن أن تظهر وتؤثر فى طريقتى لكتابة التاريخ الأمريكى كما أخذته عن لسان أهله .

◆ المنهج العلمى فى مجال العلوم الإنسانية ، سواء على المستوى التقنى و على مستوى أنماط التفسير ، هل يختلف فى تصورك باختلاف الثقافات والحضارات ... ؟

● أغلب الذين يكتبون في مجال النظرية والمنهج العلمى فى مجال العلوم الإنسانية لا يختلفون حول حدود الموضوعية . وأنه مهما حاول الباحث أن يكون موضوعياً ومتبعاً للمنهج العلمى فإن هناك أموراً لا يمكن أن يتبع فيها المنهج العلمى ، مثلما هو الحال فى العلوم الطبيعية . فنحن - شتاً أو أبناً - لا نستطيع أن نطبق المنهج العلمى الصارم فى مجال العلوم المختصة بالطبيعة البشرية ، فهى طبيعة متحركة ، وطريقة فهما لها ليست موحدة بالضرورة . لكن هذا لا يمنع الباحث من الاجتهاد فى تحقيق أكبر قدر من الموضوعية الممكنة . فالباحث يمكن أن يلاحظ تأثير البيئة القادم منها . وأحياناً قد لا يلاحظ هذا التأثير . وبالتالي عليه أن يكون حذراً ودقيقاً بحيث لا يجعل البيئة الأولى ، التى عاش بها ، تؤثر على كتابته وأحكامه . وأيضاً الباحث الذى عاش فى بيئة أوروبية أكثر من عشر سنوات لا شك أنه صار فى موقع يجعله قادراً على أن يكون موضوعياً وهذا ما حاولت أن أقوم به فى كتابى عن التاريخ الأمريكى ، أى أن أكون مخلصاً وموضوعياً فى نقل التاريخ الأمريكى ونقله إلى العربية فى صيغة يمكن للقارئ العربى أن يستوعبها .

◆ فى محاولتك لكتابة التاريخ الأمريكى من خلال مفاهيم عربية فإنك تمارس ما يطلق عليه الآن "الاستغراب" أى رؤية الغرب ودراسته من منظور عربى . هل تعتقد أننا بإمكاننا تأسيس هذا الاستغراب فى الفترة الراهنة ؟

● فى اعتقادى أنه من الواجب علينا أن نسرّع فى تأسيس ذلك ، فالظروف الحالية التى يمر بها العالم العربى تحتم عليه أن يفهم بدقة هذه الحضارة الغربية التى خضع ويخضع لها فى نواح عديدة من حياته ، فربما يدفعه هذا الفهم الجيد نحو سلوك أفضل .

◆ هناك من يرى أنه لا يمكن تأسيس هذا الاستغراب بمعزل عن شروط القوة مثلما كان الحال مع الاستشراق عندما كان مصاحباً للهيمنة الأوروبية . وبالتالي يرى هذا نفر أن ميزان القوى الراهن بين الشرق والغرب لا يسمح بظهور هذا الاستغراب الجديد .

● للنهوض بمهام هذا الاستغراب ينبغي أن تميز منذ البداية بين الاستغراب والاستغراب . وينبغي كمجتمع عربي له طموحه نحو التقدم والرفق أن يستفيد من التجربة التي مر بها المستشرقون . كما أن الباحث العربي المقيم في الغرب والذي يطمع إلى تأسيس مثل هذا الاستغراب يعيش في علاقة مع وطنه الأصلي ووطنه الثاني ، تختلف كثيراً عن الأجواء التي برز في كنفها الاستشراق التقليدي . فالاستشراق بدأ تاريخياً في أواخر القرن التاسع عشر لأن هناك دولاً أوروبية لها مستعمرات خارج حدودها . فكانت هذه الدول في حاجة إلى جهود الاستشراق حتى تتمكن من استغلال أفضل لمستعمراتها . فكان الاستشراق وسيلة الاستعمار الغربي للهيمنة على العالم العربي . بالطبع لم تكن أعمال الاستشراق كلها أدوات استعمارية . وأنا لا أريد أن يكون الاستغراب مثلما كان الاستشراق بل أريد أن يكون أرقى في التفكير وأنبى في الأهداف . وينبغي أن يكون هدف هذا الاستغراب هو إعطاء القارئ العربي معرفة أفضل وأدق بالبلدان الغربية ودرجة تطورها ورفقها . فالاستغراب لابد أن يكون متميزاً ومختلفاً بصورة واضحة عن الاستشراق . وأعتقد أنهم في الغرب سرحبون كثيراً بمثل هذا المشروع ، لأنهم سستفيدون من هذا المشروع أكثر مما استفادوا من الاستشراق .

رینیه حبشی
لا شرق ولا غرب

رينيه حبشى من المفكرين المتميزين بعبائهم الفلسفى، ومع ذلك لا يعرف الكثير عنه وعن كتاباته داخل عواصم الثقافة العربية . ورينيه حبشى المقيم فى العاصمة الفرنسية منذ سنوات عديدة ، كان قد ولد فى مصر وعاش بها فترة طفولته وشبابه بها ، وقام بالتدريس فى مدارسها الثانوية . ثم سافر إلى لبنان حيث قام بإعطاء دروس فى الفلسفة بالجامعة الأمريكية ، واللبنانية ، ومدرسة المقاصد الإسلامية كما قام بإلقاء العديد من المحاضرات فى دول عربية: مصر، سورية، لبنان. وفى لبنان التى شهدت تبلور إسهامه الفكرى والفلسفى أسس معهد العلوم الاجتماعية داخل الجامعة اللبنانية، كما عين مديراً لمساعد لمركز التعليم والتخطيط فى البلاد العربية التابع لمنظمة اليونسكو . ثم ترأس دائرة الفلسفة بالمنظمة ذاتها فى باريس . كما قام بتدريس الفلسفة فى عدد من الجامعات الفرنسية، ومن أشهر مؤلفاته بالفرنسية : فلسفة لعصرنا ، نحو فكر متوسطى ، نحو فكر ملتزم ، فلسفة وشعر ، ياشرق أين غربك؟ ، معنى التراجيديا ، خبرة الموت ، مين دوبران والبحث عن الشخص الإنسانى .

ورينيه حبشى ، رغم أعماله العديدة المذكورة ، ورغم إسهامه الواضح فى مسألة العلاقة بين الشرق والغرب ، والتى خصص لها أكثر من كتاب ، فإن إسهامه غير معروف بقدر كافٍ لدى المتابعين للشأن الثقافى داخل العواصم العربية، وربما بدرجة ما ، داخل العواصم الأوروبية أيضا ، ولا سيما باريس التى يقيم فيها منذ عدة عقود وحتى الآن .

وعلى الغلاف الخلفى لكتابه الصادر بالفرنسية ١٩٦٩، والمعنون : ياشرق أين غربك؟ نقرأ تلخيصاً موجزاً لخريطة أفكار رينيه حبشى الرئيسية فى هذا الشأن: «هذا الكتاب يطرح واحدة من القضايا الكبرى لعصرنا، فالشرق والغرب يتصارعان، ويدور الصراع على الصعيد السياسى فهل يدور بنفس القدر على الصعيد الثقافى والروحى؟ السؤال يفرض نفسه عبر تاريخ سياسى أفضى إلى تعارضات راثفة . والإجابة ستكون بدورها تاريخية» .

ويرى رينيه جيشى ، فى تقديم كتابه ، أن قطيعتنا الأخيرة - الكتاب صدر فى عام ١٩٦٩ - مع الغرب كشفت عن طابعها السلبى . وجعلتنا نحصل على عداوة الغرب بدلاً من صداقته . لكنه يرى أيضاً أن الانفراجة أو التفاهم السابق فى عصر مسألة الشرق ان أيضاً قد تم على حسابنا وأنه لابد من بحث المسؤولية عن ذلك على ضفتى النهر

ويفتش رينيه جيشى عن هذه المسؤولية من خلال حديثه عن الأعراض المرضية للثقافة الغربية ، كما يبحث عن الأعراض المرضية للثقافة الشرقية ليصل إلى فرضيته الشهيرة : لا غرب ولا شرق وإنما طريق متوسطى يجمع ثقافات البحر المتوسط شمالاً وجنوباً .

فى هذا الحوار محاولة للاقترب من بعض أفكاره ومواقفه حول الفلسفة التى نادى بها حول واقع الفلسفة العربية اليوم وحول التساؤلات التى أثرتها عن حضور أو غياب الفلاسفة العرب المعاصرين ، وموقفنا من الغرب بصفة عامة .

♦ ارتبطت باسمك منذ فترة بعيدة ، فى أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات دعوة إلى إسترجاع ثقافة «المتوسط» ودعوة إلى «الشخصانية» كيف تحدد لنا فلسفتك وموقعك الثقافى بشكل عام ؟

● الفلسفة التى تمحور حولها فكرى وكتاباتى يمكن وصفها بطريقة بسيطة للغاية . أولاً لدى احترام كبير لتراث الماضى أى لكل ما كان . ولا يزال حياً من الفكر التابع حول ضفتى المتوسط ولكننى أيضاً مهتم بالحاضر ، ولا أحتمل الماضى عندما يكون ساكناً جامداً ، وأعتقد ان احترام الماضى يعنى أيضاً تبنى التقدم والتطور وأن ترك الماضى فى حالة جمود هو عدم وقاء وعدم احترام له ومحور تفكيرى الأكثر اتصالاً بالماضى والحاضر هو مفهوم الإنسان . فالإنسان من وجهة نظر ميتافيزيقية هو تعال ، وهو من جهة أخرى متجذر فى أرض وفضاء وزمان معين ولا يبدو لى أن هناك

تعارضاً بين الأرض والسماء . لم يظهر لى أبداً أن البعد الدينى يمكن أن يفرمل أو يشل البعد الزمنى أو التاريخى، بل أعتقد العكس . وأن ما هو ابدى فى الإنسان يتطلب تجديد الكائن البشرى ومحيطه . ما أدعو إليه من فلسفة يمكن أن يطلق عليها «الشخصانية» وهى فلسفة متجذرة فى ثقافة عالمية لأنها تعنى بالشخص الإنسانى أينما وجد وفى أية لحظة من التاريخ لكن الشخصانية التى أدعو إليها هى شخصانية متمية إلى حوض المتوسط لأن كل شخص يولد فى تاريخ معين وخريطة معينة . . .

◆ تحدثت عن الإلتواء إلى ثقافة المتوسط . . لكن كيف تحدد ملامح هذه الثقافة وما هى خصائصها ؟

● يمكن أن أجيب عن هذا السؤال بطريقتين أو من خلال زاويتين مختلفتين، هناك زاوية أولى لا تهم إلا المثقفين والفلاسفة وهى الزاوية التاريخية أى التذكير بما كان عليه حوض المتوسط بدءاً من القرن الرابع وحتى الثالث عشر ، وهناك زاوية يمكن الانطلاق منها نحو تحديد العقلية المتمية إلى حوض المتوسط ، لأنه من الصعب الحديث عن ثقافة متوسطية لكن يمكن الحديث عن عقلية متوسطية . فالبلاد التى تقع على ضفتى المتوسط قد شهدت منذ القرن الثالث عشر تطورات فى اتجاهات متباعدة من حيث الثقافة والأيدىولوجية والنظم السياسية، إلى الدرجة التى جعلت من كل بلد يدخل تعديلات على ثقافة المتوسط ويعطيها مؤشرات مختلفة، وأصبحت هذه البلاد المتمية إلى حوض المتوسط لا تعرف على نفسها، وبالتالي لم يعد يوجد اليوم «متوسطية» بل «متوسطيات» وصار هناك متوسطية باللغة العربية وباللغة اللاتينية الأسبانية ، الإيطالية ، الفرنسية، اليوغسلافية ، اليونانية . . . وهذا ما يعنى تنوعاً فى نطاق هذه المتوسطية لكن قد يكون الأمر مختلفاً بالنسبة لعالم الاجتماع الذى أدرك ما هو مشترك بين هذه التنوعات وهذه الخصائص أو القسامات المشتركة بين ضفتى المتوسط، ويمكن أن أشير لها عفوياً كما تخطر لى الآن : أولاً، هناك معنى وإدراك معين للزمن والمساحة ، المتوسطيون يحبون المساحات القريبة . إنهم يحترمونها لكن لا يصعدون إليها . وكذلك الزمن البعيد سواء

فى الماضى أو المستقبل يحترمونهُ لكن خيالهم لا يصعد إليه ولا يحاولون إعادة بدنه وإعادة إحيائه ، فالزمن الحاضر والمساحة القريبة هما ما يثير الإنسان المنتمى إلى حوض المتوسط، ونظراً لهذه السمة فإن المتوسطى لا يعرف كيف ينتج نوعاً من البرمجة أو التخطيط لأمد بعيد، لأن الحاضر والمساحة القريبة هى ما يشغله أولاً. وهذه السمة تجعل المتوسطى يعيش حاضره بكثافة وحساسية فى التعامل مع الآخرين . هناك فى عقلية المتوسط ما نسميه بـ «حس العائلة والجماعة» وما يترتب على ذلك من خصائص أخرى كثيرة، وبالتالي لا توجد الفردانية المميزة للعقلية الغربية التى تجعل من طفل فى السابعة عشرة من عمره يدير ظهره لأسرته أو فتاة فى العشرين من عمرها لا تريد ان تسمع شيئاً عن أسرتهما بينما خصائص العقلية المترسطة تختلف تماماً عن مثل هذه العقلية . لكن علينا أن نبقى أن هناك ما هو مقنع وهناك ما هو غير مقنع فى خصائص العقلية المتوسطية . لأن التضامن - وهو إحدى خصائص هذه العقلية - قد يتحول فجأة إلى نوع من التعصب الذى يرفض الآخر ويهدد الوحدة الداخلية . كذلك هناك ما هو غير مقنع فى إدراك هذه العقلية المتوسطية للزمن . إذ يتحول إدراكها للزمن إلى نوع من القدريّة التى تنزع المبادرة من الإنسان والتى تشل طاقاته فأحياناً يعتقد المتوسطى بأن المستحيل يمكن أن يتحقق فى أية لحظة، ويتنظر المصادفة والحظ وينسى وضع البرامج والتخطيط وتنفيذ ما تم التخطيط له، وأحياناً ينقص هذه العقلية المتوسطية التركيز على دور العقل والمنطق . وهذه هى نقطة ضعفنا، أى أننا لا ندرك الواقع كما تجسّد لنا .

◆ عندما يكون التركيز مفرطاً على العقل والمنطق أحياناً، ألا يكون العقل الأقل والمنطق الأقل انتشاراً من المميزات وليس من الآفات التى يمكن أن تؤخذ على العقلية الشرقية ؟

● بالطبع، فإن الحيوية ، والعنفوية التى تميز تقريباً كل بلاد حوض المتوسط سواء الضفة الشرقية أو الضفة الغربية ، هى من مميزات هذه العقلية لكن عندما تكون الطاقات غير واضحة التوجه ، وطالما لم نعرف ما هو الإنسان الذى نريده وما هو

نموذج الديمقراطية التي نريد أن ننخرط في ظلها ، وطالما لا توجد هذه القيم النهائية التي توجه هذه الطاقات فإن هناك ما يدع وإلى التركيز على ضرورة إعطاء مساحة أكبر للعقل والمنطق في حياتنا ، وهكذا لا نترك هذه الطاقات تتعرض إلى إغراء بعض القيم التي تسير في اتجاه غير مفيد . . . وإن كنت لا أريد أن أتحدث عنها هنا .

◆ هناك عودة هذه الأيام للحديث عن شرق في مواجهة غرب هل تدعم هذه العودة وجهة نظرك في الحديث عن عقلية المتوسط أم تنفيها ؟

● عندما أقول «الدينا» فإنني أعني باستمرار الضفة الغربية والشرقية من حوض المتوسط ، ولا أعني فقط الضفة الشرقية . ولم أتطرق في حديثي إلى وصف العقلية الغربية بصفة عامة التي تسير في طريق استخدام غير إنساني للعقل في طريقه لتهديد المعمورة بكاملها . لكنني لا أسعى لإقامة مقارنات ، أريد فقط تشخيص متوسطينا الخاصة ، وما أقوله هنا صالح بالنسبة إلى الناس العاديين في الضفة الشرقية أو الغربية للمتوسط . فالناس الذين يعيشون في هذه البلاد ، عندما ينتقلون من بلد إلى آخر يمكنهم التفاهم في ما بينهم على الرغم من إختلاف لغاتهم ، فالليوناني يستطيع أن يعيش في مصر وأن يجد من يفهمه جيداً . . . أنا لا أريد أن أدخل في مقارنة بين العقلية الغربية والعقلية العربية . بالنسبة لى الشرق والغرب هما تشكيلان كاريكاتوريان للكائن البشرى . ولهذا اعتقد أن «المتوسطية» يمكن أن تذكر هذا أو ذاك بالبعد الحقيقي للإنسان والكائن الإنساني وبأهمية التضامن الإنساني الموجود بين الجماعات البشرية ، فالمتوسط قد ورث تراثاً مشتركاً غنياً . وفيه تقاطع وتلاقى كل ثقافات العالم وأديانه .

منطقة المتوسط هي التي تملك إمكانيات وجود إنسان المستقبل الأكثر توازناً من الصورة السائدة اليوم سواء في الشرق أو الغرب . وأنا أتفق صراحة مع مؤرخ متوسطي يعرفه كل الناس هو قرنان بروديل الذي قال إن مركز الحضارة انتقل بدءاً في القرن ١٥ ، ١٦ من المتوسط إلى الأطلسي . وأن المتوسط انطلقاً من هذا التاريخ قد صار

صفحة مطوية من التاريخ ، لكننى فى هذه النقطة بالذات ، أفترق عن بروديل رغم احترامى لهذا الإنتاج الضخم الذى خلقه ، فانا لا أقبل القول بأن المتوسط صفحة طواها التاريخ ، بل أنظر اليه ككتاب موجود أماناً وعلينا أن نفتحه واعتقد أن هذا المتوسط مسجل فى مستقبلنا أكثر مما هو مسجل فى ماضينا . لكن مع الأسف . . كثير من أبناء المتوسط لا يدركون ذلك اليوم ونسوا كل تاريخهم وكل ما هو مشترك بينهم . ودورنا اليوم استشارة وعيهم النائم .

◆ لماذا لا يوجد فلاسفة عرب اليوم فى اعتقادك ؟

● إذا لم يوجد فلاسفة عرب اليوم فإنه لنفس السبب الذى ذكرته توأ ، وهو أن الأجيال العربية منذ القرن التاسع عشر وهى مشغولة بالقضايا السياسية ، وتقود معارك فى هذا الميدان ضد الغرب الإمبريالى وأيضاً ضد السلطات الوصلية التى قادت هذه الشعوب . ففى إطار الصراعات السياسية داخل البلد الواحد أو نزاعاته مع الخارج انطفأت إبداعات المفكرين العرب ولم يعطوا سوى أيديولوجيات بالمعنى السلبى للكلمة ، أى تفكير سياسى قصير النظر ، ولم نجد من استطاع أن يرفع الرأس ليفكر بقضايا واضحة وقضايا العالم أيضاً .

◆ بالنسبة لك ما الذى تفهمه من كلمة فيلسوف عربى اليوم ؟

● الفيلسوف العربى اليوم هو الذى يستثير القيم الأكثر إيجابية فى ماضيه والأكثر معاصرة فى حاضره ووضعها فى حالة تواصل وتناغم مع ما يأتية من تيارات العلم السائدة اليوم ، الفيلسوف العربى اليوم هو من يحاول النجاح فى رسم ملامح اتحاد بين الماضى والحاضر . لا أرى اليوم فلاسفة عرب يطرحون قضايا الفلسفة أو يفكرون فلسفياً فى قضاياهم !

محمود القيعى
الترجمة تشجع على التفاهم

محمود القيمي من المثقفين العرب البارزين الذين أمضوا سنوات عديدة فى عواصم غربية، بين لندن ودبلن وباريس، حيث درس أولاً الأدب الإنجليزى بجامعة دبلن، ثم انتقل إلى جامعة السوربون بباريس التى درس فيها فنون الترجمة ثم قام بالتدريس فى الجامعة ذاتها لعدة سنوات. وبعد ذلك التحق فى عام ١٩٧٥ بمنظمة اليونسكو بباريس، فى عدد من الوظائف قبل أن يتولى رئاسة قسم الترجمة العربية بتلك المنظمة. ثم اختير فيما بعد مديراً لأقسام الترجمة كلها باليونسكو. ونشرت له عدة ترجمات من الإنجليزية والفرنسية إلى العربية وكتب العديد من المقالات فى موضوعات لغوية وثقافية.

ومن واقع الخبرة التى اكتسبها، من خلال إقامته الطويلة فى بلاد الغرب، وإحاطته عن كثب، بالعديد من جوانب الثقافة الغربية ومشكلاتها، وإتقانه لعدة لغات أجنبية، كان لابد لنا من إجراء حوار معه بحثاً عن موقف جديد من الغرب اليوم. وبطبيعة الحال دار الحوار حول بعض القضايا المطروحة فى طيات كتابنا مع مفكرين وأدباء كانوا على صلة أيضاً بإشكالية العلاقة مع الثقافة الغربية.

◆ مع ازدياد الحديث عن «العولمة» وامتدادتها الثقافية، البعض يرى أنه لم يعد هناك مبرر للحديث اليوم عن شرق وغرب، أو عن تجديد وتحديد موقفنا اليوم من الغرب، فى أعقاب هذه التطورات الأخيرة. كيف تنظر إلى هذا الأمر؟

● إن ما يسمى الآن بظاهرة "العولمة" لايعنى ذوبان الكيانات الوطنية، أو مسخ الذاتيات القومية، وإذا كان ينبغى لنا أن نعيش عصرنا وأن نتفاعل مع الآخرين، فلا بد أن نحرص أيضاً على الدفاع عن مقومات شخصيتنا وحضارتنا. وإذا كانت فرنسا مثلاً قد طالبت فى محادثات الجات بما أسمته «الاستثناء الثقافى» حفاظاً على الثقافة الفرنسية فى وجه الغزو الثقافى الأمريكى، فلا بد لنا بالأحرى أن اتمسك بهويتنا وأن نصون سيادتنا، فى الوقت الذى يجدد فيه أيضاً الانتفاع بالمزايا الإيجابية للعولمة من حيث الإنفتاح الاقتصادى والتكنولوجى والتجارى. فالعولمة لاينبغى أن تكون ذريعة

للهيمنة الغربية على مقدرات الآخرين . إنها ظاهرة كغيرها من الظواهر التي شهدتها العالم، ولا بد أن نتعامل معها بحذر، بل ولا بد أيضاً من أن نسهم في تحديد معالمها وصياغة قواعدها وضوابطها بدلا من أن نقف موقف المتفرج ثم نتباكى بعد ذلك عما لحق بنا من أضرار بسببها، وبالتالي فإن الحديث عن موقفنا من الغرب الآن له ما يبرره، بل أراه ضروريا ونافعاً .

◆ هذا الموقف الجديد من الغرب الذي ندعو له، ونحرض مفكرينا وأدباءنا على الإضطلاع بواجبهم في صياغة عناصره وملامحه، هل يبدأ في تصورك من نقد إدراكنا القديم للغرب، أم تمنح الأولوية لضرورة إجراء دراسات شرقية وعربية جديدة عن الغرب المعاصر، أم الطريقين معاً في آن واحد ؟

● ينبغي بطبيعة الحال إجراء عملية نقد ذاتي لمسار علاقتنا بالغرب . لقد عانينا طويلاً ومازلنا من الهيمنة الغربية . ولكننا ارتكبنا أيضاً أخطاء كثيرة . فلا بد من وقفة نحاسب فيها أنفسنا قبل أن نحاسب الآخرين . وأرى من ثم أن موقفنا من الغرب الآن لا بد أن يقوم على أسس موضوعية بناء على تجاربنا السابقة معه، دون أن تغفل حركة التاريخ وضروراتها . وبالإضافة إلى الدروس المستفادة من الماضي، يحسن أيضاً أن نستشرف آفاق المستقبل، ومن ثم لا بد أن نستخدم الوسائل العصرية لصياغة هذا الموقف الجديد، ومن بين هذه الوسائل إجراء دراسات متخصصة ومتعمقة عن الغرب المعاصر حتى يتسنى لنا الإلمام بالمعطيات الجديدة في عصر يتسم بالانفتاح والتواصل المستمر . واعتقد أنه حققنا المزيد من التقدم، أصبحنا أكثر ثقة في أنفسنا وفي تعاملنا مع الآخرين .

◆ من خلال خبرتك ومسيرتك في ميدان الترجمة، كيف تنظر إلى طبيعة عملية الترجمة ودورها في الوقت الحاضر ؟

● الترجمة مجال خصب جداً . وأود أن ننظر إليها نظرة جادة ونؤمن بأننا أمام قضية ذات أهمية فائقة، لأنها تفتح أبواب الحوار مع الآخرين، هي نافذة مهمة على

العلم، وكانت عبر القرون وسيلة أساسية لنقل المعارف والثقافات المختلفة من شعب إلى آخر، لأننى أعتقد أن التعرف على اللغة ليس مجرد معرفة لغوية، لكن- كما تعلم - عندما نتعرف على لغة جديدة، نتعرف على عالم جديد وثقافة جديدة فالاحتكاك عن طريق الترجمة يساعد فى التوصل إلى مفاهيم جديدة، كما أن الترجمة أيضاً وتعلم اللغات وسيلة من وسائل التفاهم والتعارف بين الثقافات والشعوب. ونحن نعلم أن الدين الإسلامى يدعو إلى التعارف «ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا» فالتعارف مهم جداً واللغة هى وسيلة هذا التعارف والترجمة، هى أداة ووسيلة مهمة لتحقيق ذلك. وربما يحسن أن أضيف هنا أن تعلم لغة أجنبية هو الخطوة الأولى على طريق التسامح وقبول الآخر. ويوجد باليونسكو برنامج يهتم بتعليم اللغات الأجنبية كوسيلة من وسائل نشر ثقافة السلام والتسامح. ولعل هذا العامل يضيف بعداً آخر لعملية الترجمة التى يمكن أن تسهم بقسط كبير فى إزالة سوء الفهم والتشجيع على قبول الآخر والتحاور معه.

◆ ألا نعتقد أننا فى حاجة أولاً إلى قبول «الأنا» قبل الحديث عن قبول «الآخر»، وأعنى أن فى ثقافتنا من يرفضون مقومات الأنا التاريخية، ثم يحدثوننا بعد ذلك عن التسامح وقبول الآخر ؟ هل هذا معقول !؟

● إننى أتفق معك تماماً أنه لايد من قبول الأنا قبل الدخول فى حوار مع الآخر، لكى يكون هذا الحوار مشمراً وجدياً، إن القصور فى معرفة الأنا (معرفة الذات) لايد أن يقضى إلى نتائج سلبية، قد يودى إلى الانغلاق والجمود، فى حين أن التطلع إلى التعرف على الآخرين يفترض سلفاً قدراً من الثقة بالنفس والانفتاح. وهذا هو ما أدعو إليه وأؤمن به حيث أننى أشعر أن لدينا من الرصيد الحضارى والثقافى ما يمكننا من أن نتحاور على قدم المساواة مع الآخرين، شريطة أن نعرف أيضاً بعيوننا ونؤكد رغبتنا فى الاستفادة من تجاربهم.

◆ هذا من الناحية النظرية المجردة. لكن إذا انتقلنا إلى عالم الواقع العملى

سنجد أن الترجمة لا تكون أحياناً أداة للتعارف، وبالتالي يجوز التساؤل : هل هي أداة للتواصل أم للتبعية ؟

● وجهة نظري أنها أداة للتواصل وليس للتبعية، عندما أترجم كتاباً أو قصة فأننا طبعاً نعرف على شيء جديد بالنسبة إليّ، لكن المحك هو : ماذا سأفعل بهذا الكتاب أو القصة أو البحث ؟ هل أترجمه من أجل الترجمة أم أن هناك هدفاً آخر، وبالتالي لا أعتقد أن هناك تبعية إذا عرفنا الهدف الذي من أجله نترجم، فأننا أترجم من أجل التعارف والاستفادة والإبداع أيضاً، فالترجمة وسيلة من وسائل التفاهم والحوار وقد تعطيني دفعة للإبداع والتأليف، ونحن في عالم متشابك ومعقد، ولا بد من أن نعرف ماذا يحدث في العالم. والترجمة وسيلة لكي نعرف الآخرين .

◆ أنت تتحدث عن الدور الإيجابي للترجمة، لكن هل هذا ما يحدث فعلاً في الواقع العلمي ؟

● هذا موجود . نعم خذ مثلاً تجربة دخول اللغة العربية في الأمم المتحدة واستخدامها كلغة عمل، فقد كان ذلك مكسباً كبيراً للعرب وللذاتية الثقافية العربية، فاللغة تكتسب مفاهيم جديدة، وهذه عملية أكثر أهمية من الترجمة في حد ذاتها، لأننا نتلقى كثيراً من المفاهيم الجديدة وبالتالي تصعب عملية الترجمة لأنه لا بد من ترجمة هذه المفاهيم إلى لغة سلسة مقبولة من الجميع، وهذه مشكلة أخرى تقنية، لكن الترجمة في حد ذاتها وسيلة مهمة من وسائل التعارف والحوار مع الآخرين، فضلاً عن الإحاطة بالمستجدات في مختلف مجالات المعرفة ومسيرة التقدم .

◆ أثناء حديثك أثرت مسألة الهدف من الترجمة، فهل ترى أن هذا الهدف كان واضحاً لنا ونحن نترجم ؟ هل كانت لدينا استراتيجية عامة تحدد معنى الترجمة، وما يترجم، وما لا يترجم أم أنها ترجمة بلا هدف في أغلب الأحيان ؟

● في هذه المسألة لا أختلف كثيراً معك . فعلاً نحن لا نملك استراتيجية عامة في مجال الترجمة، هناك محاولات فردية تبذل هنا وهناك في بلد عربي أو آخر، لكننا

نفتقد إلى استراتيجية كاملة وتخطيط بعيد الأجل في هذا المجال . ولذلك تعثر الكثير من تجارب التعريب في العالم العربي لعدم وجود رؤية واضحة وبعيدة الأجل في هذا المجال، قد تبدأ جيدة، ثم تعطل وهناك نوع من الحنين إلى الماضي يعترض عملية الترجمة والتعريب، الترجمة وسيلة وليست غاية بمعنى أنه ينبغي أن تطور هذه الوسيلة في صالح عملية التقدم ولتعزيز الثقافة العربية، لكن أنا معك تماماً، في أن هناك نقصاً في الاستراتيجية العربية ونقصاً في التصور العام لهذه العملية .

◆ في تقديرك هل هناك أسباب أخرى تفسر عدم النجاح الكامل لعمليات التعريب والترجمة ؟

● لابد من أن يكون هناك منهج متكامل أيضاً في إعداد المترجمين، لأن عملية الترجمة في العصر الحديث ليست عملية سهلة، هناك تخصصات عديدة . لا تكفي إجادة اللغة، بل ينبغي أيضاً معرفة التخصص، فهي عملية متكاملة، هناك ثغرات عديدة، في بعض الأحيان قد نجد الاختصاصي المتمكن ولا نجد اللغوي المتمكن، فلا بد من أن تجتمع في الشخص اللغة والتخصص أيضاً لكي ينتج شيئاً جيداً، وهذا غير متوفر دائماً، بعض الترجمات لا تقرأ، فاللغة ركيكة وفي بعض الأحيان قد تكون اللغة لا بأس بها، لكن المضمون غير مقنع وغير كافٍ وغير أمين، إذاً هناك مشكلات تقنية وعلمية تعترض أيضاً تقدم عملية الترجمة إلى جانب نقص التصور العام أو عدم توفر الاستراتيجية البعيدة المدى .

◆ هل للمراكز الثقافية الغربية، في تقديرك، تأثير في عملية الترجمة، في نوعية ما يترجم إلى العربية ؟ هل يحققون فائدة ما من الترجمة إلى العربية؟

● أتصور عندما نقرر ترجمة كتاب ما فلا بد من أن يكون هذا الكتاب مفيداً لنا . اعتقد أننا لا بد من أن نطوع عملية الترجمة لخدمة أهدافنا وليس لخدمة أهداف الآخرين . ومن الممكن أن نستفيد من رغبة هذه المراكز الثقافية في حالة ترجمة أعمالنا من العربية إلى اللغات الأوروبية لتعريف الآخرين بثرائنا، فما الذي يمنع من

أن نستمع إلى نظرتهم ورغبتهم فى معرفة شىء ما عن التراث العربى فى مرحلة معينة أو القصة العربية الحديثة أو الشعر العربى الحديث .

◆ حديثك فى هذه النقطة يفتح الطريق لسؤال : هل نقوم صراحة بدورنا فى مجال الترجمة من العربية إلى اللغات الاجنبية أم أننا نترك ذلك لبعض المستشرقين ثم نعيب عليهم جهلهم أو سوء نيتهم بعد ذلك ؟

● هناك ثغرة فى هذا المجال لأنهم يجهلون الكثير عنا، كما نجهل الكثير عنهم وعن أنفسنا، وهذه مسألة تحتاج أيضاً إلى تخطيط ينبغى أن نخطط، ماذا ينبغى أن ننقل إلى الآخر، فالتعرف على نجيب محفوظ الذى حصل على جائزة نوبل للأداب عام ١٩٨٨، قد تم من خلال بعض الترجمات المتناثرة، لم تكن هناك خطة كاملة لترجمة أعمال كبار المبدعين العرب .

◆ ما الذى يحول بيننا وبين إعداد ترجمات جيدة من العربية إلى اللغات الاجنبية للتعريف بكبار مبدعينا ؟

● أن ذلك يعزى إلى عدم وجود هيئة متخصصة فى هذا المجال، هناك جهود لكنها جهود متناثرة ومشتتة فى الصالح العربى، ويا حبذا لو كنا نملك أجهزة قومية أو تابعة للجامعة العربية تقوم بترجمة الأعمال العربية إلى اللغات الأجنبية بطريقة منتظمة وتتوافر لها الموارد الكافية لكى ننقل الكثير عن أنفسنا، لآخرين ونقدم الجوانب الإيجابية والمشرقة للحضارة العربية، وعندما أدعو إلى وجود أجهزة قومية فأنا أعنى أجهزة فعالة ومنتجة وتتوافر لديها الرؤية الكاملة والحماس وإرادة العمل، نحن نتحدث كثيراً بطبيعة الحال، والإنتاج محدود جداً .

◆ فى تقديرى لماذا هذا الحماس غير موجود ولماذا الرؤية والإرادة غائبتان ؟

● هذه مشكلة عامة، هناك نوع من الانحسار فى العالم العربى ونحتاج إلى قدرات تنظيمية هائلة وإلى دوافع كثيرة لكى نستغلب على الكثير من العقبات وكثير من

المشكلات، فالشباب العربي مبدع وينتج فى الخارج وفى المنظمات الدولية، فلماذا لا يحدث ذلك داخل البلاد العربية ؟ أعتقد أنها مسائل تنظيمية فى نهاية الأمر وتتعلق بالإرادة السياسية، فالترجمة كنشاط ثقافى تندرج ضمن نظام متكامل، فإذا صلحت أشياء أخرى قد تصلح الترجمة أيضاً، إذا هى قضية عامة ولها جوانب متعددة ومتشابهة .

◆ فى إحدى محاضراتك فى المركز الثقافى المصرى (بباريس) تحدثت كثيراً عن مشكلة التعريب، نريد أن نعرف كيف ننظر إلى أسباب تعثر عملية التعريب فى بعض الأقطار العربية ؟

● عندما أتحدث عن مصر ألاحظ أننا نرسل بعثات دراسية إلى الخارج منذ بداية القرن التاسع عشر، فإلى متى سيستمر هذا الوضع ؟ ولماذا لا ننشئ مراكز للبحوث فى مجالات معينة كى يفد إلينا الآخرون ليستفيدوا مما لدينا من علوم تتعلق بنا، فى رأى أنه قد آن الأوان لكى نتوقف هذه الحلقة المفرغة المستمرة ونبدأ فى الإبداع والاجتهاد، ولنبدأ بقضية التعريب لأنها ضرورة وضرورة قومية ملحة. التجربة تعثر من حين لآخر . لكن أعتقد أننا لا بد من أن نحقق فيها تقدماً، وفى هذا فليتنافس المتنافسون .

◆ عندما نقول «تعريب» .. تعنى تعريب ماذا ؟

● أعنى استخدام اللغة العربية فى التعليم والبحوث والتأليف، عندما نبعث طالباً ليحصل، على الدكتوراه باللغة الإنجليزية يعود ولديه رغبة للتدريس باللغة الانجليزية لأنه درس بها، وهكذا تستمر الحلقة، فى تصورى أن اللغة العربية تتوافر لها جميع المقومات لأداء هذه العملية، لكن هناك نكوصاً وتقاعساً عن الإقدام على هذه التجربة والخوف من الانقطاع عن العالم، ونسى أن اليابانيين يدرسون كل شئ بلغتهم القومية، إسرائيل تدرس كل المواد باللغة العبرية فى وقت كادت فيه هذه اللغة تندثر، وقل الشئ نفسه عن بولندا وفنلندا ودول أخرى كثيرة .

◆ ما الذى لا ندرسه باللغة العربية فى جامعات بلادنا ؟

● إذا أخذت حالة مصر، هناك الطب والهندسة والصيدلة والعلوم وطب الأسنان (أى كل ما هو تطبيقى يتم تعليمه باللغات الأجنبية) وتدرس العلوم الأخرى باللغة العربية فلماذا هذه التفرقة ؟ ألا تتوفر لدى اللغة العربية المقومات الكافية ؟ هذا غير صحيح، اللغة العربية ليست عاجزة . إنما ليست فقط وسيلة للتعبير، وإنما هى أيضاً منهج فكر، وطريقة حياة، وهنا تنشأ التبعية بمعنى أننا نظل نتلقى ولا نبدع، نتلقى باللغات الأخرى ونستخدمها فى التربية والتنشئة والتعليم فيخرج المواطن وهو يعيش ازدواجية، وفى وعيه أن كل جاد لابد من أن يكون بلغة أجنبية، أما الفنون والثقافة والآداب فيمكن أن تكون باللغة العربية، وأنا أعتقد أن هذا منزلق خطير جداً وأنا لا بد من أن نفتحم مجال التكنولوجيا والعلوم باللغة العربية، وليس فقط الشعر العربى بل التكنولوجيا العربية والهندسة العربية وغزو الفضاء . . .

◆ كيف تنظر إلى تجربة التعريب فى كل من الجزائر وسورية ؟

● فى سورية التجربة تسير على ما يرام وفى الجزائر تتعثر إلى حد بعيد لأسباب تاريخية، لأن اللغة العربية كانت شبه غائبة، وبالتدريج بدأت تنتشر لكن أعتقد أنه بدأ تطور جديد فى الجزائر، وهو عدم الإصرار على أن تكون اللغة الفرنسية هى اللغة الأجنبية الوحيدة، لكن التجربة ما زالت تواجه الكثير من الصعوبات .

◆ كيف تنظر إلى المستقبل فى ميدان الترجمة والتعريب؟

● أعتقد أن المستقبل مشرق على الرغم من السلبات، إذ كلما تماسك العالم العربى وتجاوز خلافاته، كان أقدر على تحقيق إنجازات فى مجالات عديدة ومنها مجال الثقافة والترجمة والتعريب، وأنا أعتقد أن العروبة هى ثقافة فى المقام الأول، وأن الثقافة هى التى تجمع بين العرب . بغض النظر عن التقلبات السياسية . يمكن أن يكون هناك تنوع سياسى لكن هناك وحدة ثقافية هى الأساس، وهى ما تفتقر إليه

أوروبا حالياً فى كل ما تسعى إليه من وحدة . هى تفتقر إلى وحدة ثقافية، قد تكون فى أوروبا تصورات ثقافية مشتركة، لكن هناك لغات عديدة وتاريخ ينوء بكثير من الاضطرابات والانقسامات السياسية والثقافية وما شابه ذلك، بينما نحن لدينا رصيد ثقافى هائل جداً، كما يوجد لدينا كثير من الإمكانيات، ولكن للأسف لم نستغلها ولا بد من أن يستثمر هذا الرصيد وهذا التراث لاستشراف القرن الحادى والعشرين بروح وثابه والتعامل مع العالم بطريقة عصرية حديثة .

أهين معلوف
مع تعدد الانتماءات والحضارات

حقق أمين معلوف : من خلال كتيبه الشهيرة، نجاحاً كبيراً لدى وسائط الإعلام الفرنسية، ولدى جمهور القراء باللغة الفرنسية، وكان كتابه «ليون الأفريقي» قد حصل على المرتبة الحادية عشرة من بين أفضل عشرين كتاباً صدرت بالفرنسية عام ١٩٨٦ . كما حصلت روايته «سمرقند» على جائزة دار الصحافة، وقبل ذلك كان كتابه الشهير «الحروب الصليبية» موضع حفاوة وترحيب داخل الأوساط الثقافية بتياراتها المختلفة فى فرنسا . . واستمر هذا الاهتمام بأعمال أمين معلوف الأخرى التى توالى فى صدورها * صخرة طانيوس، حقائق النور، سلاسل الشرق . . .

وربما يكون أحد الأسباب الرئيسية التى أدت إلى انتشار ونجاح روايات أمين معلوف التاريخية أنها تمس مناطق الحدود بين الثقافات والحضارات . وهى مناطق يتطلع إليها الكثيرون بشغف وفضول وحب وكرامية فى أحيان كبيرة يقول معلوف فى هذا الشأن: إننى أفكر دائماً فى مسألة العلاقة بين الشرق والغرب، وهذه العلاقة هى محور أعمالي، لكن صياغتها تختلف من عمل إلى آخر . وفى كتابى «ليون الأفريقي» كانت سيرة ليون تجمع بين الشرق والغرب، وفى كتابى «سمرقند» برغم أن الاهتمام الأكبر كان يتعلق بصدمة الشرق إلا أن هذا الاهتمام كان يعكس فى الوقت نفسه صورة الشرق كما يراها الغرب . فالراوى فى «ليون الأفريقي» كان شرقياً بينما الراوى فى سمرقند كان عربياً .

ويرى أمين معلوف أن اختيار شخصياته التاريخية قد جاء بمحض الصدفة وأنه لم يحاول عمداً أن يقحم أحداث الحاضر فى أحداث الماضى، وإن كان لم يرغب عن ذهنه وجود تشابهات . لكنه أقر فهم أحداث الماضى وشخصياته من داخلها، ويعتمد على تقنية محددة فى إعداد رواياته التاريخية تستند فى المقام الأول على الوقائع التاريخية . وفى «ليون الأفريقي» حافظ على الأحداث التاريخية فى أدق تفاصيلها، كرحلات ليون، سقوط غرناطة، معركة القاهرة بين العثمانيين والمماليك، أو سقوط روما . كل هذا يرويه معلوف من دون تدخل من جانبه . لكن عندما كان الأمر متعلقاً بشخصية ليون

الأفريقي وحياته الشخصية، تدخل خيال المؤلف، لأن المعلومات، كما يقول، لم تكن متوفرة . فالمؤلف هنا لا يكتب سيرته الذاتية - رغم وجود ملامح كبيرة من حاضره المؤلف - وإنما حاول تقديم هذه الشخصيات . وفهم ما كانت عليه عقلية ونفسية ليون الأفريقي أو عمر الخيام، قبل أى شئ آخر.

◆ كيف تفسر النجاح الذى حققه كتابك «ليون الأفريقي» وأى العوامل فى تصورك هى التى ساعدت أكثر على انتشار الكتاب بين القراء الفرنسيين، فضلاً عن الترحيب الذى حظى به فى أجهزة الإعلام الفرنسية؟

● أعتقد أن شخصية ليون الأفريقي أثارت شيئاً من الفضول والاهتمام فى أوساط النقاد والقراء، حتى أن الاهتمام بهذا الكتاب كان أكثر مما توقعت شخصياً، ف شخصية «ليون الأفريقي» كانت منسية إلى حد ما . لكن يحدث أحياناً أن ينجح كتاب فى إثارة الاهتمام بشخصية قديمة، خصوصاً إذا كانت هذه الشخصية لها رنينها الخاص . «ليون الأفريقي» يوحى بشئ أفريقي، بعيد وساحر إلى حد ما وأعتقد أن هذا ساعد فى الاستقبال الذى حظى به هذا الكتاب .

◆ ألا تعتقد أن هناك أسباباً أخرى ساعدت على انتشار الكتاب أكثر مما يوحى به اسم «ليون الأفريقي»، وألا تعتقد أن شخصية ليون الأفريقي، بغض النظر عن رنين اسمها تمثل شيئاً ما ساعد فى نجاح الكتاب؟

● الحقيقة أن شخصية «ليون الأفريقي» كانت تمثل نظرة إلى الحياة .. نظرة إلى الانفتاح الثقافى والحضارى، ورفضاً للتزمت والانغلاق .

◆ لهذا السبب طرحت السؤال ؟

● بالطبع هذا عنصر ساهم - إلى حد بعيد - فى إثارة الاهتمام بهذه الشخصية، وأعتقد أيضاً أن هناك تشوقاً إلى رؤية وجه آخر لحضارة عربية وإسلامية، وأعتقد أن هذه الشخصية التى عاشت فى القرنين الخامس والسادس عشر تمثل إلى حد ما، هذا الوجه الآخر، الذى نسميه الآنندلسى .

◆ كيف تعرفت إلى شخصية «ليون الأفريقى» وهل كانت هناك أسباب محددة دفعت بك لكتابة سيرته ؟

● الحقيقة أننى اكتشفت هذه الشخصية بالصدفة . كنت أجرى بحثاً عن ابن بطوطة، فاكشفت هذا الرحالة الآخر الذى لم أكن أعرف اسمه وقتذاك . وما أن اكتشفت أنه عاش مراحل مختلفة من حياته فى غرناطة ثم فى فاس ثم فى القاهرة ثم فى روما حتى أثار اهتمامى إلى حد بعيد، وشعرت أنه يمثل رمزاً ما لشخصية مشرقية ومغربية، متوسطة بشكل عام، تنقلت ضمن حضارات مختلفة وانفتحت على حضارات مختلفة، وربما أنى وجدت عناصر تشابه مع أوضاع قرية منا . لا شك أن ماحدث بأهل الأندلس حدث بآخرين فى القرن الذى نعيشه الآن ؛ وهذا طبعاً أثار مشاعر معينة عندى ودفع بى إلى الاهتمام بهذه الشخصية .

◆ هل هناك معانٍ أو قيم معاصرة تشدّها، هى التى دفعت بك لتسجيل سيرة «ليون الإفريقى» ؟ بمعنى غياب قيم التسامح وغيرها من واقع اليوم، هل تكون وراء هذا العمل أو مضمره بصورة رئيسية فى ثناياها ؟

● لا شك أن غياب التسامح وتراجع اليوم هنا من العناصر التى دفعت بى للكتابة عن هذه الشخصية، طبعاً لم أحاول فى الحديث عن القرن الخامس عشر والسادس عشر، أن أزعج فى حديثى عناصر من حياتنا اليومية، لكن لا شك أن اهتمامى بهذه الفترة، وبهذه الشخصية بالذات، له علاقة بمشاهداتى الحالية . كان دائماً هناك وجود للتسامح وعدم وجود التسامح . هناك تناقض وتعايش بين الاتجاهات، سواء فى الحضارة العربية أو الحضارة الغربية . هذا لم يتبدل، وإن كانت الشخصيات والظروف قد تبدلت لكن هناك تيارات تاريخية نجد ملامحها فى الماضى والحاضر على السواء .

◆ هل تعتقد أن التسامح المضمر فى شخصية «ليون الأفريقى» لم يعد له ما ينظره فى عالم اليوم ؟ أو هل التسامح فى الماضى كان أكثر مما هو اليوم ؟

● بالإجمال، أقول: لا، مع أننا نواجه اليوم مراحل صعبة ونواجه تصرفات فيها

الكثير من الانغلاق والتزمت، إنما مما لا شك فيه أن الوضع الإجمالي هو اليوم أفضل مما كان قبل خمسة قرون، لكن الأكيد كذلك أن التطور ليس كافياً وهناك عناصر كبيرة كانت بارزة في الماضي ولا تزال موجودة، عناصر من التشنج ورفض رؤية الغير كما هو سواء أكان في الغرب أم في الشرق . هذا من جهة، ومن جهة أخرى أعتقد أن الفارق بين العالم العربي والعالم الغربي كان محدوداً، وكلما رجعنا إلى السوراء لاحظنا أن الفارق كان أكبر لمصلحة الحضارة العربية . في القرنين الخامس عشر والسادس عشر كانت الحضارة الغربية قد بدأت في تحقيق تقدم مادي يتفوق على الحضارة العربية، لكن الفارق لم يكن حاسماً آنذاك . وإذا عدنا إلى الوراء نجد أن الفارق سينقلب وتصبح الحضارة المهيمنة فكرياً وعلمياً وحضارياً هي الحضارة العربية . وقد يكون ذلك من أسباب محاولاتي العودة إلى الوراء إلى تلك الفترات لأنني أجد فيها ما يعيد الثقة بما يمكن أن تصنعه الحضارة التي أتنمي إليها .

◆ وأنت ترسم سيرة «ليون الأفريقي» ما هي حدود تدخلك في رسم هذه الشخصية بجانب الوقائع التاريخية ؟

● كل ما يتعلق بالحياة الشخصية لـ «ليون الأفريقي» تدخلت فيه من واقع خيالي، لأن المعلومات المتوفرة عن عائلته وأصدقائه، وكل هذه الجوانب الشخصية، كانت محدودة للغاية . ومن هنا برز عملي الروائي . أما كل ما يتعلق بالأحداث التاريخية، كرحلات ليون الأفريقي أو تفاصيل سقوط غرناطة أو معركة القاهرة بين العثمانيين والمماليك، كل هذا رويته من دون أي تدخل من جانبي، وقد فصلت إلى حد ما بين ما يتعلق بالحياة الشخصية واليومية لليون الأفريقي والأحداث التاريخية .

◆ إلى ماذا كنت تهدف صراحة من تدخلك الروائي أو الخيالي في رسم سيرة ليون الأفريقي ؟

● الهدف هو أولاً محاولة فهم ما كانت عقلية ونفسية ليون الأفريقي بالفعل آنذاك،

هذا هو الجانب الأول، وهو الجانب الذى أعطيته الأولوية دائماً، لأن مهمتى فى هذا النوع من العمل هى التطابق مع الواقعية التاريخية، لكن لا شك فى أن بناء أى شخصية خيالية يفترض تدخل المؤلف، وربما إدخال عناصر من وحي الخيال، أو من اهتمامات المؤلف إلى شخصيته الروائية . وقد جرى ذلك فى كتابى . لست أعتقد أننى قادر على الفصل بالتحديد بين العناصر التى هى من صلب شخصية ليون الأفريقى والعناصر التى أدخلتها أنا .

◆ هل تقول أنك «ليون» معاصر ؟

● طبعاً هناك فروقات بين المراحل والقرون، لكننى أشعر بعلاقة فكرية وجدانية مع هذه الشخصية، إننى أشعر أن نظرة «ليون الأفريقى» إلى تعدد الحضارات واستعداده للتكيف مع مختلف حضارات المتوسط، هو قريب من نظرتى أنا ومن واقعى بالفعل . فانا ولدت فى لبنان وأعيش فى فرنسا منذ أكثر من عشر سنوات، وشئت أم أبيت فانا ابن حضارتين وإن لم يكن ذلك بالدرجة نفسها . وليون الأفريقى ابن حضارتين . وأنا متوسطى وهو متوسطى، هناك قرابة معينة .

◆ موقعك ككاتب يشابه إذا موقع ليون الأفريقى ؟

● إن تشابه محدود . لم أحاول بأى شكل من الأشكال أن أكتب قصتى الذاتية . لا بد أن تدخل بالطبع عناصر ذاتية من شخصية المؤلف فى شخصية الرواية . لكن لم أكتب سيرة ذاتية على الإطلاق، وإنما حاولت أن أقيم المرحلة التى عاش فيها ليون الأفريقى وأن أقدمها للقارئ بأمانة ؛ وهذا هو هدفى الأساسى .

◆ أنت تكتب سيرة «ليون الأفريقى» المتعدد الانتماءات، ما هو موقعك ككاتب؟
صحيح قلت إنك ابن لحضارتين، لكن ألا ترى أن هذه صيغة عامة؟ أليس الكاتب فى الأساس هو ابن لحضارته الذاتية أولاً، ثم تأتى بعد ذلك مرحلة التواصل والتفاعل مع الحضارات الأخرى ؟

● من المؤكد أننى ابن حضارة . لكن أنا مقتنع اقتناعاً شديداً بأن الحياة العصرية

تفرض علينا أن لا نحصر انتماءنا . أنا أؤمن بتعدد الانتماءات . أنا أنتمى إلى قريتي وإلى بلدى وإلى العالم العربى، وأنتمى إلى المتوسط وأنتمى إلى حضارات كثيرة وإلى أفكار كثيرة وإلى تيارات كثيرة، وأنا لا أؤمن على الإطلاق بفضيلة الإنتماء الواحد .

◆ أنت هكذا لست «ليون الأفريقى» بل ليون العالمى .

● أنا أؤمن بتعدد الإنتماءات . إيمانى العميق هو أن الإنسان ينبغى أن يتخطى الانتماءات الضيقة إلى الانتماءات الأوسع . هذا اعتقادى طبعاً قد يكون ذلك ساذجاً . لا أحاول أن أطبق ذلك على الصعيد العلمى، أو على صعيد سياسى، لكن هذه هى نظرتى الشخصية .. أنا اعتقد أن كل الحضارات يمكن أن تتلقى فى أى إنسان . وأن كل إنسان يجب أن يقبل انتماءه إلى حضارات مختلفة وأحياناً متضاربة .

◆ إذا كانت الأمور تسير على هذا النحو فلم كل هذه الصراعات والأحقاد والحروب، وكيف يكون الانتماء إلى حضارات مختلفة فى مثل هذه الأجواء؟

● ما قلته هو أمنيات وليس تصويراً للواقع . أنا أقول إن الحضارات قادرة على الالتقاء، ولا أقول إنها ملتقية . وأن أى إنسان يجب أن يطمح إلى تحويل نفسه إلى جسر بين الحضارات المختلفة . وهذا على أى حال طموحى، ولا أقول على الإطلاق إن على كل إنسان أن يقوم بالفعل بهذا الدور . أنا أفرق دائماً بين وصف الواقع وبين التمنى . طبعاً ما قلته هو من باب التمنى . أما الواقع فهناك صراعات ربما تستمد أجيالاً وأجيالاً، وهذه هى سنة العالم . لكنه طموحى .. أكرر ..

◆ أن تكون جسراً بين الحضارات ...

● أن يكون أى إنسان . طبعاً أنا دورى محدود للغاية كفرد فى مرحلة معينة أحاول أن أفهم العالم الذى أعيش فيه والمرحلة التى أعيشها، وأن أحاول أن أفهم جذور هذه المرحلة تاريخياً . هذه هى حدودى، لكن ما أقوله هو أشمل من ذلك .

◆ متفق معك فى ضرورة أن يكون هناك تسامح وتفاعل مع الحضارات الأخرى، لكن لاحظ أنك جعلت طموحك، أن تكون جسراً بين الحضارات، فى صيغة يغييب

منها الموقع الذاتي الحضارى كما لا يبدو ظاهرا موقع الشخص الذى سيصير جسرا .

● أنا موافق على هذه النقطة . أعتقد بالفعل أن على الإنسان أن يفتح من موقع ما . وقد تكون الأزمة العميقة للمجتمع العربى حاليا أنه فقد ثقته بموقعه وحضارته، وما أقوم به هو مساهمة متواضعة لمحاولة إعطاء نفسى والإنسان العربى ثقة متجددة بما أنتجت حضارته، وبما يمكن تنتج فى المستقبل . شعورى أن الإنسان لا يمكن أن يفهم حضارة الآخرين، ويتفاعل وإياها إن لم يكن يثق بحضارته هو . ومشكلة العالم العربى حاليا هو أنه فقد الثقة بحضارته، وهذا يدفع به إلى نتيجتين مختلفتين : إما التخلّى عن تلك الحضارة والتنكر لها والركض وراء حضارة الآخرين، وإما الانغلاق ضمن تلك الحضارة خوفا من أن تؤثر فيها حضارة الآخرين . وهذه القوقعة تؤدى إلى الإفقار، فى رأى أن من يثق فعلا فى حضارته قادر فعلا على التفاعل وحضارات الآخرين من دون أن يفقد حضارته . . . الأمير شكيب أرسلان يقول إن مشكلتنا أننا منقسمون بين تيارين «الجاحدون والجامدون» الجاحدون هم الذين يركضون وراء حضارة الآخرين ويتخلون عن حضارتهم، والجامدون هم الذين ينغلقون على حضارتهم ويرفضون أى حضارة أخرى ويصبحون أسرى ضمن حضارتهم . وفى رأى أنه علينا أن نتخطى ذلك، أن نحافظ على علاقتنا بحضارتنا، وفى الوقت نفسه نتفاعل وحضارات الآخرين . وهذا ممكن فى رأى .

◆ وما الذى يحول بين ذلك فى تصورك ؟

● الذى يحول دون هذا هو، أولاً : عدم ثقتنا بحضارتنا . عندنا شعور بأن حضارتنا تخطأها الزمن، وبالتالي كثيرون يركضون وراء حضارات الآخرين معتبرين أن حضارتهم فقدت أية إمكانية للقيام بدور فى عالم اليوم، وهناك الخوف على حضارتنا واعتبارها دائماً حضارة مهددة وعاجزة عن مواجهة العصر، وبالتالي محكوم عليها أن تنغلق وتحاول أن تجد أى شئ ضمن ماضيها من دون أى انفتاح على الآخرين . وفى رأى أن هذا يؤدى النتيجة نفسها .

◆ هل تعتقد أن طبقة المثقفين العرب على وعى بهذا المأوق، ويريدون الانطلاق فعلاً من الواقع الحضارى اللاتى لآستهم إلى الانفتاح على الآخرين . . أم أن هذه القضية ليست واضحة بدرجة كافية- بعد- لديهم ؟

● فى رأى أن الأمراض المتفشية فى الجسم العربى هى متفشية فى المثقفين قبل سواهم . لكن المثقفين العرب فئة واسعة جدا من التيارات والمواقف . ولا يمكن أن نحدد موقفا معينا للمثقفين العرب . ليس هناك فئة واحدة لها مواقف محددة . بالطبع هناك من بين المثقفين العرب من ينطبق عليهم تعبير شكيب أرسلان عن «الجامدون» . والجاحدون» .

◆ هل هم الغالبية ؟

● لا، الغالبية تفترض أن يكون هناك استفتاء لتحديد ذلك، لكن المناخ المهيمن هو شعور بالعجز لسوء الحظ، يعبر عنه إما بالهروب نحو حضارات الآخرين وإما بالانغلاق . بينما الذين يؤمنون بأن لحضارتهم مستقبلا كما كان لهم ماض، وأنها قادرة على اعطاء شىء للحضارة العالمية اليوم وفى المستقبل، وأنها قادرة على الظهور بوجه مشرق وقادرة على منافسة حضارات أخرى والتفاعل وإياها والدخول معها أما فى نقاشات حضارية أو أعمال مشتركة فى رأى أن هذا الاتجاه لا يزال اتجاها محدوداً .

آفاق الاستغراب اليوم ؟

إلى أى مدى وصلت دعوة الاستغراب ؟ ماهى العقبات والمشاكل التى واجهتنا ؟ وما هو مصير هذه الدعوة الجديدة ؟

شارك بها :

حسن حنفى

حسان عرفاوى

أحمد المطيلى

أحمد الشيخ

هاشم صالح

جيرجوار ميرشو

مجدى عبد الحافظ

محمد سيف

علاء طاهر

محمد العلاتى

عقدت هذه الندوة فى باريس عام ١٩٩٠ . وأخترناها للنشر من ضمن عدة ندوات كان المركز قد عقدها مع عدد المفكرين الفرنسيين والعرب لأنها أقرب إلى موضوع الكتاب ولأنها توضح الجهد المبكر الذى بذله المركز فى التأسيس والدعوى إلى دراسة الغرب من منظور جديد .

تمهيد للحوار .

ربما يكون من السابق لأوانه الحديث عن حصيلة دعوة الاستغراب اليوم . فالاستغراب لم يتحول بعد إلى مبحث علمي له تراثه وأدبياته، بحيث يمكن التنقيب في هذا التراث . ومع ذلك ثمة المشروعية في الحديث عن حصيلة ما تم حتى الآن في طريق الدعوة إلى الاستغراب، بل ربما يكون هذا الحديث أكثر مشروعية . . لماذا ؟

أولاً: لأن الفكر التجديدي والتحويلي الذي يحمله الاستغراب يفترض دوماً المساءلة في كل لحظة وحتى لا يكون هناك انحراف عن الأسس والمقومات الحقيقية لمثل هذا المشروع .

ثانياً : لأن هذه المساءلة التي تفترضها عملية إجراء حصيلة ما تم في هذا الطريق قد تساعد في تبديد المخاوف التي يثيرها الحديث عن الاستغراب في الغرب كما في الشرق .

فهم هذا الأفق يطلوحي للنقاش المحاور التالية :

- استعراض عام لدعوة الاستغراب : كيف بدأت . . إلى أين وصلت .
- المخاوف التي أثارها هذا المشروع وما الذي يخيف في هذا الاستغراب ؛ وكيف يمكن تبديد هذه المخاوف، وتوضيح الوجه الحضاري لهذه الفكرة .
- كيف يتحول الاستغراب من دعوة يطلقها البعض هنا أو هناك ليصير إتجاها حضاريا جديداً، وله إسهاماته في إطلاق وتعميق أسس الحوار الحضاري الحقيقي الذي لم تبدأ بشائره بعد !!

الجلسة الأولى

جيرجوار ميرشو : لابد لنا فى البداية من الاتفاق حول المصطلحات التى نستخدمها فى حوارنا أنا أرى أن مفهوم الاستغراب غير محدد المعالم ، وقد يحمل معه التباساً لأنه قد يودى إلى اشتراق معكوس . وأقترح أن نبحث عن لفظة أخرى ، حتى لا يفهم أننا ننطلق من مركزية إسلامية مثلما انطلق الاشتراق من مركزية غربية .

أحمد الشيخ : أعتقد أننا نتفق مع جيرجوار فى ضرورة توضيح المصطلحات والمفاهيم التى نستخدمها منعاً لسوء الفهم بيننا وبين الآخرين . وقد لمست من خلال حواراتى حول هذه القضية ، ومن خلال مشاركتى فى ندوة الجامعة العربية فى باريس عن المفكرين والكتاب العرب فى المهجر (١٩٨٦)، أن مصطلح الاستغراب لا يلقى بالفعل الترحيب أو الاهتمام الملائم . بل يرى البعض أننا عندما نتحدث عن الاستغراب فإننا ذاهبون لتفعل ما فعله الاشتراق من مساوئ ومثالب ، إلى الحد الذى وصل بمنظمنى هذا الملتقى الأول للمفكرين والكتاب العرب فى المهجر ، أنهم حذفوا هذا المصطلح من البيان الختامى للمؤتمر ، وأنا أريد أن أوضح هنا أننا ، فى المركز العربى للدراسات الغربية ، لا نفهم هذا الاستغراب من منظور عدائى ، ولا يمكن أن نقوم بما قام به الاشتراق والمشترقون ، لسببين : الأول موضوعى ، والثانى ذاتى . السبب الموضوعى أننا لا نملك ، فى المرحلة الراهنة فى بلادنا ، القوة الكافية التى تسمح لنا بتحقيق الاستغراب بنفس الطريقة التى تحقق بها الاشتراق ، فإذا كان لدينا ، أو لدى البعض منا ، نوايا تهدف إلى تشويه الغرب واستعمارهم ! فإننا لا نملك القوة السياسية أو الاقتصادية أو العسكرية لتحقيق نوايانا ، وأنا هنا أنتقل إلى السبب الذاتى ، وهو أننا نحمل تراثاً من القيم الأخلاقية ، يبعدنا مسافة كبيرة عن تشوية الآخر والاعتداء عليه أو استعمارهم ، كما حدث من الجهة الأخرى فى الماضى القريب . لذلك علينا أن نضع فى اعتبارنا الخوف الذى يستثيره استخدامنا لهذا المصطلح لدى الآخرين هنا أو هناك . وأن نسعى إلى تبديد هذه المخاوف ، وإبراز لوجه الحضارى لفكره الاستغراب .

جيرجوار ميرشو : إذا افترضنا جديلاً أن مصطلح الاستغراب قد أفرغ من بعده

الايديولوجي، فما هي الموضوعات التي يمكن أن يطرحها على الصعيد المعرفي والإجرائي حتى نوضح منطلقنا ؟

أحمد الشيخ: في نطاق توضيح مصطلح الاستغراب علينا أن نميز أولاً بينه وبين مصطلح التغريب ، فالأول يتضمن دراسة واعية للغرب من خارجه ومن ثقافة أخرى لها ملامحها ومقوماتها ، بينما يتضمن التغريب نظرة تابعة للغرب ، نعرف جميعاً ملامحها وآثارها في بلادنا ، إلى الدرجة التي تسمح لي بالحديث عن وجود استشراق محلي عربي ، ونحن كثيراً ما ننتقد الاستشراق الغربي الخارجي وننسى الاستشراق الغربي المحلي . وأعتقد أن إحدى مهام الاستغراب ممارسة الحوار النقدي مع هذا الاستشراق العربي ، لأنه لا يمكن أن ينشأ الاستغراب بدون إنهاء الوضع القلق لظاهرة الاستشراق العربي ، فالاستغراب ، كما أفهمه ، يعنى النفى والقضاء على حالة الاستشراق العربي السائدة في بلادنا ، هذا ما أتصوره .

مجدي عبد الحافظ: أتفق مع جيجوار في ضرورة تحديد مصطلح الاستغراب، لذلك أتساءل : هل الاستغراب هو دراسة الغرب من منطلقات شرقية فقط ؟ ما هو السبب الذي يجعلنا ندرس الغرب ؟ ما هو الهدف من هذه الدراسة؟ الإجابة عن هذه التساؤلات ستوضح لنا الإطار الذي نخضع له . أما عن الاستشراق العربي فانا لا أستطيع أن أمارس الحجر على المستشرقين العرب .

أحمد الشيخ : أنا تحدثت عن الحوار النقدي الذي ينهى حالة الاستشراق العربي .

مجدي عبد الحافظ: لو افترضنا أن هناك علماً له أصوله وأصبح يقف على أرضية صلبة ، فمن الطبيعي أن يكون له مردوده النظري والفكري على كل المستويات، وبالتالي ستكون المعركة ضد المستشرقين العرب والغرب نتائجها لمن يقف على أرض صلبة ويكون له مردود سياسى فى الساحة . هذا ما أريد قوله .

محمد العلاني : نحن نتحدث بصورة عامة عن الغرب . وننسى أن العلاقة مع الغرب اختلفت تماماً فى فترة قبل الاستعمار عن فترة الاستعمار عن فترة ما بعد الاستعمار، ونعلم جميعاً الدور الذى لعبه الاستشراق فى التمهيد للاستعمار ، ولكنى أتساءل

وأفترض جدلاً لو لم يحدث للاستعمار هل يكون لاستشراق نفس الدور .

مجدى عبد الحافظ: طبعاً لم يكن ليوجد استشراق . لكنى أطور السؤال وأقول : هل للاستشراق وجه سلبى فقط ، أم أنه أتاح أن ننظر لتراثنا عبر وجهة نظر أخرى ، لا أريد أن نحمل الاستشراق كل مشاكلنا وكل ما هو سلبى ، لا بد أن نعترف بالجانب الإيجابى للاستشراق وأن نحجمه ونضعه فى حجمه الطبيعى .

أحمد الشيخ: تساؤل محمد العلانى الافتراضى : إذا لم يكن هناك استعمار هل كان للاستشراق الدور ذاته ؟ فى تقديري هو تساؤل غير واضح ، وإن كنت أرغب فى تطويره وربطه بقضية الاستغراب ليصير كالتالى : إذا لم تكن القوة لاستعمار الغرب فهل معنى ذلك أننا لا نستطيع تأسيس الاستغراب الحضارى الذى ندعو له ؟

مجدى عبد الحافظ: هذا يعود بنا إلى التساؤل : لماذا ندرس الغرب ؟ ما هو السبب أو الهدف من الاستغراب ؟ وبالتالي نعرف إذا كانت هناك أشياء فى اللاوعى تضغط علينا وتجعلنا نفكر فى الاستغراب ، وبالتالي لو اكتشفنا هذه التراكمات الموجودة فى وعينا أو لواعينا لأدرنا لماذا ندرس الغرب . أتصور أن المشكلة هى أن الغرب حقق تقدماً مذهلاً ونحن لا نزال فى حجمنا نخطو محلك سر ، هذا سبب رئيسى يدفعنا لدراسة الغرب ، بالإضافة إلى أن حضارات الغرب لها مردودات فكرية جعلت البعض يرددها فى الداخل دون أن يستوعب التراكمات الثقافية الحضارية الموجودة لديه . شئ ثالث يدفعنا إلى دراسة الغرب هو إخفاق الحركات القومية التحريرية . أتصور أننا نعيش فى مرحلة فراغ تاريخى وسياسى وبالتالي دراسة الغرب من وجهة نظر عربية شرقية علينا ، فى تصورى - أن لا ندرس الغرب بشكل أيديولوجى ، وأن لا نسقط عقُداً على الغرب ، بل نطلق من منطلق تفهم يسعى لإدراك كيف قامت هذه الحضارة بالتعامل مع واقعها التاريخى لاستفيد من هذه التجربة فى بلادنا ، وبالتالي نقدم إضافة فى دراستنا للغرب .

أحمد المطيلى: نتساءل لماذا ندرس الغرب ؟ وأنا أقول : لماذا لا نطرح تساؤلات أخرى ؟ يمكن أن نتساءل لماذا ندرس التاريخ أو الأدب أو الجغرافيا ؟ السؤال حول الهدف يمكن أن يطرح على أى شئ يقوم الإنسان بدراسته . بالنسبة لنا -نحن

المسلمين- ليست هذه هي المرة الأولى التي ندرس فيها الآخر ونتعرف عليه بطريقة معينة، نحن نعرف مثلاً أن أفضل وثيقة عن الهند كتبها البيروني ، كذلك ابن بطوطة والرحالة المسلمون الذين تركوا وثائق مهمة جداً عن مجتمعات مغايرة لنا . لكنى أعود إلى مسألة تحديد المصطلح، وأبدأ من اللغة، لأن كلمة استغراب لغوياً قد تشير معنى الغرابة لدى البعض فهل دراسة الآخر تثير الغرابة ؟ اصطلاحياً . . الاستغراب لا يعنى الغرابة بل يشير إلى الغرب والرغبة في التعرف عليه وعلى الأشياء التي لا يعرفها الإنسان ويريد معرفتها بصورة أقرب إلى الموضوعية ، وربما في هذا إجابة على السؤال : لماذا ندرس الغرب .

مجدى عبد الحافظ: هناك مشروعية في التساؤل لماذا ندرس الغرب الآن؟ البيروني درس الغرب لأن الواقع التاريخي في عصره قد وصل إلى فكرة مؤداها أنه قد نضبت الحكمة اليونانية، وبالتالي لايد من البحث عن الحكمة في أماكن أخرى ، في الشرق ، الهند . فالواقع التاريخي هو الذي فرض ذلك من خلال ضرورة تاريخية . ونحن ندرس الغرب اليوم علينا أن نكتشف هذه الضرورة وأن نحللها في وعينا وفي لاوعينا .

أحمد المطيلي: هذا يفترض أن الاستغراب موجود فعلاً. هذا قد يأتي فيما بعد .

أحمد الشيخ: تساؤل مجدى : لماذا ندرس الغرب اليوم ؟ أعتقد أنه يفتح آفاقاً رحبة للحوار . لكنى أختلف مع حسن حنفي في مقالة نشرها مؤخراً يحكى فيها عن الاستغراب بصورة غير محددة زمنياً ، بمعنى أنه يتكلم عن فترة مؤتمر باندونج في عام ١٩٥٥ وبروز روح جديدة في العالم الثالث بينما نحن لا نعيش هذه الفترة الآن، هذه الفترة من تاريخ العالم الثالث تتراجع، بل لم تعد موجودة ، حركات التحرر في حالة أفول . لذلك لا أفهم الربط بين الاستغراب وما لم يعد موجوداً الآن . في اعتقادي أن فترة باندونج كانت أكثر الفترات ملاءمة لبروز ما نسميه اليوم بالاستغراب، لكن أحدا لم يتحدث عن ذلك في هذه الفترة التي اتسمت بالتحرر السياسى وبالتبعية الفكرية في آن ، وكان من الممكن أن يظهر هذا الاستغراب لو أن قيادات هذه الفترة ونخبها قد أدركت أن التحرر السياسى لا ينفصل عن التحرر الثقافى . وهذا الواقع الذى نعيشه اليوم يطرح

علينا التفكير فى المعادلة الصعبة، أى الدعوة إلى الاستغراب، ونحن نعيش حالة من التراجع والخواء والفراغ . هل تكون هناك ضرورة تاريخية؟ بمعنى أننا نعيش فى فراغ وأنه لا مفر من دراسة الآخر الذى هو فى مرحلة أعلى وأرقى، أم أن الاستغراب لا يمكن أن ينشأ إلا فى حالة ازدهار وقوة ومد وطنى وقومى وحضارى ؟

جيرجوار ميرشو : نعم ، بعد الخمسينيات ، كنا نتصور الغرب فى بعده السياسى فقط، ثم ظهر لنا أن الاستقلال السياسى كان وهماً . وأن عمليات الإستتاع قد زادت أكثر مما مضى . الاستغراب الآن قد يأتى بعق آخر ، وفى مرحلة أكثر نضجاً بعد ما اتضح أن الغرب لم يكن استعماراً عسكرياً وسياسياً، إنما كان استعماراً ثقافياً، والاستعمار الثقافى كان حتماً متداخلاً وممهداً للاستعمارات الأخرى . فى البداية كانت هناك شعارات تقول : إفصلوا بين السياسى والعسكرى من جهة، والثقافى من جهة أخرى . وكانت هناك شعارات أخرى تقول : كفانا حديث عن الاستشراق لأنه مرحلة استعمارية وانتهت ، وأن الفلسفة الغربية ، غير الاستشراق ، ولابد من الاقبال عليها . وأنا أرى أن الاستشراق لم يخلق من عبث ، وأن الفكر الأوروبى ذاته قد مهد لنشوء الاستشراق فى القرن التاسع عشر ، مثلاً مفهوم الدولة عند هيجل ، ظهر منه أن الدولة لا يمكن أن تعيش إذا لم تكسر البنيان الاجتماعية لدى الشعوب الأخرى حتى تقوم هذه الدولة ويتم التوازن فى الداخل . كان التوجه فى الأساس نحو تدمير الآخر من أجل إحلال توازن فى الداخل ، أنا أدفع بالقضايا لأبعد من الاستشراق ، وأذهب نحو المفاهيم الفلسفية الغربية ذاتها التى مهدت لهذا الاستشراق .

محمد العلانى : هل الاستشراق جزء مكون لروح الحضارة الغربية ؟! هناك من يرى أن الروح العامة للفكر الغربى هى روح صراعية ، صراع مع الطبيعة ، صراع مع الآخر ، صراع مع الآلهة . المنطق الصراعى يسيطر على هذا الفكر ، وبالتالي قد يكون الاستشراق من المكونات الرئيسية والكبرى للفكر الغربى ، وليس كما كانوا يقولون لنا إنه مرحلة عابرة وانتهت مع المرحلة الاستعمارية .

حسن حنفى : إستمتعت إليكم لكى أعرف أين أنا، أيضاً وأين أنتم ، لكن نحن ندور

فى نفس الأشياء . فىما ىتعلق بنحت اللفظ فى حقیقة الأمر ، لا ىهم اللفظ بقدر ما ىهم المضمون ذاته ، ألم ىأت الألوان للذات العربیة أن تصبح أيضاً ذاتا عارفة . أحد مظاهر التحرر بالفعل ىظل هو : أنا أفكر ، إذن فأنا موجود . ىعنى نضع الذات نفسها باعتبارها الذات العارفة مهیما قیل علینا من أننا موضوع دراسة . التحول الجدید أن تضع الذات نفسها كذات عارفة ، هذا أمر ىختلف عن أن نظل موضوعاً للدراسة . حركة التحرر العربی تمت حتى الآن على أساس تحریر الأوطان من الاحتلال العسكرى ، ثم التحرر الاقتصادى حتى ىكون الاقتصاد غیر تابع ، وربما أيضاً تحریر مناهج التعلیم والتربیة والثقافة . وكان كل ذلك فى مستويات متعددة ، تنجح هنا أو تعثر هناك ، حتى الآن لم تحدث علمیة التحرر على المستوى الذى ىعنى العلاقة بین الذات والموضوع ، مهمة علم الاستغراب ، أن أنحول إلى ذات وأن لا أضع نفسى باستمرار كموضوع للدراسة التكنولوجیة والانتربولوجیة ، كل هذه العلوم الغربیة ماذا تفعل ؟ تذهب إلى العالم الإسلامى والعربى ثم تتحدث عن الخیال العربى ، المخیال ... الخ ، أنا زهقت من أن أكون باستمرار موضوع دراسة ... لمن ؟ لباحث آخر ، لكن حتى الآن لم تتحول هذه المادة العلمیة كجزء من حركة التحرر ، كذات عارفة ... أقول مازلنا نحن نقوم برد فعل عن طریق بیان ما ىقوله الآخرون فىنا ، وأنه معاد فى كذا وكذا ... وأن الأحكام والصور التى بناها الاستشراق فىنا تحولها بواعث كذا وكذا ، وتحدث عن العنصریة والهیمنة الغربیة وسوء الفهم والعقلیة المسیحیة .. وكلها طرق دفاعیة ، أما الاستغراب فوظیفته أن نتقل من مرحلة الدفاع ، لیس إلى مرحلة الهجوم ، لكن على الأقل نقل المعركة إلى أرض الخصوم . أنا سأحاول أن أتحرر قدر الإمکان من كونى موضوعاً للدراسة ، وأقول للغریبین أنتم لستم ذاتا عارفة إلى الأبد ، ویمكن أن تكونوا موضوع دراسة ، وبالتالى أصل إلى ما ىسمى فى الغرب ، فى العلوم الإنسانیة ، الوعى التاریخى الأوروبى ، الوعى الفكرى الأوروبى ، ولا أرى أن أقول العقلیة الأوروبیة ، حتى لا أقع فىما وقعوا فىه هم من حدیث عن العقلیة العربیة ، ولكن أحاول دراسة ما ىسمى بالوعى التاریخى الأوروبى ، وأدرس تطور هذا الوعى ، خاصة أنه أصبح موضوعاً للدراسة عندهم- شبنجلر ، هسرل ، توینبی- وبدأ الناس یتكلمون عن أزمة العلوم

الأوروبية، أزمة الوعي الأوروبي (بول آزار) أزمة الضمير الأوروبي ، أزمة الأخلاق .

أحمد الشيخ : تقول بدأ الناس يتكلمون . بينما هذا أمر قديم .

حسن حنفى : أريد القول إن هذا أصبح جزءاً من التراث الغربى ذاته . . وظيفة علم الاستغراب تحرير الذات العربية ، وجعلها تنظر بدون عدسات ، والانتقال بالفكر العربى المعاصر من مرحلة الترجمة والنقل والشرح والتلخيص إلى مرحلة الإبداع والخلق والاستقلال الثقافى وإكمال حركة التحرر العربى بالتحرر الثقافى والتحرر فى مجال البحث العلمى وعلم الاستغراب وظيفته إعادة الغرب إلى تاريخيته ، وهذه نظرة ماركسية ، فلا يوجد وعى إلا وهو وعى تاريخى ، وبالتالي وضع الغرب فى إطاره الطبيعى ، وفى حدوده الجغرافية والتاريخية الزمانية . وأستطيع أن أصف تماماً كيف نشأ الوعى الأوروبى وكيف تطوّر وما هى مراحل وبعائه ، وبدايته ونهايته ، كما أستطيع أن أصف بنيتّه ، لا أريد أن أقول عقلية ، ومصير هذا الوعى وكيف يتقابل أو يتوازى مع وعى آخر فى الهند والصين أو المنطقة العربية . وفى رأى سيؤدى علم الاستغراب رسالة هامة فيما يتعلق بالبحث فى العالم العربى والإسلامى ، فيما يتعلق كذلك باحترام الآخر لنا . إنه تحول تاريخى . لن نفع فى أخطاء الاستشراق ، بل سنؤدى خدمة لهم عندما نقلل من عنصريتهم ومركزيتهم . وسنجعل أطر النظر والحكم متعددة ، ومراكز الثقافة متعددة حتى ينشأ حوار حقيقى بين الحضارات . لكن إذا ظلت كفتى الميزان غير متوازنتين فلن يحدث أى شئ من ذلك . لكن لو تعدلت الصورة . هنا يبدأ الحوار الحقيقى والتحرر الحقيقى .

مجدى عبد الحافظ : ما تقوله صحيح تماماً على الجانب الثقافى، لكن هناك الجانب الآخر، فى العلوم الطبيعية . وهذا هو العامل الأساسى الذى يجعل العامل الثقافى الفكرى يتأخر .

حسن حنفى : خذ مثلاً علوم الذرة ، وهى من العلوم السرية التى لا تعطىها حضارة إلى أخرى، ومع ذلك الصين أبدعت علوماً ذرية ، الباكستان كذلك ، حتى العلوم الطبيعية، نظراً لمخاطر الذرة وتطبيقاتها النووية يمكن أن تبدع علومها .

مجدى عبد الحافظ: تعادل الميزان لن يتم ما لم تحدث طفرة أيضا على المستوى العلمى، لكن إذا افترضت أننا وصلنا على المستوى الشفافى النظرى، إلى علم الاستغراب، الذى يدرس الغرب ويضعه فى حجمه الجغرافى والتاريخى، لكن إذا لم نصل أيضاً إلى التقدم الغربى فى العلوم العلمية فسوف تظل الكفة الغربية راجحة .

حسن حنفى: نحن نعلم أن هناك علماء عرباً أبدعوا وذهبوا يخدمون عواصم المركز، وعندما يعودون إلى بلادهم يحاصرون .

مجدى عبد الحافظ: يسبب الأنظمة، بما فيها الأنظمة الدراسية التى تخنق الإبداع.

حسن حنفى: أنظمة قاهرة تضغط بالطبع، فليس فى مصلحة الأنظمة الإبداع، الذى يعنى التفكير بحرية قد تقضى على هذه النظم . ويمكنك أن تجد ٧٠ ٪ من الأطباء فى إنجلترا من العرب والهنود والباكستانيين . ويمكنك أن تجد ٣٠ ٪ من الجسم الطبى العلمى فى أمريكا من العرب . . . لكن الوعى الحضارى أهم بكثير .

محمد العلانى: المنتجات الحضارية تأتى بعد الإدارة الحضارية .

أحمد الشيخ: يبدو لى أن الحديث عن الاستغراب بوصفه علماً ليس أمراً دقيقاً فيما أتصور، الاستغراب حركة حضارية، عملية حضارية، واللاحظ أن حسن حنفى يسرف كثيراً فى استخدام كلمة علم، فهو أحياناً يتحدث عن علم الذاتية، وعلم . . .

حسن حنفى: القدماء كانوا يتحدثون عن علم الحديث، علم النزول . . .

أحمد الشيخ: هذا فيما مضى، لكن الآن، هل يجوز أن نطلق تسميته علم، وفى الواقع الحديث يدور حول حركة حضارية تقوم بشد الانتباه إلى أشياء، وتجاهل أشياء أخرى .

حسن حنفى: تقول الآن لكن عند من ؟

أحمد الشيخ: عند إجماع الباحثين فى الشرق أو الغرب .

حسن حنفى: أنت ضحية معنى ضيق للعلم، وهو العلم الطبيعى .

أحمد الشيخ: بل أتحدث عن العلم فى العلوم الإنسانية .

حسن حنفى: وماذا عن الأنثروبولوجيا الشقافية التى وظيفتها دراسة الشفافيات والحضارات والانتقال من حضارة إلى حضارة . نحن نوسع نطاق مفهوم العلم، وأنت تضيق مفهوم العلم . ما العمل ؟

أحمد الشيخ : ما أبحث عنه هو تعبير ملائم ومعبر بدقة عن مشروع الاستغراب كعملية حضارية .

حسن حنفى: العلم هو نوع من النظام المعرفى ولا يعنى بالضرورة أن يكون بمعنى العلم الطبيعى أو الرياضى، بل هو أى جهد بشرى به نوع من تنسيق المعرفة، من هذا المنظور علم الناسخ والمنسوخ هو علم له قواعد يتبعها العقل .

أحمد الشيخ : أنت تستخدم معنى قديماً لكلمة العلم ، وهو غير المتعارف عليه الآن، عندما تقال كلمة علم فى العلوم الإنسانية، وليس فقط فى العلوم الطبيعية .

أحمد المطيلى : يبدو لى أن حسن حنفى لا يميز بوضوح تام بين ما هو علمى وما هو أيديولوجى ، ليست هناك حدود ، وبالتالي يمكن أن نقول الشيء وضده، ولا يحدث أى شىء بالنسبة للحكم الذى تقول به، طالما لا يوجد تناقض بين الأشياء فى حديثك عن الاستغراب الآن . لا أعراف حدوده كعلم، وحدوده كعملية أيديولوجية لا أفهم الحدود الفاصلة بين العلم والأيديولوجيا فى خطابك الآن . ويبدو لى أن المفكر، فى حسن حنفى يتكلم قليلاً ثم يصمت بعد ذلك، ليظهر حسن حنفى المذهبى .

حسن حنفى: التمييز بين العلم والأيديولوجيا ، ما هو برهانه ؟

أحمد المطيلى : العلم يمكن أن يصل إليه أكبر عدد ممكن من الناس سواء داخل حضارة بعينها أو خارجها ، بينما الأيديولوجيا ليست بالضرورة موضع اتفاق حتى داخل مجموعة معينة من الناس .

حسن حنفى: وماذا تقول عن علم التصوف ؟

أحمد المطيلى : التصوف يقوم على تجربة ذاتية ، داخلية ، روحية .

حسن حنفى: لكن مع ذلك استخدمت كلمة علوم التصوف .

أحمد المطيلي : من الذى استخدمها ؟

حسن حنفى: أخشى أن تكون هذه التفرقة بين العلم والأيدولوجيا ناتجة من الأدبيات الماركسية، التى شاعت فى ثقافتنا المعاصرة . . هذه التفرقة ناتجة من الأدبيات الغربية التى شاعت بيننا، والمقصود منها الآتى : إذا أراد أحد أن يتكلم، وأن يجعل المسافة غير كبيرة بين العلم والوطن، وأن يجعل من همومه كمواطن هو كهوممه كعالم، يقال له على الفور أنت تخلط بين العلم والأيدولوجيا.

أحمد الشيخ : وجهة النظر التى يطرحها حسن حنفى أقل ما يقال بشأنها هو أنها خلافية وليست موضع اتفاق ، كما لا نعرف منها متى يكون العالم عالماً، ومتى يكون المواطن مواطناً؟ وأغلب الظن أنها طريقة أو ذريعة تسمح لصاحبها بأن يقول الشيء ونقيضه فى آن واحد ، ثم لماذا أنت متشبه بكلمة علم لوصف عملية حضارية هى الاستغراب ، وأنت تعلم أن الاستخدام القديم لكلمة علم لم يعد مستساغاً اليوم . وتضرب أمثلة بعلوم التصوف، وأنت تعلم جيداً أن التصوف لا يمكن أن يكون علماً لأن كل متصوف يصل إلى الحقيقة عن طريقه الذاتى الخاص . فلماذا تصر على استخدام تسمية قديمة لموضوع حديث ؟

مجدى عبد الحافظ: اليوم العلم أصبح محدداً وله شروط ، وإذا كان العلم، بمعناه القديم الواسع كما هو موجود فى التراث العربى الإسلامى، كان يطلق على التصوف . هل معنى ذلك بالضرورة أن استخدم المعنى القديم للعلم وأرفض تعبيراً آخر قد يتيح أن أدرس بشكل أكثر دقة . . ما هو المعيار؟

حسن حنفى: عندما نقول علم النفس ، علم الاجتماع، هل تظنون أن هذه العلوم خالية من الأيدولوجيا ؟ بل كذلك العلوم الطبيعية والرياضية، أعتقدون أنها خالية من . . .

أحمد المطيلي : لكن فى هذه العلوم الطبيعية قد تأتى الأيدولوجيا من الخارج أكثر مما تأتى من الداخل ، على الأقل فى الفيزياء هناك علماء ومؤمنون وعلماء محلدون .

حسن حنفى: تصور أينشتاين للعالم هو تصور إيدولوجى ، تصورات نيوتن وكبلر

للعالم هي تصورات أيديولوجية ، وخلافنا في الدرجة وليس في النوع .

أحمد المطيلي : بالطبع .

أحمد الشيخ : نحن نعرف أن علوم الإنسان ، كما نشأت في الغرب الحديث ، لا يمكن فصلها عن جذورها الثقافية والحضارية والأيديولوجية . لكن الخلاف مع حسن حنفي يعود إلى إصراره على استخدام كلمة علم بمعناها القديم .

حسن حنفي : فيكون سمي فلسفة التاريخ بالعلم الجديد ، اذهب واعترض عليه ، وكذلك جاليلو .

أحمد الشيخ : لا أمانع في ذلك ، لماذا أنت متأثر بهم ؟ هم ليسوا مراجع أبدية . ألا تقول بذلك في أماكن أخرى ؟!

حسن حنفي : في الوقت الذي تبنى فيه الحضارة نفسها ، وتتسلق من مرحلة إلى أخرى ، نجد العالم أو المفكر أو فيلسوف التاريخ ، يستخدم لفظة علم ، لأنه لكي ينقل مجتمعه من مرحلة إلى مرحلة ، عليه أن يقدم نسقا فكريا مذهبيا فيستخدم كلمة علم ، أنا أرى أنكم خائفون من استخدام كلمة علم وكأنها كبيرة عليكم ، وأنكم أقل من روح العلم ، وأنا لا أحب هذا لديكم .

أحمد الشيخ : أرى أن السياسي أو الأيديولوجي هو الذي ينطق الآن في حسن حنفي . وفي الحقيقة رفضنا لاستخدام كلمة علم لوصف عملية الاستغراب ، لأننا نعلم أنه لا يمكن له ولن يكون أبداً علما ، وإنما حركة حضارية تتضمن صراعات وتوترات ولقاءات وليست علما ، ونحن لا نخاف من أحد ، ولدينا مشروع طموح ، وهذا يفرض علينا أن نكون أمناء مع أنفسنا ومع الآخرين . فمن اليسير أن نطلق على نشاطنا مسميات كبيرة ، دون أن يكون لها ما يبررها في الواقع العملي .

حسن حنفي : لماذا تسمى الانتولوجيا علما ولا تسمى الاستغراب علما ؟

أحمد الشيخ : أنا لم أطلق أي تسمية

محمد العلاني : قلنا منذ قليل إن العلم يتفق حوله أكثر الناس بينما الأيديولوجيا لا

تحصل على هذا الإجماع . وهذا الكلام لا ينطبق على علوم الإنسان ، لأنه لا يوجد اتفاق بشأنها والجانب الأيديولوجي واضح تماماً . ولا يوجد علم إنساني حوله إجماع تام . أحمد الشيخ يقول إن الاستغراب ليس علماً . . وماذا عن الاستشراق ؟!

أحمد الشيخ : لم أقل إن الاستشراق علم ، وإنما هو مجالات صراعية في حقول مختلفة . لا يوجد علم واحد للاستشراق ، وإنما طرق من البحث والرؤية في مجالات مختلفة ، فمسح الأراضي استشراق ، دراسة لغات حضارات أخرى استشراق ، الاستشراق أفق من النظر والرؤية .

محمد العلاني : الشيء الواضح أنه لا يمكن الحكم على شيء بأنه سيكون علماً أم لا ، وحسن حنفى قال إن الاستغراب عملية في إطار تكوين .

أحمد الشيخ : لكنه أطلق عليها صفة علم . وإذا كنا على اتفاق في أن الاستغراب حركة أو عملية حضارية ، فمن الصعب الحديث عن علم بالمعنى المعاصر للكلمة . هذا كل ما أردت قوله في هذا الشأن .

حسن حنفى : ليس فقط عملية حضارية ، وإنما هناك أيضاً قواعد حضارية يمكن أن تصل إلى درجة العلم المحكم ، الذي له قواعد ومنهج ونتائج وغايات . والقول بأن الاستشراق ليس علماً ، فإن هذا غير صحيح ، الاستشراق ميدان للبحث .

أحمد الشيخ : الاستغراب كذلك ميدان للبحث .

مجدي عبد الحافظ : علم أو غير علم ، ربما يعتبر هذا الحديث سابقاً لأوانه .

حسن حنفى : ما هو معيار العلم ؟ هو ميدان للبحث ، له موضوعه ، وله منهجه . وهذا ينطبق على الاستغراب .

أحمد المطيلي : حسن حنفى قبل قليل كان يشكك في عملية العلوم الإنسانية ويبرز جوانبها الأيديولوجية والآن يصف الاستغراب بأنه علم ، لا أفهم هذا التناقض .

حسن حنفى : لا داعي للجدل .

أحمد المطيلي : أنا لا أمارس الجدل ، أنت الذي تقول الشيء ونقيضه في الوقت نفسه

هذا هو الجدل .

حسن حنفى: الجدل هو محاولة للانتصار على الخصوم . عندما أقول أن علم النفس وعلم الاجتماع ليسا علمين ، إنما لإثبات الجانب الأيديولوجى فيهما ، أما لو سلمتم بأنهما علمان فذلك لأن لها موضوع ومنهجاً والاستغراب له موضوع هو الوعى الأوروبى وله منهج وله نتائج تستطيع أن تتحقق منها فى كتابات الأوربيين أنفسهم ، وبالتالي مادتم قد سلمتم بأن العلوم الإنسانية هى علوم ، فالاستغراب كذلك هو علم أيضا . وهو ، من جهة أخرى ، رد فعل على التغريب ، هو أن نتخلص من هذا الشعبان الداخلى وإخراجه حتى تراه وتصفه وتقضى عليه . نحن الآن بعد التحرر من الاستعمار فى موقف أفضل ، كى نكمل حركة التحرر ، وأن نحول أنفسنا من موضوع إلى ذات .

محمد سيف : التحرر من الاستعمار والتبعية يضع المفكرين باستمرار فى موقع غير مستقل طوال الوقت ، فدراسة الآخر لدينا من موقع القوة والازدهار كما كان الأمر أيام العباسيين وفى فترة الطهطاوى ، غير ما هو عليه الواقع اليوم . الوضع مختلف الآن . لابد أن نضع شرطة على الاستغراب ، لأننا نتعامل مع موضوع لا نملكه . لأن الاستغراب أولاً هو دراسة علوم الغرب ومواطن القوة عندهم ، وهذه ليست فى متناول أيدينا .

حسن حنفى: وماذا نفعل ؟

أحمد الشيخ : لابد من أمانة ووصف دقيق لميزان القوة ، كما هو قائم وليس كما نتخيله ، حتى نعرف ماذا نفعل .

محمد سيف : العلوم الآن فى يد الغرب فى المرحلة الراهنة . لا جدال أننا ساهمنا فى الماضى ، لكن الآن ماذا نحتاج من الغرب؟ الضمير ؟ استخدام العقل ؟ الرومانتيكية ؟ العلوم والتكنولوجيا ؟ السؤال الآن : كيف نمتلك القوة؟ ماذا لدينا لكى نمتلكها ؛ هذا التساؤل لابد أن يستنفر كل طاقات الفكر لدينا؟ فى ظل هذه «المعصرة» . أى بُعد سيأخذ الاستغراب الذى نتحدث عنه .

حسن حنفى: بالضبط سيأخذ البعد الذى نتحدث عنه الآن . ماذا نحتاج اليوم ؟ نحن لا

نحتاج إلى شيء ، حتى العلم الطبيعي ، الموضوع في القمة ، هو قائم على رؤى ونماذج ، وهذه أزمة ضخمة بصرف النظر عن تطبيق أن العلم الطبيعي ، ثم إن العلم الطبيعي يبنى في كل مرحلة وكل حضارة . اليابان نقلت من الغرب وأنشأت علمها الطبيعي ، وكذلك الصين والهند .

محمد سيف : لا يوجد إبداع ياباني . اليابان استخدمت قوانين غربية . كان هناك إبداع عربي فيما مضى عندما قدمنا علم الجبر وأشياء أخرى في العلوم الطبيعية . لكن لا يوجد إبداع ياباني . اليابان صنعة الغرب . اليابان لم تبذل شيئاً على صعيد العلم ، الإبداع هو تجانس الفكر العلمي والعمل . اليابان حتى السنة الماضية كانت لا تملك سوى ثلاث صحف يومية !

أحمد المطيلي : خرجنا مرتين عن موضوع الاستغراب .

حسن حنفي : وجلسنا نتحاور في نقطة واحدة ، هل الاستغراب علم أم لا ؟

أحمد المطيلي : الاستغراب علم ، أم غير علم ، وقضية الإبداع ، يطرحان قضايا على قدر كبير من الأهمية ، وربما ليس عرضاً لإرتباط الاثنين . . . الإبداع قضية مثارة في كل الأوساط ، وهناك اتفاق على أنه لا يوجد لدينا إبداع في الفترة الراهنة ، وسؤالي الآن لحسن حنفي ، كيف يمكن أن نصل فعلاً إلى مرحلة الإبداع ، ليس على مستوى الفرد ، بل على المستوى العام ؟

حسن حنفي : بعد أن يصدر كتابي "مقدمة في علم الاستغراب" قريباً سأتفرغ لكتابة "من النقل إلى الإبداع" وهو محاولة لإعادة علوم الحكمة . في هذا الكتاب أخذت النموذج القديم ، وكيف تعرف القدماء على الآخر (اليونان ، الهند ، الفرس) ، وما هي الترجمات التي تمت بكل أنواعها ؟ وما هو التلخيص ؟ وما هو الشرح ؟ ثم كيف بدأ التأليف بعد مراحل الشرح والتلخيص وأنواع التأليف ، وأنا أدرس النموذج القديم ، في ذهني علاقتنا بالغرب . وهذه العلاقة كانت هي الفكرة الموجهة لي .

أحمد المطيلي : ما هي النظرية التي يمكن أن تنبثق بعد هذا الاستقراء التاريخي

الطويل . باعتباره يشمل مرحلة تاريخية كبيرة من تاريخنا القديم ؟

حسن حنفى: رد على نظرية أننا لم نبدع قديماً ، وبما أننا كذلك فلن نستطيع الإبداع حديثاً ، وأنا شرحنا وعلقنا ولخصنا فقط . . .

أحمد المطيلي : أنا أريد أن نخرج من مرحلة الدفاع التي كنت تتحدث عنها ، أننا فعلنا كذا ، وأنا أبدعنا كذا . وذلك حتى نبدع فعلاً . كيف ننقل من مرحلة الدفاع إلى مرحلة البناء (الهجوم) .

حسن حنفى: أقول إذاً ، هل سنستمر فى النقل والترجمة والتلخيص والعرض ؟ ومن الذى يبدأ بدور مشابه كدور الكندى ويبدأ التأليف ؟ هل نعيش الآن نفس الظروف ؟ هل الطريق ممهد أمام جيل جديد من الباحثين يمارس التأليف والإبداع ، بدلاً من قراءة الواقع من عدسات غير ملائمة . لقد آن الأوان أمام البحث العربى لكى يقوم بدور التنظير المباشر للواقع .

أحمد المطيلي : هل درستك فى طريق الإنجاز ؟

حسن حنفى: «من النقل إلى الإبداع» أنجزته فى طوكيو على مدار ثلاث سنوات ويحتاج إلى صياغة أخرى .

أحمد المطيلي : هناك شىء يصعب فهمه فى حديثك عن قراءتك لهذه المرحلة . أنت تطلب إلقاء العمدسات نهائياً ، وتحدث عن الاستغراب ، وتنسى أن الإبداع ينبغى أن يستوعب ما قبله . أشعر فى الحقيقة بوجود عدم انسجام فى أطروحاتك . وهو أمر يسبب لى قلقاً .

أحمد الشيخ : إنه قلق مشروع .

الجلسة الثانية

أحمد الشيخ: كيف بدأ التفكير فى مسألة الاستغراب ؟ أعتقد أن طرح هذا السؤال لا يتضمن فقط أبعاداً تاريخية وأكاديمية، وإنما هو فى صلب دعوة الاستغراب ذاتها ، فمعرفة البدايات الأولى وبواعثها قد توضح، بصورة جلية، المسار اللاحق للفكرة ، وما قد يشهده هذا المسار من تقدم أو تأخر ، وكذلك إذا كانت الفكرة دعوة شخصية أم تعبر عن ضرورة موضوعية ؟

علاء طاهر: مصطلح الاستغراب بمعنى دراسة الغرب من قبل الشرقيين، مثلما كان الاستشراق هو دراسة الشرق من قبل غربيين، لم يكن هذا المصطلح ، موجوداً حتى الآن، والذين يتحدثون عن هذه القضية إلى ملاحظة حسن حنفى السبعينيات عن هذه المسألة ، لكنها لم تطرح أبعد من هذه الإشارة فى حدود ما أعلم . وأسأل حسن حنفى : هل كانت هناك محاولات معروفة فى هذا الشأن ؟

حسن حنفى: هناك فرق بين المصطلح والمادة . من حيث المصطلح ربما ما تقوله صحيح ، لكن من حيث المادة، أى كيف يرى اللاغربيون الغرب، هذا موجود عبر التاريخ منذ الطهطاوى فى تخليص الإبريز فى تلخيص باريس . وعبد الله فكرى فى كشف المخفى عن فنون أوروبا ، وكذلك ما كتبه فارس الشدياق وعيسى بن هشام وابن أبى ضياء ... منذ عصر النهضة، والغرب أصبح مرآة لنا، إما نكشف فيها أنفسنا ، أو نحن مرآة للغرب يرى فيها نفسه . الموضوع، إذاً، الكل يكتب فيه، فى الأدب ، فى القصة ، فى الشعر لكن دون أن يوضع تحت مفهوم أو مصطلح .. أقول، إذاً، التفكير فى هذا الموضوع قديم ومحاولة إحكامه ووضع مناهج وافتراسات ونماذج للتطبيق تتجاوز إعلان النوايا، مثلاً أنور عبد الملك وسمير أمين ، الثنية موجودة والفكرة الرئيسية موجودة والهدف موجود كإحدى علامات التحرر، وأن الذات لا تستطيع التحرر إلا إذا تحولت من موضوع للدراسة إلى ذات عارفة ، لكن إلى الآن لم نخرج من مستوى الممارسات إلى مستوى العلم المؤصل .

أحمد المطيلي: فى نفس هذا السياق، هل هناك تاريخ لظهور هذه الكلمة طوال قرنين ؟

حسن حنفى: الكلمة فيما أعلم لا .

أحمد المطيلي: متى استخدمت لأول مرة ؟ ومن الذى استخدمها ؟

حسن حنفى: أحمد الشيخ أعد دراسة عن هذا الموضوع ، حسب علمى ، أنا لم أقرأها فى مكان ما واستعملتها استعمالاً تلقائياً بعد ١٩٦٧ فى كتيبى «قضايا معاصرة» جزء أول وثان ، والتراث والتجديد وقبل ذلك فى مقدمة الرسالة الأولى والثانية بالفرنسية عام ١٩٦٥ و ١٩٦٦ ، على أساس أن دراساتى للمظاهرة ومحاوله دراسة الوعى الأوروبى ورصد بدايته ونهايته كانت وأنا أعيد كتابة أزمة العلوم الأوروبية لهسرل ، وتحديث عن شعور العالم الثالث فى مقابل الشعور الأوروبى .

أحمد الشيخ: لدىّ أولاً بعض الإيضاحات قبل أن أطرح وجهة نظرى حول كيف نشأت فكرة الاستغراب . أولاً لاحظ أن حسن حنفى يريد أن يبحث للفكرة عن ممثلين كبار ، فيشير إلى أنور عبد الملك وسمير أمين ، فى حين أن كليهما يرفضان فكرة الاستغراب رفضاً قاطعاً ، فى حدود ما أعلم ، ولم أجد فى مواقفهما أو كتاباتهما ما يشير إلى ذلك . ثانياً يشير حسن حنفى إلى أن الفكرة بدأت لديه أثناء إعداد رسائله للدكتوراه فى عام ١٩٦٥ ، وأنها مسجلة فى رسائله الفرنسية ، لا سيما فى مقدمتها ، بينما حسن حنفى فى هذا الموضوع يشرح منهج هسرل عن «الشعور المحايده» وهو أمر مختلف تماماً عن الشعور الإيجابى والفاعل الذى تطرحه دعوة الاستغراب اليوم . وثالثاً حسن حنفى يربط الفكرة بمؤتمر باندونج وفترة عدم الانحياز ، بينما هذه الفترة لم تكن قد اكتشفت بعد فكرة الاستقلال الثقافى ، وكانت تقف فقط عند أعتاب الاستقلال السياسى أو ما كان يسمى بسياسة عدم الانحياز . وبالتالى لم لاحظ ، ولم يلاحظ غيرى ، أن فكرة الاستغراب قد وكتبت دعوة باندونج وعدم الانحياز ، وإن كنت أرى أنها كانت فترة ملائمة لذلك ، لو تنبه قادة وأقطاب هذا التيار إلى مسألة الاستقلال الثقافى أيضاً ، واعتقد أن الفكرة طرحت أساساً فى بعض المؤتمرات الإسلامية فى مواجهة العداة الذى يتبدى فى كتابات بعض المستشرقين ، وأتذكر من هؤلاء الذين دعوا إلى هذه الفكرة محمد رجباء فى لاهور عام ١٩٥٧ . إذا كانت ذاكرتى قوية ، ثم كانت تطلق كدعوة عامة من وقت لآخر هنا أو هناك . وقد طرحها حسن حنفى فى عام ١٩٧٠ فى مقالة شهيرة له عن «موقفنا من الغرب» فى مجلة الفكر المعاصر ، ثم ذكرها ، حسب ما أعتقد ، فى هامش بإحدى صفحات كتابه التراث والتجديد الصادر عام ١٩٨٠ . وهنا لم يتعد الأمر مجرد إشارات عابرة لا تتجاوز سطرين أو ثلاثة عن ضرورة وجود استغراب كما كان هناك استشراق ، وفى الحقيقة معرفتى بهذا المصطلح تعود إلى كتاب برنارد لويس «كيف اكتشف المسلمون أوروبا» . ولأول مرة أطلع على مصطلح الاستغراب

بالفرنسية، وإن كان استخدام برنارد لويس للمصطلح في سياق الإشارة إلى عدم توافر الفضول لدى المسلمين لكي يتجهوا نحو دراسة الآخر، وهو ما استفزني وجعل الرد على هذه الفكرة شغلي الشاغل لفترة طويلة، وقد تبدي ذلك في كتابات كثيرة بالصحف والمجلات التي كنت أعمل بها، وكان من نتيجة هذا الجهد، وإشارة هذه القضية على نطاق واسع، وجذب عدد كبير من المفكرين العرب والفرنسيين للحديث عنها، أن أصبحت قضية مطروحة على نطاق واسع. وهنا تدخل حسن حنفى وكتب دراسة، في أعقاب نشرى حوار الاستشراق والاستغراب، والذي رفض أن يشارك به، تحت عنوان «نحو علم اجتماعى جديد» ثم غير عنوانها من جديد «من الاستشراق إلى الاستغراب» ثم ما هو يعد كتابا جديدا أعطاه اسم مقدمة في علم الاستغراب، وقرأنا منه بالأمس أحد فصوله التي حملها معه من القاهرة والذي من المتوقع صدوره، كما أشار، خلال الأشهر القادمة... نسيت أن أشير إلى أن هناك بعض المفكرين الغربيين يطرحون المسألة ذاتها، أى أمنه يطرحون فكرة الاستغراب ببواعث مختلفة، فهناك من يطرحها في أفق استفزازي ضد العرب والمسلمين، وهناك من يطرحها لأنه يرى أنه من الأفيد للحضارة الغربية أن ينظر إليها من خارجها، مثل جوزيف نيدهام، وهناك عالم الإناسة الفرنسى لسويثون، الذى طرحها وعمل على تنفيذها بأن استقدم مجموعة من الرواة الأفارقة ليدرسوا بعض ظواهر المجتمع الفرنسى والإيطالى، وقد لخص هذه التجربة فى كتابه «النظر غير المتكافئ» وكنا قد استقبلنا منذ شهور هنا، فى المركز العربى للدراسات الغربية، وناقشنا كتابه وتجربته الفريدة. هناك أيضا الفيلسوف الفرنسى ميشيل سير الذى تحدث عن أهمية الفكرة قبل أن تغرق بنا سفينة نوح وفقا لتعبيره. هذا باختصار تصورى للسؤال الذى بدأنا به.

حسن حنفى: كأنك تبحث عن الاستغراب لدى الغربيين أو الاستشراق لدى الشرقيين؟! الغرب لا يمكن أن يدرس نفسه أو يجعلها موضوعا للدراسة، هو يدرس الآخرين، أما أن يحول الغرب نفسه إلى مواضيع دراسة فهذا لا أفهمه.

هاشم صالح: ولم لا! هو بالفعل يحول نفسه إلى موضوع للدراسة، لكن أن يجعله غير الغربيين كذلك فهو أمر لم يبدأ بعد.

حسن حنفى: نعم فلاسفة التاريخ، خاصة شبنجلر عندما كتب أفول الغرب، هذه دراسة عن تطور الغرب وأخذ الغرب كموضوع للدراسة... توينى قال الشئ نفسه، يقول أنا الغرب عن طريق المسيحية يمكن أن يعيد إليها الحياة من جديد، وبرجسون

فى الفصل الاخير من كتابه منبع الاخلاق يتكلم عن انهيار الغرب والمادية الآلية ، وإن الغرب يحاول أن يصنع آلهة جديدة من المادية ، وكذلك هسرل فى كتابه "أزمة العلوم الأوروبية" يحاول أن يبين بداية ونهاية الغرب ، ويوجه نداءً فى النهاية : خطر ، خطر يا أوروبا ، لابد أن تنهضى من جديد .

علاء طاهر : قضية البحث عن روح .

حسن حنفى : فلاسفة التاريخ أدركوا أن هناك مأساة ، وحاولوا بالتحليل الذاتى للوعى الأوروبى ، فهل هذا استغراب ؟ لا إنما رؤية الغرب لنفسه .

أحمد الشيخ : هناك أيضاً دعوة بعض المفكرين الغربيين لأن نرى الحضارة الغربية من خارجها مثل جوزيف نيدهام ، وهناك من يدعو لذلك سخرية وانتقاصاً من قدر المسلمين ، وأنهم لا يتعلمون إلى معرفة الآخر ، بالطبع الغرب يمكن له أن يدرس نفسه ، لكن أفق الدراسة يختلف بالطبع عن تلك الرؤية القادمة من حضارة أخرى .

حسن حنفى : فى أول لقاء لنا بالغرب ، وأول اكتشاف بأن هناك عالم آخر مختلفاً عن الأنا ، كان الطهطاوى يقول فى تلخيص باريز : عندهم حدائق ومسارح ، أما نحن ... هل هذا حديث عن الآخر أم الأنا ؟ الأنا فى مرآة الآخر ، والآخر فى مرآة الأنا ، .. انعكاس جدل الأنا والآخر . كان هذا بداية ظهور جدل الأنا والآخر .

أحمد الشيخ : لكن مع أهمية محاولة الطهطاوى ، فى هذا الشأن ، وأنها أول محاولة فى الكتابة عن الآخر ، كما تقول ، إلا أنه لم يكن لديه ، ولم يكن من الممكن أن يكون له فى هذا الوقت المبكر ، هذا الأفق من الرؤية والتحليل الذى تكشف عنه فكرة الاستغراب اليوم . فالجديد فى الاستغراب اليوم ، كما أراه ، هو التركيز أكثر على المواقع الذاتية والحضارية للأنا التى تنظر وتكتب عن الآخر ، وهذا لم يكن موجوداً بهذا القدر والوضوح أيام الطهطاوى .

حسن حنفى : هذه قضية ثانية ، نقل الشقافة الغربية والترويج لها لدى البعض ، لكن الهدف من الاستغراب ودراسة الغرب بوصفه المغاير والمخالف للأنا ، هو من أجل تطوير هذه الأنا . الطهطاوى كان يتحدث عن الغرب من أجل ماذا؟ كى يبرز للمصريين والعرب أن هناك أشياء لابد أن تتغير عندنا كما تغيرت فى الخارج ، وأن هناك نمط حياة وفلسفات أكثر تقدماً مما نحن عليه ، وأنا عملت الشئ ذاته وأنا أدرس الفلسفة الأوروبية بعد هزيمة ١٩٦٧ فى كتابى قضايا معاصرة وفى ترجماتى عن إسبنوزا وكانط وماركيوز

لم تكن الغاية هي هؤلاء، أو أعمالهم، بل كانت الغاية تطوير عقلانية الذات ودعوتها للنظرة النقدية. ففى مراكش، منذ أسبوعين، وأنا فى ندوة عن علال الفاسى، قام الطلاب المغاربة وقالوا هذا بأنفسهم: هل يمكن عمل دراسة موضوعى فى جيلنا لآى حضارة أخرى؛ لأننا كعرب تحاصرنا الهموم وقضايا التحديث والنهضة، وهذه الهموم والاهتمامات تفرض نفسها... زكى نجيب محمود فى كتابه عن «المنطق الوضعى»، ولا أعرف إلى أى حد هذا الكلام صحيح، قال إنه عندما سمع فى لندن عن المذهب الوضعى ورجع إلى بلده ووجد الفكر الصوفى والرجعى وغير العقلانى، لهذا أراد أن يعلم الناس أحد أنماط التفكير العلمى التجريبي، فتأليف كتاب عن «المنطق الوضعى» يمكن أن يكتب فى ألمانيا لكن اختيار المذهب والترويج له فى بيئة مخالفة يهدف إلى تغيير هذه البيئة ونقلها من مستوى إلى مستوى.

أحمد الشيع: لا خلاف فى مسألة الهدف من دراسة الغرب من أجل تطوير الذات، لكن عندما نقدم هذا المذهب أو ذاك فى ثقافتنا هل أضاف إليه مفكرنا؛ وهل أبعد فى تطويره أم كان مجرد ناقل كما يحدث فى أغلب الأحيان.

حسن حنفى: نبالطبع هناك تيار يجعل من نفسه بوتقة يصب فيها الفكر الغربى، والموقف الثانى المعادى الذى تعلنه الجماعات الإسلامية، محمد الغزالى كتب «ظلام من الغرب» بينما زكى نجيب محمود كتب «شروق من الغرب»، ثم هناك موقف ثالث هو موقف الذى يستنقى، ويمثله الإصلاحى محمد عبده والأفغانى. وعلم الاستغراب يمثل موقفا مغايراً، فليس الغرب مكانا للظلام وليس مكانا للشروق كذلك وإنما هو موضوع للدراسة.

علم الاستغراب لا يرى أن هناك نمطاً واحداً من التحديث والعلم والثقافة وهو نمط المركز الغربى ولا يخلط بين الحضارة التاريخية أو التاريخية المرتبطة بالزمان والمكان والحضارة العالمية: فواد زكريا يقوم بهذا. هناك فرق بين ثقافة والحضارة، إنهم يخلطون بين الاثنين ويعتبرونهما الشيء ذاته وهى فى النهاية الحضارة الغربية، ومن يريد أن يتحضر عليه أن يأخذ بها!... أقول: إذا علم الاستغراب هو من أجل إيجاد منطق لعلاقة الأنا بالآخر وأنواع الحركة بينهما، ولماذا لم ينشأ لدى أسلافنا القدماء ما نعانى نحن منه من تبعية وتغريب، فى فترة الحروب الصليبية، عندما جاء الصليبيون غازين رجعوا متعلمين، هذه علاقة بن الأنا والآخر. وقبل ذلك كانت علاقتنا باليونان أيضاً فى عصر المأمون مرحلة من مراحل علم الاستغراب، إذا علاقة الأنا بالآخر متعددة

المراحل والجوانب . لكن ما يهمنى حاليا فى الموقف من الغرب تساؤلات : هل هناك حضارة بألف ولام التعريف وباقى الحضارات الأخرى لا شئ * وما هى شروط الإبداع لدينا بدون أن نكون باستمرار فى حالة تعلم .

محمد العلاتى :التساؤل إذا كان مفهوم الاستغراب قد ظهر من قبل أم لا ؟ فى تصورى هو تساؤل غير ممكن لسببين : الأول أنه كان لابد للعالم العربى أن يستفيد من تجاربه الفاشلة الناجمة عن علاقته بالغرب التى طغى عليها عنصر التماهى أو التعريب ... فشل هذه التجارب وما كان عليه الاستشراق من نظرة مركزية أوروبية ، هى التى جعلت الحديث عن الاستغراب ممكناً اليوم وليس فيما مضى .

حسن حنفى :لماذا بدأ الاستغراب يظهر الآن وليس قبل ذلك ؟ يعود إلى أشياء كثيرة من بينها بالفعل فشل إيديولوجيات التحديث ، وبداية إكتشاف أن الاستشراق ليس بحثاً علمياً محضاً ، وإنما له مقاصد أخرى .

أحمد المطيلى :لكن هل وجدت مصطلحات تعبر عن التعرف على الغير فى تراثنا يمكن أن نفيدنا فى دراسة الآخر .

حسن حنفى :المصطلح لم يكن موجوداً فى الماضى ، البيرونى لم يضع كتابه تحت مصطلح معين ، ابن سكويه كذلك ، والفلاسفة المسلمون عندما شرحوا أرسطو لم يضعوا ذلك تحت مصطلحات معينة كما نستخدم نحن الآن مصطلح الاستغراب ، وبما لأنهم كانوا يتعاملون مع الآخر من منطق قوة بمعنى أنهم لم تكن لديهم عقدة النقص التى لدينا ، كانوا هم وارثى الحضارة ، وكانوا فاتحين ، وكانت هذه ثقافات الشعوب المغلوبة فى النهاية .

جيرجوار ميرشو :أرجو أن لا نتعسف فى فرض أشياء لم تكن موجودة فى الحضارات القديمة . مفاهيم شرق وغرب هى فى الواقع مفاهيم حديثة ، وبما أنها حديثة أقول إنه لأول مرة فى التاريخ حدث نمط جديد فى السيطرة والغلبة والهيمنة . فالحضارة الراهنة لا تفرض نفسها عسكريا وسياسيا بل ثقافيا أيضا ، أما فى السابق فلم يتطرح هذا الإطلاق ، ولأول مرة فى التاريخ تنطرح فكرة الهيمنة الثقافية ، من هنا تأتى فكرة الاستغراب وتطرح بشكل جديد .

حسن حنفى :إضافة جيدة تبرز أن علم الاستغراب هو مقاومة لثقافة المحتل .

حسان عرفاوى :أنا فى الحقيقة لم أقتنع بعد بمصطلح الاستغراب وبأهميته المعرفية .

وأتساءل هل يمكن بناء مصطلح على مستوى الفكر فقط دونما أن تكون هناك حاجة اجتماعية لذلك، وليس فقط النخبة التي تفكر بدلا عنه فيكون تفكيرنا مستجها دائما الى الآخر أو الغرب ؟ وسؤالى الثانى : إذ كان مصطلح الاستغراب مبرراً فما هى المشروعية الفكرية خاصة على مستوى التاريخ العربى ، وأى المراجع والمدارس التى يستند إليها ؟ أعتقد أن طرح مسألة الاستغراب اليوم هو نوع من مواصلة التماهى بالآخر . وإذا كان الاستغراب هو رد فعل على الاستشراق ، هل نحن فى حاجة فعلاً إلى الاستغراب ؟ أنا أقول إننا فى حاجة الى استشراق قبل أى شئ ، استشراق مبنئ من خلال استرجاع شرعيتنا التاريخية ، شرعية الفكر أن يتواصل من خلال ذاته ، استشراق مبنئ على فهم أسس الذات ، وليس الاستشراق بمعناه الشائع ، وليس من خلال رؤية الآخر ، أى أدعو إلى العودة إلى الثقافات حتى ما قبل الإسلامية لمعرفة لماذا وقعت قطيعة فى فترة من الفترات فى التفكير العربى الإسلامى ولماذا فى القرنين السابقين .

حسن حنفى: إذكر لى حالتك الآن . ألا تشعر أن هناك آخر قابع بداخلك ؟

حسان عرفاوى: أكيد لا يمكن للمرء أن يتجاهل تكوينه ومباشرة للواقع الغربى

حسن حنفى: هل يسبب لك أزمة .

حسان عرفاوى: المطروح بصراحة ليس على مستوى نفسى ، وإنما أطرح القضية على مستوى فكرى . ليس لدى رفض للغرب على مستوى نفسى ، لكن المسألة تتعلق بكيف نستعيد التفكير فى ذاتنا وتاريخنا وثقافتنا .

حسن حنفى: حلل نفسك من الداخل . . ألا تشعر أنك مزدوج الثقافة وعندما تفكر لا تعرف ماذا تفعل !! ألا تشعر أنك كى تفهم الظاهرة السياسية تحيل نفسك أحيانا إلى العقد الاجتماعى والفصل بين السلطات وأحيانا أخرى تحيل نفسك الى الشورى ، وبالتالي تعيش نوعاً من الاضطراب والازدواجية فى الإطار المعرفى العام . لذلك علم الاستغراب وظيفته فك هذا الاشتباك .

حسان عرفاوى: أنا طرحت مسألة الشرعية الفكرية لأننا نتحدث فى مجال الفكر ، أنا أفكر فى أشياء أكثر عملية وأتساءل كيف يقع الاعتراف بباحث داخل الوطن العربى إذا لم يكن قد تكوّن فى المدارس الغربية وإذا لم يستشهد بمدارس غربية تعطيه شرعية فكرية ، وإذا لم يكتب فى مجلات علمية غربية ؟ . . هذه أشياء لابد أن تطرح على مستوى تنظيم الجامعة والبحث العلمى .

حسن حنفى: أنا أحاول أن أضع لكلامك إطاراً ، ما قلته صحيح عند فريق واحد هو فريق المستغربين ، الذين يرون أنه لا تعطى للإنسان مشروعية إلا إذا كان له رصيد فى الثقافة الغربية فى المجالات الغربية .

حسان عرفاوى: فى آخر كتاباتك تساءلت ، لماذا كنت تحتاج إلى الفلسفة الظاهرية كى تبين أن هناك إمكانية لقراءة مختلفة للقرآن حسب القصد . أنا لم أفهم لماذا كنت محتاجاً إلى اللجوء إلى هذه المدرسة الغربية مع أنه كان بإمكانك أن تستمد المشروعية الفكرية لهذا التوجه من خلال المنظومة الفكرية باعتبار أن المدارس الفقهية تقول إن القصد ...

حسن حنفى: قلت ذلك فى أصول الفقه قبل الظاهريات .

حسان عرفاوى: لكنك احتجت للخروج من هذا الحقل الفكرى لتذهب إلى المدرسة الغربية ثم تعود فيما بعد .

حسن حنفى: لا ، العكس هو ما حدث ، لقد بدأت بأصول الفقه عام ١٩٦٥ ثم الظاهريات جاءت متأخرة ، عندما حاولت أن أرى محيط الأنا الآخر ، والآخر هو الظاهريات بالنسبة لى ، لأنها ترصد أزمة العلوم الأوروبية ، ترصد مسار الآخر ، فأخذت الظاهريات باعتبارها آخر ما أنتج الغرب وتحاول أن تصف ما أحوال أنا وصفه ، وأن للآخر بداية ونهاية ، وكلنا ونحن نناضل ضد الإنجليز كنا متأثرين بفكرة أن الغرب قارب على الانتهاء ، وأن النضال ضد الغرب سيوقفه عند حده ، وأن المستقبل ، لنا وأن شعوب العالم الثالث المستحرة هى التى سترث الغرب ، ووجدت أن الظاهريات تقول ذلك بأسلوب علمى . وأنه لا يمكن أن تقوم تجربة جديدة فى الغرب ، لأن المشروع الغربى اكتمل . فى الفلسفة أخذت الظاهريات لأنها تعطينى مساحة لتناول الغرب أو الوعى الغربى باعتباره وحدة واحدة ، أنا لست مهتماً بفيلسوف أو مذهب ، بل بالآخر كله ، كيف نشأ ؟ كيف تطور؟ هل اكتمل؟ هل انتهى ؟ وما مصيره ؟ ومن ثم الظاهريات هى التى حاولت وضع هذا الإشكال ، ومن ثم بدأت أدرس الظاهريات لاكتشف أن الآخر له بداية ونهاية والأنا ...

أحمد الشيخ : جميل هذا الإيضاح لأسباب ارتباطك بمنهج الظاهريات فى البداية . لكن المشكلة أنك استخدمت هذا المنهج كمنهج دائم للتحليل حتى الآن .

حسن حنفى: أنا لم أدرس الآخر أولاً ثم طبقته فى الأنا بل بدأت بالأنا وبينت إمكانية

صعودها ثم بينت ثانية الآخر وبينت احتمال أنه قال كل ما لديه وأن هناك علامة استفهام كبيرة حول الوعي الأوروبي إلى أين ؟ ... لكن القضية حالياً أن الأنا في نهضتها حدثت لها عثرات .. صحيح نجحت في طرد المستعمر خارجياً لكن في التحديث والتنمية تزداد اعتماداً على الآخر لذلك فكرت في علم الاستغراب .

هاشم صالح : بالنسبة لى أرى الأمور من خلال مصطلح صغير مكون من كلمتين هو «الحس التاريخى» والشئ الذى يمكن أن نأخذنه على الجيل السابق علينا ، ومنهم أستاذنا حسن حنفى ، هو ضمور الحس التاريخى فى تحليلاته . بشكل عام الغرب مطروح كأنه شئ لا يحاط .. المشكلة مزدوجة ، الذات العربية نفسها مطروحة خارج الزمان والمكان ، بدون ميلاد أو تطور . وحتى نكشف تطورها هذا يفترض شجاعة فى معارضته الذات ، معرفة الذات العربية والإسلامية تحتاج إلى حس تاريخى متناه وليس دفعة واحدة ، لأن الحقيقة قد تقتل أحياناً ! من الذى يمكنه أن يعرف المنشأ الأسلى للحركات الإسلامية الكبرى معرفة تاريخية غير المعرفة الإيمانية التقليدية التى تربينا عليها والتى لا يمكن أن نتنفس خارجها ... نحن فى حاجة الى التسليح بهذا الحس التاريخى لمعرفة الذات وللمعرفة الآخر أيضاً . أنا عندما جئت إلى فرنسا كنت مبهوراً مثل الطهطاوى ، لكن بعد الانبهار جاءت لحظة النظرة النقدية .. فى مرحلة الانبهار سيختفى دائماً الحس التاريخى ..

حسان عرفاوى: إذا انتقلنا بفكرة الاستغراب من حيز الدعوة إلى خير التطبيق ، فعلى أى أسس معرفية يتم ذلك ؟ ما الذى ينبى لى الطريق ؟

أحمد الشيخ : ما يقوله حسان عرفاوى يطرح بالضرورة المواقع الذاتية والحضارية لمن يؤسسون فكرة الاستغراب عملياً . فعندما نأخذ الآخر موضوعاً للدراسة فإنه لا ينبغى أن نتوقف عند هذا الحد بل لابد أن نضيف شيئاً آخر .

حسن حنفى: ما هو؟

أحمد الشيخ : أن نصر أننا نجعل الآخر موضوعاً للدراسة من أفق معين وملامح ثقافية وحضارية معينة ، لأن أغلب المحاولات التى تأخذ الآخر موضوعاً للدراسة تغيب عنها هذه الأبعاد الثقافية والحضارية وما تفترضه من مناهج ذاتية فى الرؤية والتحليل . وحسن حنفى ذاته الذى يدعو للاستغراب ويريد تحجيم الغرب يفعل ذلك ، وهو يستند إلى

مناهج غربية .

حسن حنفى: يقولون عنى أننى أطبق من هنا وهنا، مثلما قالوا عن ابن سينا وابن رشد ويظل منهج الاثر والتاثر الهدف منه تفريغ الذات من قدرتها على الإبداع .

أحمد الشيخ: من يدعو إلى الاستغراب لابد أن تتوفر له طريقة من النظر والرؤية تعبر على جماع المقومات الرئيسية للشقافة التى يعبر عنها، وأن تكون هذه الطريقة أو المنهج على درجة من الوضوح تسمح له بعد ذلك بالحديث عن منهج الاثر والتاثر .

أحمد المطيلي: أتصور عندما ندرس الآخر و أننا نفكر فى الآخر ، ونفكر فى أنفسنا .. أحيانا نستخدم مقولات الآخر ، نستخدم مفاهيمه ومصطلحاته ، أنت تريد أن تدرس الآخر وتدرس ذلك، لكن فى النهاية الأمور ليست بهذا الانقسام البسيط فهناك تداخل للآخر على المستوى اللفظى والاصطلاحي ..

حسن حنفى: انظر يا أخى أنت تلعب فى ملعب الخصم ، من أجل هذا أفرق دائما بين العالم والمواطن ، أنت تلعب فى ملعب الآخر وليس فى ملعبك . أنت إسقطت تماما دورك كمواطن .

أحمد المطيلي: لست متفقاً معك فى التفرقة بين العالم والمواطن ، التواصل حاصل، لكن إذا كنت تجعل من نفسك عالماً ومواطناً فى نفس الوقت ونفس السياق، هنا يحصل خلط وتداخل وغموض ويمكن أن تظهر فى مظهر مواطن وفى مظهر عالم فتختلط الأمور .

حسن حنفى: فى حالة إذا لم تحصل الوحدة بينهما .

أحمد المطيلي: وهذه هى المشكلة فى الأغلب .

حسن حنفى: إذا استطعت فى الوقت الذى تكون فيه عالماً أن تظهر مواطنتك ، وفى الوقت الذى تكون فيه مواطناً أن تظهر كعالم فلاخوف إذاً من ذلك .

مجدى عبد الحافظ: أريد أن أنقل الحوار إلى مسألة أعتقد أنها هامة وهى: هل يكون الاستغراب يجعل الآخر موضوعاً للدراسة على المستوى الثقافى كافياً دون أن تنطرق أو نملك الجزء الثانى المتعلق بالصناعة والعلم والتكنولوجيا .

أحمد الشيخ: سؤال مشروع

حسن حنفى: نحن نضع الخميرة أما الاختمار فهو عملية طويلة جداً.

حسان عرفاوى: سمعت كلاماً عن المواطنة والالتزام بقضايا الوطن، لكن تظل القضية

المطروحة هي قضية معرفية ، ما هي العلاقة بين المواطنة والسياسة من جهة ، والمعرفة من جهة ثانية ، ومتى يكون العالم مواطناً ومتى يكون عالماً ، الشئ الثانى الذى أثار انتباهي عندما نقول إن الاستغراب موجه الى تحجيم الآخر ، فإنه يغيب عن هذا الكلام مسألة الوعي بالذات ، وعندما تكون المسألة موجهة للخارج فقط فإننا أرى ذلك مواصلة للتغريب في نهاية الأمر ، لأنه لم يجعلنا نصل إلى الوعي بأنفسنا ، وكيف تتكون المعرفة لدينا؟ ما هي مدارسها ؟ ما هي هياكلها ؟ ما هي العلاقة بين المفكر والسلطة والأيدولوجيا والمجتمع والثقافة الشعبية ؟ هذه التساؤلات ينبغي أن تسبق التساؤلات حول الآخر ، ولا يمكن فهم الآخر دون فهم الآليات التي تتكون من خلالها المعرفة لدينا .

حسن حنفى: واضح أنك متأثر بثقافة الحى اللاتينى ، الاستغراب ليس قضية معرفية ، الاستغراب ضد احتقار النفس ، ضد الاختناق .

حسان عرفاوى: في هذه الحالة لا يمكن تأسيس الاستغراب على مستوى معرفى وإنما نفسى .

حسن حنفى: أنت وقعت في اردواجية . إما ، أو ...

حسان عرفاوى: لابد من تحديد العلاقة بين الأشياء .

أحمد المطيلى : أنت بدأت وقلت علم الاستغراب هو محاولة لدراسة الآخر بطريقة علمية ومحاولة تلمس جدلية الأنا والآخر ، لكن الآن مع تطور النقاش نحصل على وجهة أخرى لم يكشف عنها التعريف الأول . والآن نحن نلمس شيئاً آخر ربما حسن حنفى المواطن وليس العالم ! في هذه الحالة إذا كنت تريد أن تحافظ على قدر من الاتساق بين المقدمة والنتيجة ، ولا أعرف في الحقيقة الآن أين المقدمة وأين النتيجة ، ينبغي القول: المشكل ليس معرفياً بل وجودياً .

جيرجوار ميرشو : لا ينبغي أن نحتقر أنفسنا ، لقد فعلنا أشياء كثيرة بدأت تظهر بوادرها في السبعينيات والثمانينيات . من قبل لم يكن هناك حديث عن الاستعمار الثقافى ثم بدأت مرحلة جديدة ومجهودات كثيرة هنا وهناك ، والمطلوب ، العمل على توحيد هذه المجهودات الفردية .

هاشم صالح: أنا أدعو أحمد الشيخ أن يحدد بوضوح أن الهدف من المركز العربى للدراسات الغربية الذى يريد تأسيسه ، هو القيام بدراسات تاريخية للحضارة الغربية ، وتنتهى من هذا الغموض الذى يحيط بمصطلح الاستغراب .

إعلان تأسيس المركز العربي للدراسات الغربية

انطلاقاً من حاجتنا إلى تجديد إدراكنا بالثقافة الغربية وبمحيطها الخاص وانطلاقاً من واقع أن معرفتنا بالغرب بصفة عامة هي معرفة محدودة وجزئية وغير دقيقة في أحيان كثيرة انطلاقاً من ذلك بدأنا التفكير في تأسيس المركز العربي للدراسات الغربية . فالحاجة إلى تجديد إدراكنا بالثقافة الغربية أصبحت ضرورة أساسية في نظر الباحثين العرب الذين ينهضون بأعباء هذا المشروع الوليد بهدف إنشاء قناة جديدة للمعرفة في العالم العربي يكون من مهامها إطلاع القارئ والباحث والمثقف العربي على الجديد - والقديم أيضاً - مما يشكل الملامح الرئيسية للحضارة الغربية المعاصرة ، وبصفة خاصة في مجال العلوم الإنسانية .

لكن كيف يمكن تجديد وعينا بالثقافة الغربية ثم لماذا في هذه اللحظات بالذات ؟! في الواقع، إن اهتمام الباحثين العرب ، في هذا المركز ، بدراسة الغرب كموضوع للعلم لا يعنى انصرافاً عن دراسة الثقافة العربية كما لا يعنى تخريباً للهوية القومية أو تدويلاً للشخصية العربية بل على النقيض من ذلك، يهدف هذا المشروع الجديد إلى تدعيم الثقافة العربية من خلال معرفة أفضل بالثقافات المغايرة لها ، فالجديد في هذا المركز أنه يتعامل مع منتجات الثقافة الغربية كموضوعات للعلم والمعرفة قبل اتخاذ مواقف التأييد أو الإدانة، والجديد أيضاً في هذا المشروع أنه يتعامل مع منتجات الثقافة الغربية في إطارها الشامل والحضارى، وليس كمنتجات من هنا وهناك دون أن يكون هناك عمق حضارى يعطيها معناها الحقيقي . فالتعامل يتم من خلال التركيز على المواقع والأبعاد الحضارية لكل من الثقافة العربية والثقافة الغربية في خطوطها العريضة . ومن هنا كان إصرارنا على أن مشروعنا هو مركز عربي للدراسات الغربية . أى أنه مركز مكرس للحديث عن آفاق الغرب المعاصر وتطورات وتقنياته الجديدة وانعكاسات ذلك على واقع المتجمعات العربية ، وإصرارنا على إبراز الأبعاد الحضارية لمثل هذا المشروع لا يعنى بحثاً عن الاختلاف والشقاق مع الثقافة الغربية، بل تمسكاً بهذا الاختلاف المثمر الذي ينشأ من التقاء ثقافات وحضارات مختلفة . وهو ما يدعو إليه رجال وقادة الفكر في الغرب أيضاً . والجديد أيضاً في هذا المركز هو وعى بعض الباحثين العرب المقيمين في العواصم الغربية بضرورة الاهتمام أكثر بدراسة الفضاء الثقافي الغربى الذى يعيشون في أروفته بهدف تقديم رؤية دقيقة وموضوعية ومواكبة لما يصدر في الغرب في كافة مجالات الثقافة الغربية . وبهذا يضطلع هؤلاء الباحثون بدور متواضع في إثراء الحياة الثقافية العربية ورفدها بما هو جديد ومثمر في إنتاج الثقافة الغربية

لكن يبقى التساؤل المحير وهو، كيف نجسد عملياً ما ندعو إليه بتجديد إدراكنا بالثقافة الغربية وبضرورة دراستها من خارجها أى من خلال رؤية عربية شرقية ؟!

ثم من سيدعم إذن مثل هذا المشروع الطموح ؟ هل تتباه بعض الجامعات العربية ؟ بعض مراكز الأبحاث ؟ وزارات التعليم ؟ وزارات الثقافة فى العواصم العربية أو الغربية ؟ فى الواقع إنها تساؤلات حيرتنا ولم نصل بعد إلى حسم كامل لها لكننا برغم ذلك نسير فى طريقنا إلى تأسيس هذا المركز والتعريف بأهدافه وبرامجه ووسائل تحقيقها فربما نجد أذاناً صاغية ومؤمنة بضرورة إنشاء استغراب عربى - أى دراسة الغرب من خارجه ومن خلال رؤية عربية - يقدم للعالم وجه الحضارة العربية ومساهمتها فى مسيرة التقدم الإنسانى ..

ويطمح المركز إلى :

- ١ - إصدار مجلة «دراسات غربية» كمجلة فصلية إلى حين يتوفر لها إمكانيات الصدور بصفة شهرية .
- ٢ - إصدار سلسلة من الترجمات التى تعبر عن فلسفة المركز وطموحاته على أن تصدر هذه السلسلة عن طريق دار نشر باسم هذا المركز .
- ٣ - إعداد نشرات متخصصة لأهم ما يصدر فى الغرب من كتب فى مجالات العلوم الإنسانية وفى المجالات الأخرى التى تثبت الحاجة إليها .
- ٤ - إعداد دراسات ومقالات باللغات الأجنبية ونشرها فى الصحف والمجلات الغربية فى نطاق فلسفة المركز وأهدافه العامة .
- ٥ - الإعداد لمجموعة من الندوات وحلقات النقاش التى تعبر عن رسالة المركز الثقافية والحضارية ويسهم بها باحثون عرب وآجانب .
- ٦ - دعم الباحثين العرب وتوجيههم ومساعدتهم على إنجاز أبحاثهم الجامعية .
- ٧ - ترجمة الأطروحات التى أعدت لنبيل درجة الدكتوراه من الجامعات الغربية ونقلها إلى اللغة العربية وحتى يمكن الاستفادة منها .
- ٨ - متابعة النقاشات الثقافية الدائرة فى الغرب والمساهمة بها ونقلها إلى اللغة العربية بصورة دقيقة وفى وقت حدوثها ..

المؤلف فى سطور

- يتيمى أحمد الشيخ إلى هذا الجيل الجديد من الكتاب والصحفيين الذين أعلنوا عن وجودهم بصورة ملفتة للنظر فى السنوات الأخيرة.
- وعلى الرغم من إقامته، فى العاصمة الفرنسية، أكثر من عشرين عاماً، فإنه يمثل أحد الوجوه البارزة التى حافظت على إستقلالها الوطنى والحضارى ، بعيداً عن تيارات وأقنعة التغريب والحدائة الزائفة.
- وتكشف كتاباته ومواقفه عن إصرار واضح فى الحفاظ على هذا الإستقلال فى زمن تلغى فيه العولمة كل مظاهر الإستقلال، كما تكشف كتاباته أيضاً عن مواكبة دقيقة لتطورات الحياة الثقافية فى عواصم الغرب الكبرى.
- وهو من الذين غاصوا بعمق، إن لم يكن قد شارك بالفعل، فى قضايا الصراع الثقافى والحضارى الدائر منذ سنوات على أكثر من صعيد.
- وعمل أحمد الشيخ فى عدة صحف ومجلات عربية أهمها :
اليسار العربى (١٩٧٩-١٩٨٠) الوطن الكويتية (١٩٨١-١٩٨٦) ومجلة
الفرسان (١٩٨٦-١٩٨٨) الحياة اللندنية (١٩٩٦-١٩٩٨) ويكتب حالياً فى
جريدة الأزهر .
- ومن الكتب التى صدرت له :
- من نقد الاستشراق إلى نقد الاستغراب - حوار الاستشراق (١٩٩٩)
- ترجمة كتاب : الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية. كلود كاهن (١٩٩٥)

يصدر عن المركز العربي للدراسات الغربية الكتاب الثالث

من نقد الاستشراق إلى نقد الاستغراب

المستشرقون العرب وازمة المناهج

أحمد الشيخ

- زكى نجيب محمود : خلافتنا مع الغرب وهم متبادل ١٥
- فتحي وضوان : كراهيتنا للغرب .. مشروعة ٢٧
- فؤاد زكريا : الغرب لم يفرض ثقافته ٤١
- أنور عبد الملك : أنا دائما مع ربح الشرق ٦١
- علي فهمي خشيم : الغرب يرفض الاستغراب ٧٩
- لويس عوض : الغرب ... غروب ٩٥
- محمد عزيز الجبالي : لدينا الاستغراب الملائم لنا ١١٣
- مصطفى صفوان : الاستغراب يؤدي إلى التحرر الوطني ١٢٩
- سميح فرسون : الاستغراب نقد للغرب ١٤٣
- كرم خله : حذار من المركزية الشرقية ١٥٥
- أنطوان المقدسي : للغرب دائما وجهان ١٦٩
- السيد ياسين : فهمنا للتبعية مصدره الغرب ١٨١
- الحبيب الجنعاني : قضايانا أولا والاستغراب ثانيا ١٩٧
- أنور لوقا : أنا مستغرب بدون استغراب ٢١١
- محسن مهدي : فلاسفة الاسلام تكلموا باسم الآخر ٢١٩
- علال سيناصر : مستغربون أكثر مما نظن ٢٢٩
- عز الدين قلور : نعم للاستغراب لكن بشروط ٢٣٩
- محمد الثيرب : استغراب بدون استشرق ٢٤٧
- رينيه حبشي : لا شرق ولا غروب ٢٥٥
- محمود القيمي : الترجمة تشجع على التفاهم ٢٦٣
- أمين معلوف : مع تعدد الانتماءات والحضارات ٢٧٥
- ندوة المركز العربي للدراسات الغربية عن آفاق الاستغراب ٢٨٥

شارك بها : حسن حنفي أحمد الشيخ أحمد المطيلي
هاشم صالح محمد الملاي علاء طاهر
چيرجوارميرشو مجدى عبد الحافظ محمد سيف

